الفصل الأول

معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه من مولده حتى نهاية عهد الخلافة الراشدة

المبحث الأول

اسمه ونسبه وكنيته وأسرته

أولاً: اسمه ونسبه وكنيته ومولده:

هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب أمير المؤمنين ملك الإسلام، أبو عبد الرحمٰن، القرشي الأمويّ المكي[1]، ولد قبل البعثة بخمس سنين، وقيل بسبع، وقيل: بثلاث عشرة، والأول أشهر[2]، وكان رجلاً طويلاً، أبيض، جميلاً، مهيباً، وقد تفرس فيه والده ووالدته منذ الطفولة بمستقبل كبير، فهذا أبو سفيان ينظر إليه وهو يحبو فيقول لوالدته: إن ابني هذا لعظيم الرأس، وإنه لخليق أن يسود قومه، فقالت هند: قومه فقط، ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة[3]، وعن أبان بن عثمان قال: كان معاوية يمشي مع أمه هند، فعثر، فقالت: قم لا رفعك الله، وأعرابي ينظر، فقال: لمَ تقولين له ذلك؟ فوالله إني لأظنه سيسود قومه، قالت: لا رفعه الله إن لم يسد إلا قومه[4].

ثانياً: إسلام أبي سفيان والد معاوية رضي الله عنه:

كان أبو سفيان من عتاة الجاهلية الذين حاربوا الإسلام.. وكتب السيرة النبوية وصفت أعماله ضد الدعوة الإسلامية، إلا أن الله تعالى أراد الهداية له، فأسلم قبل فتح مكة بقليل، وقد أكرمه رسول الله ﷺ في فتح مكة وأعلن: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[5]، وفي هذا الإكرام النبوي الشريف لأبي سفيان لفتة تربوية، ففي تخصيصه ﷺ بيت أبي سفيان شيء يشبع ما تتطلع إليه نفس أبي سفيان، وفي هذا تثبيت له على الإسلام وتقوية لإيمانه[6]، وكان هذا

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 120).
(2) الإصابة (6/ 151).
(3) البداية والنهاية (11/ 398).
(4) سير أعلام النبلاء (3/ 121).
(5) البخاري رقم (4280).
(6) المستفاد من قصص القرآن (2/ 403).

الأسلوب النبوي الكريم عاملاً على امتصاص الحقد من قلب أبي سفيان، ويرهن له بأنَّ المكانة التي كانت له عند قريش لن تنقص شيئاً في الإسلام إن هو أخلص له، وبذل في سبيله[1]، وهذا منهج نبوي كريم، على العلماء والدّعاة إلى الله أن يستوعبوه، ويعملوا به في تعاملهم مع الناس[2]، وقد حسن إسلام أبي سفيان وشاهد المواقع وقدم خدمات جليلة للإسلام، فقد كان مع رسول الله ﷺ في حنين، وشارك في حصار الطائف وفقد إحدى عينيه فيها، وفي اليرموك فقد الثانية[3]، وبعد ثقيف أرسله رسول الله مع المغيرة بن شعبة لهدم اللات[4] ـ صنم ثقيف، وقد كانت اللات معظمة عند قريش كذلك، وكانوا يحلفون بها، وهذا دليل على تغلغل الإيمان في قلب أبي سفيان ﷺ ، لقد أسلم أبو سفيان إذن بعد أن ظل حبه للرياسة وممارسته لها حائلاً بينه وبين الإسلام، وقد راعى رسول الله ﷺ هذه العوامل النفسية المؤثرة على نفس أبي سفيان ونفوس علية القوم من قريش بعد الفتح، فقد جعل من دخل دار أبي سفيان آمناً، كما أعطاه من غنائم حنين مع غيره ممن سموا آنذاك بالمؤلفة قلوبهم[5].

ولم ينس أبو سفيان ما فعله ضد الإسلام أيام الجاهلية، وحرص على مضاعفة جهده في خدمة الإسلام، وقال عنه ابن كثير: من سادات قريش في الجاهلية، وتفرَّد فيهم بالسؤدد بعد يوم بدر، ثم لما أسلم حسن بعد ذلك إسلامه، وكانت له مواقف شريفة، وآثار محمودة في اليرموك وما قبله وما بعده[6].

وروي عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا صوت رجل واحد يقول: يا نصر الله اقترب، والمسلمون يقتتلون هم والروم، فذهبت أنظر فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد[7]، وروي أنه كان يوم اليرموك يقف على الكراديس: فيقول للنَّاس: الله الله إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهمَّ هذا يوم من أيامك، اللهمَّ أنزل نصرك على عبادك[8]، وقيل مات سنة إحدى أو اثنتين أو ثلاث أو أربع وثلاثين[9]، وصلى عليه ابنه معاوية، وقيل: بل صلى عليه عثمان، وله ثلاث وثمانون، وقيل: كان له بضع وتسعون سنة[10].

---

(1) قراءة سياسية للسيرة النبوية، لمحمَّد رواس ص: 245.
(2) السيرة النبوية للصَّلّابي (2/ 497).
(3) التبيين في أنساب القرشيين ص: 203.
(4) السيرة النبوية لابن هشام (4/ 195).
(5) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 142.
(6) البداية والنهاية (11/ 397).
(7) التبيين في أنساب القرشيين ص: 203.
(8) المصدر نفسه ص: 203.
(9) المصدر نفسه ص: 203.
(10) المصدر نفسه ص: 204.

ثالثاً: هند بنت عتبة بن ربيعة أم معاوية ﷺ:

هي أم معاوية، أسلمت يوم الفتح، بعد إسلام زوجها أبي سفيان، فأقاما على نكاحهما، ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرِّجال، بايع النساء - وفيهنَّ هند بنت عتبة وكانت متنكرة، خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها، لما صنعت بحمزة -: على ألَّا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصين في معروف، ولما قال النبيُّ ﷺ: «ولا يسرقن» قالت هند: يا رسول الله، إن أبي سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني، ويكفي بنيَّ، فهل عليَّ من حرج إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها ﷺ: «خذي من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف»، ولما قال: «ولا يزنين» قالت هند: وهل تزني الحرّة؟ ولمّا عرفها رسول الله ﷺ قال لها: «وإنك لهند بنت عتبة؟» قالت: نعم، فاعف عمّا سلف عفا الله عنك، وقد بايعنِ رسول الله ﷺ من غير مصافحة، فقد كان لا يصافح النساء، ولا يمس يد امرأة إلا امرأة أحلّها الله له، أو ذات محرم منه، وفي الصحيحين عن عائشة ﷺ أنها قالت: لا والله! ما مست يد رسول الله يد امرأة قط[1]. وروى ابن سعد بسنده عن عبد الله بن الزبير أنه لما بايعت هند تكلمت فقالت: يا رسول الله، الحمد لله الذي أظهر الدين الذي اختاره لنفسه، لتنفعني رحمك يا محمد، إنني امرأة مؤمنة بالله، مصدقة برسوله، ثم كشفت عن نقابها وقالت: أنا هند بنت عتبة، فقال رسول الله ﷺ: «مرحباً بك»، فقالت: والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض من أهل خباءٍ أحب إليَّ أن يعزّوا من أهل خِبائك، قال: «وأيضاً والذي نفسي بيده». قالت: يا رسول الله، إنَّ أبا سفيان رجل مِسِّيك، فهل عليَّ حرج أن أطعم من الذي له عِيالنا؟ قال: «لا أراه إلا بالمعروف»[2]. ولما أسلمت هند وبايعت عادت إلى بيتها فجعلت تكسر صنماً كان عندها حتى فلذته فلذة وهي تقول: كنت منك في غرور[3]، ولما رأت المسلمين ببيت الله الحرام قالت: والله ما رأيت الله عُبد حق عبادته في هذا المسجد قبل الليلة، والله إن باتوا إلا مصلين قياماً وركوعاً وسجوداً[4]. وكان لهند في جاهليتها موقف مع زينب بنت المصطفى ﷺ، فقد كانت بمكة مع زوجها أبي العاص ابن الربيع وأرسل النبي ﷺ من يأتيه بها إلى المدينة، وكان ذلك بعد «بدر» ولم تجف دماء قريش بعد، وكانت «هند» قد أصيبت بأبيها وأخيها وعمها، وكانت تطوف على مجالس قريش وأنديتها تُذكي نار الثأر، وتؤجج أوار الحرب، وفي الطريق لقيت زينب بنت رسول الله ﷺ، وكان قد تسرَّب خبر استعدادها للخروج لأبيها فقالت هند: أي بنت محمد، بلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك!!.. أي ابنة عمي، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يعينك في سفرك، أو بمال تبلغين به إلى أبيك، فعندي حاجتك فلا تستحي مني، فإنه لا يدخل بين النساء ما يكون بين

(1) البخاري رقم (5288) مسلم رقم (1866).
(2) الطبقات الكبرى (8/172)، البخاري رقم (3825).
(3) الطبقات (8/172).
(4) نحو رؤية جديدة للتاريخ ص: 200.

الرجال، تروي زينب ﷺ ذلك، وتقول: ووالله ما أراها قالت إلا لتفعل[1]. ثم يوم خروج زينب يتعرض لها رجال من قريش، يريدون إرجاعها، فتسقط من على ناقتها وكانت حاملاً، فتزف، وتسمع هند، فتخرج مسرعة وترفع عقيرتها في وجه قومها: معركة مع أنثى عزلاء؟؟ أين كانت شجاعتكم يوم بدر؟ وتحول بينهم وبين زينب وتضمها إليها وتمسح عنها ما بها، وتصلح شأنها، حتى استأنفت الخروج إلى أبيها في أمن وأمان[2]. وكانت هند امرأة حازمة شاعرة ذات نفس وأنفة. ويروى أنها كانت قبل أبي سفيان عند الفاكه بن المغيرة، وكان من فتيان قريش، له مجلس يأتيه ندماؤه فيدخلون بغير استئذان، فدخلته هند يوماً وليس فيه أحد، فنامت فيه، وجاء بعض ندماء الفاكه فدخل البيت، ورأى هند نائمة فخرج، فلقيه الفاكه خارجاً، ثم دخل فوجد هند في المجلس نائمة فقذفها بالرجل، فشرى[3] الأمر إلى أن اتفقوا على أن يتحاكموا إلى كاهن في بعض النواحي، فحملها أبوها عتبة وخرج معهم الفاكه حتى إذا دنوا من الكاهن رآها أبوها متغيرة مصفراً لونها، فخلا بها وقال: يا بُنية مالي أراك قد اصفرّ لونك وتغيّر جسمك، فإن كنت قد ألممت بذنب فأخبريني حتى أفلّ[4] هذا الأمر قبل أن نفتضح على رؤوس الناس. فقالت: يا أبتِ إني لبريئة، ولكني أعلم أنا نأتي بشراً يخطئ ويصيب، فأخشى أن يخطئ فيّ بقول يكون عاراً علينا إلى آخر الدهر. قال عتبة: فإني سأختبره، فخبأ له حبة بُرّ في إحليل مهر[5]، ثم ربط عليها، فلما أتى الكاهن قال: قد خبأت لك خبيئاً فما هو؟ قال: ثمرة في كَمَرة، قال: بيّن، قال: حبة بُر في إحليل مهر. فأجلسوا هنداً بين نساء ثم سألوا الكاهن، فقام فضرب بيده بين كتفي هند وقال: قومي حصاناً غير زانية وَلَتَلِدَنَّ ملكاً يقال له معاوية، فوثب الفاكه فأخذ بيدها وقال: امرأتي، فنزعت يدها من يده وقالت: والله لأحرصنَّ أن يكون من غيرك، فتزوجها أبو سفيان، وولدت له معاوية[6]. وهذا وقد توفيت في ولاية عمر بن الخطاب ﷺ[7].

رابعاً: من إخوان وأخوات معاوية ﷺ:

1 - يزيد بن أبي سفيان:

وكان يقال له يزيد الخير، وهو أفضل بني أبي سفيان، أسلم يوم الفتح وشهد حنيناً،

(1) نحو رؤية جديدة للتاريخ ص: 208، فرسان من عصر النبوة ص: 853.
(2) المصدر نفسه ص: 208.
(3) فشرى: بمعنى عظم وتفاقم.
(4) أي: حتى أفك.
(5) من اختبار الكاهن، فإن عرف سألوه وإلا تركوه.
(6) التبيين في أنساب القرشيين ص: 219.
(7) المصدر نفسه ص: 219.

وأعطاه النبي ﷺ من غنائمها مائة بعير وأربعين أوقية[1]، واستعمله أبو بكر على أول الجيوش التي أرسلها إلى الشام وكانت مهمته الوصول إلى دمشق وفتحها ومساعدة الجيوش الإسلامية الأخرى عند الضرورة، وكان جيش يزيد أول الأمر ثلاثة آلاف رجل، وقبل رحيل جيش يزيد أوصاه الخليفة أبو بكر وصية بليغة عالية المستوى تشتمل على حكم باهرة في مجالي الحرب والسلم، وشيعه ماشياً وأوصاه بما يأتي: إني قد وليتك لأبلوك وأجرّبك وأخَرِّجك، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك، فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدهم توليّاً له، وأقرب الناس من الله أشدُّهم تقرباً بعمله، وقد وليتك عمل خالد[2]، فإياك وعبيّة الجاهلية[3] فإن الله يبغضها ويبغض أهلها، وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه، وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصلِّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها، والتخشع فيها، وإذا قدم عليكم رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا تريّنّهم فيروا خَلَلَكَ[4]، ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة عسكرك[5]، وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرك كعلانيتك فيخلط أمرك، وإذا استشرت فاصدق الحديث تُصدق المشورة، ولا تخزُ عن المشير خيرك فتُؤتى من قبل نفسك، واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عنك الأستار وأكثر حرسك، وبدِّدهم في عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النَّوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تَخَفْ من عقوبة المستحق ولا تلجَّنَّ فيها، ولا تسرع إليها، ولا تتخذ لها مدفعاً، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسدهم، ولا تجسّس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتف بعلانيتهم ولا تجالس العيّائين، وجالس أهل الصدق والوفاء واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول فإنه يقرب الفقر، ويدفع النصر، وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له، قال ابن الأثير: وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعاً لولاة الأمر[6]. ومن فوائد هذه الوصية:

---

(1) التبيين في أنساب القرشيين ص: 204.

(2) يعني خالد بن سعيد بن العاص وكان قد استعفى أبا بكر فأعفاه.

(3) يعني التعصب لما كان عليه أهل الجاهلية.

(4) يعني لا تطلعهم على دخيلة أمرك فيطلعوا على عيوبك.

(5) ليروا قوة المسلمين.

(6) الكامل، لابن الأثير (2/ 64 - 65).

- أن الولايات والمناصب ليست حقاً ثابتاً لأصحابها وإنما بقاؤهم فيها مرهون بالإحسان والنجاح في العمل، ومن واجب المسئول الأعلى أن يَعْزلهم إذا أساؤوا، وإن هذا الشعور يدفع صاحب العمل إلى مضاعفة الجهد في بذل الطاقة ليصل إلى مستوى أعلى من النجاح في العمل، أما إذا ضمن البقاء فإنه قد يميل إلى الكسل والاشتغال بمتاع الدنيا، فيخل بمسؤوليته ويعرّض من تحت ولايته إلى أنواع من الفساد والفوضى والنزاع.

- إن تقوى الله ﷻ هي أهم عوامل النجاح في العمل، لأن الله تعالى مطلع على ظاهر أعمال الناس وباطنهم، فإذا اتقوه في باطنهم فَحَرِيٌّ بهم أن يتقوه في ظاهرهم، وبذلك يتجنب الوالي كل مظاهر الفساد والإفساد، التي تكون عادة من الاستجابة للعواطف الجامحة التي لا تلتزم بتقوى الله تعالى.

- التحذير من التعصب للآباء والأجداد والأقوام، فإن التعصب لذلك قد يحمل الإنسان على الانحراف عن الطريق المستقيم، إذا كان ما عليه الآباء والأجداد مخالفاً للاستقامة، إضافة إلى أنه يضعف من الانتماء للرابطة الإسلامية الوحيدة وهي الأخوة في الله.

- الإيجاز في الموعظة فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً، فيضيع المقصود، ويغلب على السامع الإعجاب ببلاغة المتكلم إن كان بليغاً عن استيعاب ما يقول والاستفادة من مواعظه، وإن لم يكن بليغاً فإن الملل يأخذ بالسامع فلا يعي ما يقول المتكلم.

- إذا أصلح المسئول نفسه وتفقد عيوبه وجعل من نفسه نموذجاً صالحاً للقدوة الحسنة فإن ذلك يكون سبباً في صلاح من هم تحت رعايته.

- الاهتمام بإقامة الصلاة كاملة مظهراً ومخبراً: مَظْهَراً من ناحية إكمال أقوالها وأفعالها، ومَخْبَراً من ناحية الخشوع فيها وحضور القلب مع الله تعالى، فإن هذه الصلاة الكاملة يقام بها ذكر الله في الأرض، وتهذّب السلوك، وتقوّي القلوب، وتبعث على ارتياح النفوس، وتعتبر ملاذاً للمسلم عند الشدائد.

- إكرام رسل العدو إذا قدموا مع الاحتراس منهم، وعدم تمكينهم من معرفة واقع الجيش الإسلامي، فإكرامهم نوع من الدعوة إلى الإسلام فيما إذا عرف العالم ما يتحلى به المسلمون من مكارم الأخلاق، ولكن لا يصل هذا الإكرام إلى حد اطّلاعهم على بطانة أمور المسلمين، بل ينبغي اطّلاعهم على قوة جيش المسلمين ليُرهبوا بذلك أقوامهم[1].

- الاحتفاظ بالأسرار، وعدم التهاون بإفشائها، خاصة فيما يتعلق بأمور المسلمين العامة، فإن الحكيم يستطيع التعرف في الأمور وإن تغيرت وجوهها ما دام سرُّه حبيساً في ضميره، فإذا أفشاه اختلطت عليه الأمور ولم يستطع التحكم فيها.

(1) التاريخ الإسلامي (9/ 194).

- إتقان المشورة أهم من النظر في نتائجها فإن المستشار وإن كان حصيف الرأي ثاقب الفكر، لا يستطيع أن يفيد من استشاره حتى ينكشف له أمره بغاية الوضوح، فإذا أخفى المستشير بعض تفاصيل القضية فإنه يكون قد جنى على نفسه، حيث قد يتضرر بهذه المشورة.

- أن على القائد وكل مسئول أن يكون مخالطاً لمن ولي أمرهم على مختلف طبقاتهم ليكون دقيق الخبرة بأمورهم، وفي هذا أكبر العون له على تصور مشكلاتهم والمبادرة بإيجاد الحلول لها، أما المسئول الذي يعيش في عزلة ولا يختلط إلا بأفراد من كبار رعيته، فإنه لا يصل إليه من المعلومات إلا ما كان من طريق هؤلاء، وقد لا يكشفون له الأمور بكل تفصيلاتها، فقد يحللون له الأمور على غير وجهها الصحيح.

- الاهتمام بأمر حراسة المسلمين خاصة من مكامن الخطر، واختيار الحرّاس الأمناء من ذوي النباهة وعدم وضع الثقة الكاملة بهم، بل لا بدَّ من الرقابة عليهم حتى لا يؤتى المسلمون من قبلهم.

- أن يسلك المسئول في عقاب المخالف مسلكاً وسطاً، فلا يتهاون فيترك عقوبة المستحق، فإن ذلك يجرّئه على مزيد من المخالفة، ويجرىء غيره على ارتكاب المخالفات، فتسود الفوضى وينفلت الأمر، ولا يشتد في العقوبة فينفّر الرعية، ويدفعهم إلى التسخط والتحزب، بل تكون عقوبته بحكمة واتزان وبعد النظر والتروي بحيث تؤدي غرضها التربوي بدون إثارة ضجة، ولا دفع إلى النقد والتسخط[1].

- أن يكون لدى المسئول يقظة وانتباه لكل ما يجري في حدود المسئولية المناطة به حتى يشعر أفراد الرعية بأن هناك اهتماماً بأمورهم فيزيد المحسن إحساناً ويقتصر المسيء عن الإساءة، ولكن بدون تجسس عليهم، فإن ذلك يعتبر فضيحة لهم، وقد ينقطع بذلك خيط العلاقة الذي يربط المسئول بأفراد رعيته من المودة والإعجاب والشكر على الجميل، وهذا الخيط ما دام قائماً فإنه يمنع أصحاب الجنوح من ارتكاب المخالفات التي تفسد المجتمع وتحدث الفوضى، فإذا انقطع ولم يكن هناك عاصم من تقوى الله تعالى فإن أهم الحواجز التي تحول دون الانطلاق وراء الشهوات تكون قد تحطمت، ويصعب بعد ذلك علاج الأمور لأنها تحتاج إلى قوة رادعة وهذه لها سلبياتها المعروفة.

- أن يحرص المسئول على مجالسة أهل الصدق والوفاء والعقول الراجحة وإن سمع منهم ما يكره أحياناً من النقد والتوجيه، فإن ذلك يعود عليه وعلى من استرعاه الله أمرهم بالنفع،

(1) التاريخ الإسلامي (9/ 195).

وأن لا يجالس أصحاب اللهو والأهداف الدنيوية فإن هؤلاء وإن أنس بكلامهم وثنائهم فإنهم يحولون بينه وبين التفكير في الأمور الجادة، فلا يستفيق بعد ذلك إلا والنكبات قد حلت به وبمن ولي أمورهم.

- أن يصدق القائد في لقاء الأعداء وأن لا يجبن، فإن جُبنه يسري على جنده فيقع بذلك الفشل والهزيمة، وفي غير الحرب أن يكون المسئول شجاعاً في مواجهة المواقف، وأن لا يضعف فيسري ضعفه على من هم تحت إدارته من العاملين ، فيقل بذلك مستوى الأداء ويضعف الإنتاج.

- أن يتجنب القائد الغلول، وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها هذا في مجال الحرب، وفي مجالات السلم أن يتجنب المسئول أية استفادة دنيوية من علمه لا تحل له شرعاً، مثل أخذ الهدايا التي يقصد بها الاستفادة من المسئول في مجانبة الحق، فإن ذلك من الغلول، والغلول كما جاء في هذه الوصية يقرب إلى الفقر، ويدفع النصر.

- وهذه الفوائد تبين لنا عظمة الوصية التي أوصى بها أبو بكر ﷺ أحد قواده، وهي تبين لنا أنه كان يعيش بفكره مع قضايا المسلمين وأنه كان يتصور ما قد يواجهه قواده فيحاول تزويدهم بما ينفعهم في تلافي الوقوع في المشكلات، وحلها إذا وقعت، وهذه الوصية وأمثالها تسجِّل إضافة جديدة لمواقف أبي بكر المتعددة[1]، وجاء في رواية أن أبا بكر ﷺ لم ينس اللمسات الإنسانية في وصيته لجيش يزيد حيث وصاه بدستور المسلمين للحرب المكون من عشرة نقاط تجسد إنسانية الحضارة الإسلامية وروحها المفعمة بالرحمة، والشفقة، وقد جاءت هذه الوصية على شكل مقتبس من رسول الله ﷺ فقد قال: أيها الناس: قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تفسدوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بعيراً إلا لأكله، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.. اندفعوا باسم الله[2]. وقد استفاد منها يزيد بن أبي سفيان غاية الاستفادة، ولما فتح الشام، في عهد عمر ولّى الفاروق يزيد فلسطين وناحيتها، ثم لما مات أبو عبيدة استخلف معاذ بن جبل، فلما مات معاذ بن جبل استخلف يزيد بن أبي سفيان، ثم مات يزيد فاستخلف أخاه معاوية، وكان موت هؤلاء كلهم في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة: وقيل: مات يزيد

(1) التاريخ الإسلامي (9/ 196).

(2) صور من تسامح الحضارة الإسلامية مع غير المسلمين، سلامه الهرفي ص: 62، نقلاً عن تاريخ الطبري (3/ 227).

سنة تسع عشرة بعد فتح قيسارية، وقيل: بل مات قبل فتح قيسارية وإنما افتتحها معاوية[1].
وقال أبو إسماعيل محمد بن عبد الله البصري: جزع عمر على يزيد جزعاً شديداً، وكتب إلى معاوية بولايته على الشام[2].

2 - عتبة بن أبي سفيان:

يكنى أبا الوليد، ولد على عهد رسول الله ﷺ ولاه عمر بن الخطاب الطائف وصدقاتهم، ثم ولاه معاوية مصر حين مات عمرو بن العاص، وحكي عنه أنه اعترضه أعرابي وهو على مكة فقال: أيها الخليفة. قال: لست به ولم تبعد. قال: فيا أخاه. قال: أَسْمَعْتَ فقل، قال: شيخ من بني عامر يتقرب إليك بالعمومة، ويختص بالخؤولة[3]، ويشكو إليك كثرة العيال، ووطأة الزمان، وشدة فقر، وترادف ضُرّ، وعندك ما يسعه ويصرف عنه بؤسه، أستغفر الله منك، وأستعينه عليك. قال: قد أمرنا لك بغناك، فليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك[4]، وكان خطيباً فصيحاً، يقال: إنه لم يكن في بني أمية أخطب منه[5]، وأقام بمصر والياً سنة ثم توفي بها، ودفن في مقبرتها سنة أربع وأربعين وقيل سنة ثلاث وأربعين[6].

3 - عنبسة بن أبي سفيان:

يكنى أبا عثمان، روي عن أبي أمامة قال: لما حضر عنبسة بن أبي سفيان الموت اشتد جزعه وجاءه الناس يعودونه فجعل عنبسة يبكي ويجزع، فقال له القوم: يا أبا عثمان ما يبكيك وما يحزنك وقد كنت على سمت من الإسلام حسن وطريقة إن شاء الله حسنة!؟ فازداد حزناً وشدة بكاء وقال: ما يمنعني ألا أبكي وأن لا يشتد حزني من هول المطلع، وما يدريني ما أشرفُ عليه غداً، وما قدمت من كبير عمل تثق به نفسي[7].

4 - أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها:

هي رملة بنت أبي سفيان زوج النبي ﷺ تكنى أم حبيبة وهي بها أشهر من اسمها، وأمها صفية بنت أبي العاص بن أمية ولدت رضي الله عنها قبل البعثة بسبعة عشر عاماً وكانت قبل النبي ﷺ عند عبيد الله بن جحش بن رياب بن يعمر الأسدي من بني أسد بن خزيمة، فأسلما ثم هاجرا إلى الحبشة فولدت حبيبة وبها كانت تكنى، وقد ارتد زوجها عبيد الله بن جحش عن الإسلام ودخل في النصرانية فهلك وهو على تلك الحالة وتمسكت بدينها وذلك من فضل الله عليها ليتم لها الإسلام والهجرة فأبدلها الله ﷻ به خير البشر وأفضلهم سيدنا محمد ﷺ، وهي أقرب

(1) التبيين في أنساب القرشيين ص: 205.
(2) المصدر نفسه ص: 205.
(3) المصدر نفسه ص: 207، قادة فتح الشام ومصر ص: 99.
(4) التبيين في أنساب القرشيين ص: 208.
(5) المصدر نفسه ص: 208.
(6) المصدر نفسه ص: 208.
(7) التبيين في أنساب القرشيين ص: 208.

أزواجه نسباً إليه وأكثرهن صداقاً رضي الله عنها وأرضاها[1]. قال الذهبي عنها: وهي من بنات عم الرسول ﷺ وليس في أزواجه من هي أكرم نسباً إليه منها، ولا في نسائه من هي أكثر صداقاً منها، ولا من تزوج بها وهي نائية الدار أبعد منها، عقد له ﷺ عليها بالحبشة وأصدقها عنه صاحب الحبشة أربع مائة دينار، وجهزها بأشياء[2]. وقد ورد لها بعض المناقب التي تدل على علو مكانتها وعظيم رضي الله عنها وأرضاها ومن تلك المناقب:

أ ـ أنها كانت ممن هاجر في الله الهجرة الثانية إلى الحبشة فارة بدينها ﷺ، فقد روى الحاكم بإسناده إلى إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن العاص قال: قالت أم حبيبة: رأيت في النوم عبيد الله ابن جحش زوجي بأسوأ صورة وأشوهه ففزعت فقلت: تغيرت والله حاله، فإذا هو يقول حيث أصبح: يا أم حبيبة إني نظرت في الدين فلم أر ديناً خيراً من النصرانية وكنت قد دنت بها، ثم دخلت في دين محمد، ثم قد رجعت إلى النصرانية، فقلت: والله ما خير لك وأخبرته بالرؤيا التي رأيت له فلم يحفل بها وأكب على الخمر حتى مات. فأرى في النوم كأن آتياً يقول لي: يا أم المؤمنين ففزعت وأولتها أن رسول الله ﷺ يتزوجني. قالت: فما هو إلا أن انقضت عدتي فما شعرت إلا برسول النجاشي على بابي يستأذن فإذا جارية له يقال لها: أبرهة كانت تقوم على ثيابه ودهنه، فدخلت عليَّ فقالت: إن الملك يقول لك إن رسول الله ﷺ كتب إليَّ أن أزوجكه فقالت: بشرك الله بخير. قالت: يقول لك الملك وكّلي من يزوجك، فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص فوكلته[3].. ففي هذا الحديث فضيلة ظاهرة ومنقبة عالية لأم المؤمنين أم حبيبة ﷺ وهي أنها كانت ممن شرف بالهجرة إلى أرض الحبشة وثبتت على إسلامها وهجرتها[4].

ب ـ ومن منا قبها أنها أكرمت فراش رسول الله من أن يجلس عليه أبوها، لما قدم المدينة لعقد الهدنة بين الرسول ﷺ وبين قريش ومنعته من الجلوس عليه لأنه كان يومئذ على الشرك ولم يكن قد أسلم[5]، فقد روى ابن سعد بإسناده إلى محمد بن مسلم الزهري قال: لما قدم أبو سفيان بن حرب المدينة جاء إلى رسول الله وهو يريد غزو مكة، فكلمه أن يزيد في هدنة الحديبية فلم يقبل عليه رسول الله ﷺ، فقام فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش النبي ﷺ طوته دونه فقال: يا بنية أرغبت بهذا الفراش عني أم بي عنه؟ فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس مشرك، فقال: يا بنية أصابك بعدي شر[6].

---

(1) الطبقات لابن سعد (8/ 96 – 100) مجمع الزوائد (9/ 249).

(2) سير أعلام النبلاء (2/ 219).

(3) المستدرك، كتاب معرفة الصحابة (4/ 20 – 21).

(4) العقيدة في أهل البيت ص: 113.

(5) المصدر نفسه ص: 113.

(6) سير أعلام النبلاء (2/ 223)، الطبقات الكبرى (8/ 99 – 100).

ج - ومن مناقبها ما رواه ابن سعد والحاكم عن عوف بن الحارث قال: سمعت عائشة تقول: دعتني أم حبيبة زوج النبي ﷺ عند موتها فقالت: قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك، فقلت: غفر الله لك ذلك كله وحللك من ذلك، فقالت: سررتيني سرك الله، وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك، وتوفيت سنة أربع وأربعين في خلافة معاوية بن أبي سفيان ﷺ [1].

5 - أم الحكم بنت أبي سفيان ﷺ :

هي أم عبد الرحمٰن بن أم الحكم، من مسلمة الفتح ، كانت حين نزول قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: 10] تحت عياض بن غنم الفهري، ففارقها حينئذٍ، فتزوجها عبد الله بن عثمان الثقفي[2].

6 - عزة بنت أبي سفيان ﷺ :

ذكرها ابن شهاب في حديث أم حبيبة في الرضاع، أخرج مسلم حديثها وهو ما يروي عن أم حبيبة أنها قالت: يا رسول الله هل لك في أختي؟ قال: «ما أصنع بها؟» قالت: تنكحها، قال: «أتحبين ذلك؟» قالت: نعم لست بمخلية لك وأحبّ من شركني في خير أختي[3]، وبين لها رسول الله ﷺ أن ذلك لا يحل له[4] إذ لا يجوز في الإسلام الجمع بين الأختين[5]. هذا وقد عقد رسول الله ﷺ على أم حبيبة بنت أبي سفيان سنة ست للهجرة[6] وكان عمرها 33 سنة يوم عقد عليها رسول الله، وقال الذهبي: فكان لها يوم قدم بها خالد بن سعيد بن العاص بن أمية إلى المدينة بضع وثلاثون سنة[7]، وقد توفيت سنة 44 هـ[8].

7 - أميمة بنت أبي سفيان:

ولدت أبا سفيان بن حويطب بن عبد العُزّى وجويرية وذكرها ابن قدامة في التبيين في أنساب القرشيين باقتضاب[9].

خامساً: زوجات معاوية ﷺ وأولاده:

1 - من نساء معاوية ﷺ ميسون بنت بحدل الكلبي ، ولدت له يزيد بن معاوية، وأمة رب المشارق فماتت صغيرة[10]، وكان معاوية ﷺ يجل ميسون بنت بحدل ويحترمها إلا أنها

---

(1) سير أعلام النبلاء (2/ 223).
(2) التبيين في أنساب القرشيين ص: 209.
(3) مسلم رقم 1449.
(4) مسلم رقم 1449.
(5) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 142.
(6) سير أعلام النبلاء (2/ 220).
(7) المصدر نفسه (2/ 222).
(8) المصدر نفسه (2/ 222).
(9) التبيين في أنساب القرشيين ص: 209.
(10) تاريخ الطبري (6/ 246 - 247).

كانت تحن إلى مرتع طفولتها في البادية، وتكثر ذكر أهلها وحياتهم البسيطة وصوف عيشتهم، وبعدهم عما يكدرهم، وتزهد في حياة القصور، بما فيها من الخدم والوصيفات، وذات يوم تذكرت باديتها وحنت إلى أترابها وأناسها، وتذكرت سقط رأسها فبكت وتنهّدت فقالت لها بعض حظاياها: ما يبكيك وأنت في مُلْكٍ يضاهي ملك بلقيس؟ فتنفست الصعداء ثم أنشدت:

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحبّ إليَّ من قصر منيف
وبكر[1] يتبع الأظعان سبقاً ... أحبّ إليَّ من بَغْلٍ زفوف[2]
وكلب ينبح الطّراق عني ... أحبّ إليَّ من قطٍ أليف
ولبسُ عباءةٍ وتقرّ عيني ... أحبّ إليَّ من لبس الشفوف[3]
وأكل كُسيرة في كِسْر بيتي ... أحبّ إليَّ من أكل الرّغيف[4]
وأصوات الرّياح بكلّ فجٍّ ... أحبّ إليَّ من نقر الدفوف
وخِرْق من بني عمي نحيف ... أحبّ إليَّ من عِلْج كليف[5]
خشونة عيشي في البدو أشهى ... إلى نفسي من العيش الظريف
فما أبغي سوى وطني بديلاً ... فحسبي ذاك من وطن شريف

فلما دخل معاوية عرّفته الحظيّة بما قالت: وقيل: إنه سمعها وهي تنشد ذلك فقال: ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتني عِلجاً علوفاً، هي طالق، مُرُوها فلتأخذ جميع ما في القصر فهو لها، ثمَّ سيرها إلى أهلها بالبادية فأخذت معها ابنها يزيد فنشأ في البريّة فصيحاً[6]

ونقل البغدادي ـ رحمه الله ـ في خزانة الأدب، إن معاوية لما طلقها قال لها كنت فبِنْت، فأجابته: ما سُررنا إذْ كُنّا، ولا أسفنا إذْ بِنّا[7]. ولله درّ القائل حيث أشار إلى هذا في قوله:

وحبّبَ أوطان الرّجال إليهم ... مآرب قضاها الشباب هنالك
إذا ذكروا الأوطان ذكّرتهم ... عهود الصّبا فيها فحنّوا لذلكا[8]

2 – ومن زوجاته: فاختة ابنة قَرَظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف، ولدت له عبد

(1) البكر: الفتى من الإبل.
(2) زفوف: سريع.
(3) الشفوف: جمع شف: وهو الثوب الرقيق الذي يشفُّ ما وراءه.
(4) الكسيرة: القطعة من الخبز، الكِسْر: طرف الخباء من الأرض.
(5) الخِرق: الفتى السّمح الكريم، العلج: الشديد.
(6) شاعرات العرب ص: (396 – 397) نساء من عصر التابعين أحمد خليل ص: 43.
(7) خزانة الأدب (3/ 593) نساء من عصر التابعين ص: 43.
(8) نساء من عصر التابعين ص: 44.

الرحمٰن وعبد الله ابني معاوية، وكان عبد الله محمّقاً ضعيفاً وكان يكنى أبا الخير، وأما عبد الرحمٰن[1]، فمات صغيراً.

3 - ومن زوجاته: كنود بنت قَرَظة وهي أخت فاختة تزوجها منفردة عنها بعدها، وهي التي كانت معه حيث افتتح قبرص[2].

4 - وتزوج نائلة بنت عمارة الكلبية ثم طلقها[3]، ومن بناته: رملة تزوجها عمرو بن عثمان ابن عفان[4]، وهند بنت معاوية تزوجها عبد الله بن عامر[5] وعائشة وعاتكة وصفية[6].

سادساً: إسلام معاوية ﷺ وشيء من فضائله:

أسلم معاوية مع أبيه وأخيه يزيد ﷺ يوم الفتح[7] هذا على المشهور، ولكن يروى عنه أنه قال: أسلمت يوم القضية - أي عمرة القضاء سنة 7 هـ - ولكن كتمت إسلامي من أبي، ثم علم بذلك، فقال لي: هذا أخوك يزيد وهو خير منك على دين قومه فقلت له: لم آل نفسي جهد، ولقد دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء وإني لمصدق به، ثم لما دخل عام الفتح أظهرت إسلامي، فجئته فرحب بي وكتبت بين يديه[8]، وشهد معاوية ﷺ مع رسول الله ﷺ حنيناً وأعطاه مائة من الإبل وأربعين أوقية من الذهب[9] وقد ذكر العلماء لمعاوية ﷺ فضائل كثيرة من هذه الفضائل:

1 - من القرآن الكريم:

فقد اشترك معاوية ﷺ في غزوة حنين قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: 26]. ومعاوية ﷺ من الذين شهدوا غزوة حنين وكان من المؤمنين الذين أنزل الله سكينته عليهم مع النبي ﷺ[10]، كما أنه ممن وعدهم الله الحسنى: قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: 10]. ومعاوية ﷺ ممن وعدهم الله الحسنى، فإنه أنفق في حنين والطائف وقاتل فيهما[11].

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 147).
(2) البداية والنهاية (11/ 462).
(3) المصدر نفسه (11/ 463).
(4) المصدر نفسه (11/ 463).
(5) المصدر نفسه (11/ 464).
(6) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين ص: 129.
(7) الإصابة (3/ 433)، التبيين في أنساب القرشيين ص: 105.
(8) البداية والنهاية (11/ 396).
(9) المصدر نفسه (11/ 396).
(10) الفتاوى (4/ 458).
(11) المصدر نفسه (4/ 495).

2 - من السنة:

أ - دعاء الرسول ﷺ لمعاوية رضي الله عنه، ومن ذلك قوله ﷺ: «اللهم اجعله هادياً[1]، مهدياً[2]، واهد به»[3].

وقال ﷺ: «اللهم علم معاوية الكتاب والحساب وقه العذاب»[4].

ب - ما أخرجه مسلم من طريق عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول الله ﷺ، فتواريت خلف الباب، قال: فجاء فحطأني حطأة وقال: «اذهب وادع لي معاوية»، قال: فجئت فقلت: هو يأكل، قال: ثم قال لي: «اذهب فادع لي معاوية»، قال: فجئت فقلت: هو يأكل، فقال: «لا أشبع الله بطنه»[5].

قال النووي معلقاً على هذا الحديث. وقد فهم مسلم رحمه الله من هذا الحديث أن معاوية لم يكن مستحقاً للدعاء عليه، فلهذا أدخله في هذا الباب[6]، وجعله غيره من مناقب معاوية لأنه في الحقيقة دعاء له[7]، ولذلك قال ابن عساكر عن حديث «لا أشبع الله بطنه»: أصح ما روي في فضل معاوية.. وبعده حديث.. «اللهم علمه الكتاب»، وبعده حديث.. «اللهم اجعله هادياً مهدياً»[8]. وعن الحديث نفسه قال الذهبي: قلت: لعل أن يقال، هذه منقبة لمعاوية لقوله ﷺ: «اللهم من لعنته أو سببته، فاجعل ذلك له زكاة ورحمة»[9]. وقال الألباني: قد يستغل بعض الفرق هذا الحديث ليتخذوا منه مطعناً في معاوية رضي الله عنه، وليس فيه ما يساعدهم على ذلك، كيف وفيه أنه كان كاتب النبي ﷺ[10]، وقيل في «لا أشبع الله بطنه»: أنها كلمة جرت على عادة العرب نحو: قاتله الله ما أكرمه، ويل أمه وأبيه ما أجوده، مما لا يراد معناه[11].

ج - ما أخرجه البخاري من طريق أنس بن مالك، عن خالته أم حرام بنت ملحان قالت: نام النبي ﷺ يوماً قريباً مني، ثم استيقظ يبتسم، فقلت: ما أضحكك؟ قال: «أناس من أمتي

---

(1) هادياً: أي للناس أو دالاً على الخير.
(2) مهدياً: مهتدياً في نفسه.
(3) الشريعة (5/ 2437) إسناده صحيح.
(4) موارد الظمآن للهيثمي، تحقيق حسين الداراني (7/ 249) إسناده حسن.
(5) مسلم رقم 2604.
(6) اسم الباب: من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلاً.
(7) شرح صحيح مسلم للنووي (16/ 165).
(8) تاريخ دمشق (62/ 24).
(9) سير أعلام النبلاء (14/ 130).
(10) السلسلة الصحيحة (1/ 165).
(11) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية ص: 69.

عرضوا علي، يركبون هذا البحر الأخضر، كالملوك على الأسرة»، قالت: فادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم نام الثانية، ففعل مثلها، فقالت قولها، فأجابها مثلها، فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت من الأولين»، فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت غازياً، أول ما ركب المسلمون البحر مع معاوية[1]، فلما انصرفوا من غزوتهم قافلين، فقُرِّبت إليها دابة لتركبها فصرعتها فماتت[2]. قال ابن حجر معلقاً على رؤيا رسول الله ﷺ: قوله: ناس من أمتي عرضوا عليّ غُزاة. . يشعر بأنه ضحكه كان إعجاباً بهم، وفرحاً لما رأى لهم من المنزلة الرفيعة[3].

د ـ ما أخرجه البخاري من طريق أم حرام بنت ملحان ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا»[4]، قالت: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: «أنت فيهم». ثم قال النبي ﷺ: «أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر[5] مغفور لهم» فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: «لا»[6].

قال المهلب[7] معلقاً على هذا الحديث: في هذا الحديث منقبة لمعاوية لأنه أول من غزا البحر[8]. وكان معاوية ﷺ يكتب الوحي لرسول الله ﷺ[9]، وكذلك رسائل النبي ﷺ إلى زعماء القبائل[10]، وكتابة معاوية للوحي لرسول الله ﷺ أتاح له لون من القرب الطبيعي من رسول الله ﷺ في تلك الفترة التي أعقبت فتح مكة حتى وفاة رسول الله ﷺ، مما يستتبع بالضرورة التأثر بشخص الرسول الكريم ﷺ، والأخذ المباشر منه[11].

سابعاً: رواية معاوية لحديث رسول الله ﷺ:

يعد معاوية ﷺ من الذين نالوا شرف الرواية عن رسول الله ﷺ، ومردّ ذلك إلى ملازمته

---

(1) وذلك في إمارة معاوية على الشام في خلافة عثمان سنة 27 هـ.
(2) فتح الباري على صحيح البخاري (6/ 22).
(3) المصدر نفسه (11/ 76).
(4) أوجبوا: أي فعلوا فعلاً وجبت لهم الجنة.
(5) مدينة قيصر: يعني القسطنطينية فتح الباري (6/ 120).
(6) فتح الباري على صحيح البخاري (6/ 22).
(7) المهلب بن أحمد بن أبي صفرة الأسدي الأندلسي، مصنف شرح صحيح البخاري، توفي سنة 435، انظر: سير أعلام النبلاء (17/ 589) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري ص: 27.
(8) فتح الباري (6/ 120).
(9) البداية والنهاية (11/ 396).
(10) الإصابة في تمييز الصحابة (3/ 434).
(11) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 145.

لرسول الله ﷺ بعد فتح مكة وكان عمره في فتح مكة حوالي ثماني عشرة سنة[1]، ولكونه صهر رسول الله ﷺ وكاتبه فقد أتيحت له فرصة عظيمة مكنته من الاستفادة من رسول الله ﷺ، هذا وقد روى معاوية رضي الله عنه مائة وثلاثة وستين حديثاً[2] عن رسول الله ﷺ، واتفق له البخاري ومسلم على أربعة أحاديث، وانفرد البخاري بأربعة ومسلم بخمسة[3]، ومن هذه الأحاديث التي رواها معاوية رضي الله عنه :

1 - دخل معاوية على عبد الله بن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر، ولم يقم ابن الزبير فقال معاوية: مَهْ، قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يمثل له عباد الله قياماً، فليتبوَّأ مقعده من النار»[4].

2 - عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين»[5].

3 - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد، فقال: ما أجلسكم[6]؟ قالوا: جلسنا نذكر الله عز وجل قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إنِّي لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقلَّ عنه حديثاً مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله عز وجل ، ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنّ علينا بك، قال: «آللهِ ما أجلسكم إلا ذلك»؟ قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك. قال: «أما إنِّي لم أستحلفكم تهمة لكم، وإنَّه أتاني جبريل عليه السلام فأخبرني أنّ الله عز وجل يباهي بكم الملائكة»[7].

4 - عن معبد الجهني، قال: كان معاوية قلّما يُحدِّثُ عن رسول الله ﷺ شيئاً، ويقول هؤلاء الكلمات قلّما يدعهنَّ أو يحدِّثُ بهنَّ في الجمع، عن النبي ﷺ قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإن هذا المال حُلوٌ خضرٌ فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه، وإياكم والتمادح، فإنَّه الذبح»[8].

---

(1) الطبقات الكبرى (7/ 406)، خلافة معاوية، د.عمر العقيلي ص: 14.
(2) أسماء الصحابة الرواة لابن حزم ص: 55، مرويات خلافة معاوية ص: 23.
(3) سير أعلام النبلاء (3/ 162).
(4) الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد (28/ 40) إسناده صحيح.
(5) المصدر نفسه (28/ 48) إسناده صحيح.
(6) أي : في المسجد.
(7) الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد (28/ 50) إسناده صحيح.
(8) المصدر نفسه (28/ 52) إسناده صحيح.

5 - عن عبد الرحمٰن بن عبد عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شَرِب الخمر، فاجلدوه، فإن عاد، فاجلدوه، فإن عاد فاجلدوه فإن عاد الرّابعة، فاقتلوه»[1].

6 - عن عيسى بن طلحة قال: سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن المؤذّنين أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»[2].

7 - عن مجاهد وعطاء عن ابن عباس أن معاوية أخبره: أنه رأى رسول الله ﷺ قصّر من شعره بمقص فقلنا لابن عباس: ما بلغنا هذا إلا عن معاوية، فقال: ما كان معاوية على رسول الله متهماً.

8 - عن الزهري قال: حدثني حميد بن عبد الرحمٰن بن عوف أنّه سمع معاوية يخطب بالمدينة يقول: يا أهل المدينة، أين علماؤكم؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هذا يوم عاشوراء ولم يفرض علينا صيامه، فمن شاء منكم أن يصوم فليصم فإني صائم»، فصام النّاس[3] بداية.

9 - عن الحَكَم بنِ مِينَاء أن يزيد بن جارية الأنصاري أخبره أنه كان جالساً في نفر من الأنصار، فخرج عليهم معاوية، فسألهم عن حديثهم، فقالوا: كُنّا في حديث من حديث الأنصار، فقال معاوية: ألا أزيدكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحبَّ الأنصار أحبَّهُ الله ﷻ، ومن أبغض الأنصار، أبغضه الله ﷻ»[4].

10 - عن أبي صالح عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية»[5].

11 - قال محمد بن كعب القُرَظي، سمعت معاوية يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا انصرف من الصّلاة: «اللّهم لا مانع لما أعطيت ولا مُعطي لما منعت ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجَدُّ»[6].

12 - عن أبي بردة عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من شيء يصيب المؤمن في جسده يؤذيه إلا كفّر الله عنه به من سيّئاته»[7].

---

(1) الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد (28/ 61) إسناده صحيح.
(2) المصدر نفسه (28/ 75) إسناده صحيح على شرط مسلم.
(3) المصدر نفسه (28/ 81) إسناده صحيح.
(4) المصدر نفسه (28/ 85) إسناده صحيح.
(5) المصدر نفسه (28/ 89) صحيح لغيره.
(6) المصدر نفسه (28/ 100) إسناده صحيح.
(7) المصدر نفسه (28/ 107) إسناده صحيح.

13 - وعن معاوية ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ لا يضرّهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس»[1].

14 - وعن معاوية بن أبي سفيان أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من نسي شيئاً من صلاته فليسجد سجدتين وهو جالس»[2].

15 - وعن معاوية بن أبي سفيان، عن النبي ﷺ قال: «من كذب عليَّ متعمّداً فليتبوأ مقعده من النار»[3].

16 - وعن عمير بن هانيء قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان على هذا المنبر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله ﷺ وهم ظاهرون على الناس». فقام مالك بن يخامر السكسكيُّ فقال: يا أمير المؤمنين سمعت معاذ بن جبل يقول: وهم أهل الشام، فقال معاوية ورفع صوته: هذا مالك يزعم أنه سمع معاذاً يقول: وهم أهل الشام[4].

17 - حدّثنا روح، قال: حدّثنا أبو أميّة عمرو بن يحيى بن سعيد قال: سمعت جدّي يُحَدِّث أن معاوية أخذ الإداوة بعد أبي هريرة يتبع رسول الله ﷺ بها، واشتكى أبو هريرة فبينما هو يوضئ رسول الله ﷺ رفع رأسه إليه مرة أو مرتين وهو يتوضأ، فقال: «يا معاوية إن وليت أمراً فاتق الله عز وجل واعدل»، قال: فما زلت أرى أني مُبتلىً بعملٍ لقول النبيّ ﷺ حتى ابتُليتُ[5].

18 - وعن أبي عامر عبد الله بن لُحَيّ، قال: حججنا مع معاوية بن أبي سفيان، فلمّا قدمنا مكة قام حين صَلّى صلاة الظهر، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأُمّة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، - يعني الأهواء - كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تَجَارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله. والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم، لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به»[6].

---

(1) الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد (28/ 116) إسناده صحيح على شرط مسلم.

(2) المصدر نفسه (28/ 118) صحيح لغيره.

(3) المصدر نفسه (28/ 118) صحيح لغيره.

(4) المصدر نفسه (28/ 129) إسناده صحيح.

(5) المصدر نفسه (28/ 130) رجاله ثقات رجال الصحيح غير أن جد عمرو بن يحيى - وهو سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص لم يتبين لنا سماعه من معاوية، فقد ذكر البخاري في تاريخه الكبير (3/ 331) فقال: ويُروى في فضائل معاوية أشياء ضعيفة تحتمل وذكر منها هذا الحديث.

(6) الموسوعة الحديثية مسند الإمام أحمد (28/ 135) إسناده حسن.

ثامناً: من الأحاديث الباطلة التي لا تصح في شأن معاوية مدحاً وذماً:

1 - من الأحاديث الباطلة التي لا تصح في مدح معاوية:

وقد ساق ابن عساكر في ترجمته لمعاوية أحاديث واهية وباطلة طوّل بها جداً ، فمن الأباطيل المختلقة[1]:

أ - عن واثلة مرفوعاً: كاد معاوية أن يبعث نبياً من حلمه وائتمانه على كلام ربي[2].

ب - وعن أبي موسى: نزل عليه الوحي، فلما سُرّي عنه، طلب معاوية، فلما كتبها - يعني آية الكرسي. قال: غفر الله لك يا معاوية ما تقدم إلى يوم القيامة[3].

ت - وعن أنس: هبط جبريل بقلم من ذهب، فقال يا محمد: إن العليّ الأعلى يقول: قد أهديت هذا القلم من فوق عرشي إلى معاوية، فمره أن يكتب آية الكرسي به ويشكله ويعجمه، فذكر خبراً طويلاً[4].

ث - وعن ابن عباس، قال: لما أنزلت آية الكرسي، دعا معاوية فلم يجد قلماً، وذلك أن الله أمر جبريل أن يأخذ الأقلام من دواته، فقام ليجيء بقلم، فقال النبي ﷺ: خذ القلم من أذنك، فإذا قلم ذهب مكتوب عليه لا إله إلا الله، هدية من الله إلى أمينه معاوية.

ج - وعن حذيفة مرفوعاً: يبعث معاوية وعليه رداء من نور الإيمان[5].

ح - وعن أنس مرفوعاً: لا أفتقد أحداً غير معاوية، لا أراه سبعين عاماً، فإذا كان بعد أقبل على ناقة من المسك، فأقول: أين كنت؟ فيقول في روضة تحت العرش.

خ - وعن ابن عمر مرفوعاً: يا معاوية، أنت مني وأنا منك، لتزاحمني على باب الجنة[6]

قال الذهبي بعد ذكر هذه الأحاديث وغيرها: فهذه الأحاديث ظاهرة الوضع والله أعلم[7].
وقد ذكر أكثر هذه الأحاديث الشوكاني في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة[8]، وقال ابن كثير بعد أن ذكر حديثاً منها: وقد أورد ابن عساكر بعد هذا أحاديث كثيرة موضوعة[9]، والعجب منه مع حفظه واطلاعه كيف لا ينبّهُ عليها وعلى نكارتها وضعف حالها[10].

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 127، 128).
(2) المصدر نفسه (3/ 128) موضوع.
(3) المصدر نفسه (3/ 129) موضوع.
(4) المصدر نفسه (3/ 129) موضوع.
(5) المصدر نفسه (3/ 130) موضوع.
(6) المصدر نفسه (3/ 131) موضوع.
(7) المصدر نفسه (3/ 131).
(8) الفوائد المجموعة ص: 403 - 407.
(9) البداية والنهاية (11/ 409).
(10) سير أعلام النبلاء (3/ 131).

2 - من الأحاديث الباطلة في ذم معاوية:

قال ابن الجوزي: قد تعصب قوم ممن يدعون السنة فوضعوا في فضله أحاديث ليغضبوا الرافضة، وتعصب قوم من الرافضة فوضعوا في ذمه أحاديث، وكلا الفريقين على الخطأ القبيح[1] ومن الأحاديث الواهية في ذمه:

أ ـ الحديث المنسوب إلى رسول الله ﷺ: يطلع عليكم رجل يموت على غير سنتي فطلع معاوية. وقام النبي ﷺ خطيباً، فأخذ معاوية بيد ابنه يزيد وخرج ولم يسمع الخطبة، فقال النبي ﷺ: لعن الله القائد والمقود، أي يوم يكون للأمة مع معاوية ذي الإساءة، وهذا الحديث لا يصح وهو كذب على رسول الله، وهو من الكذب الموضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث، ولا يوجد في شيء من دواوين الحديث التي يرجع إليها في معرفة الحديث، وليس له إسناد معروف[2]، ثم من المعلوم من سيرة معاوية أنه كان من أحلم الناس، وأصبرهم على من يؤذيه، وأعظم الناس تأليفاً لمن يعاديه، فكيف ينفر عن رسول الله ﷺ، مع أنه أعظم الناس مرتبة في الدين والدنيا، وهو محتاج إليه في كل أموره؟ فكيف لا يصبر على سماع كلامه وهو بعد المُلك يسمع كلام من يسبّه في وجهه، فلماذا لا يسمع كلام النبي ﷺ؟ وكيف يتخلّه النبي ﷺ كاتباً من هذه حالة[3].

3 - دور بني أمية في عهد رسول الله ﷺ:

رغم إسلام الكثير من رجال بني أمية منذ بداية الدعوة، وتضحياتهم وهجرتهم إلى الحبشة، ورغم إسلام جميع بني أمية عند فتح مكة، وترحيب الرسول بهم وفرحه بإسلامهم والاعتماد عليهم في جلائل الأعمال، وقد أفسح لهم مكاناً في دولته لتستفيد بجهودهم ومقدرتهم، فقد أعطى الرسول ﷺ لأبي سفيان ميزة لم يعطها أحد من أهل مكة، حين قال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»[4]، وهذا شرف كبير حازه أبو سفيان يدل على تقدير الرسول للزعماء وأصحاب الكلمة في قومهم، واستعمل الرسول ﷺ أبا سفيان على نجران، واتخذ ابنه معاوية كاتباً له[5]. روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس، أن أبا سفيان طلب من النبي ﷺ أن يؤمره حتى يقاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين، وأن يجعل معاوية كاتباً بين يديه، فاستجاب له النبي ﷺ[6]، وكان أول وال على مكة ـ وهي أشرف بلاد الله ـ بعد فتحها رجلاً من بني أمية، هو عتاب بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، يروي ابن إسحاق عن زيد بن أسلم

(1) الموضوعات (2/ 15).
(2) البداية والنهاية (11/ 436).
(3) أمير المؤمنين معاوية لابن تيمية، جمع وتقديم محمد مال الله ص: 88.
(4) البخاري رقم (4280).
(5) العالم الإسلامي في العصر الأموي ص: 11.
(6) صحيح مسلم بشرح النووي (16/ 62).

أنه قال: لما استعمل النبي ﷺ عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهماً، فقال: أيها الناس، أجاع الله كبد من جاع على درهم، فقد رزقني رسول الله ﷺ كل يوم درهماً فليست بي حاجة إلى أحد[1]، كما استعمل رسول الله ﷺ عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية على قرى خيبر ووادي القرى وتيماء وتبوك، وقبض رسول الله ﷺ وعمرو عليها[2]، كما استعمل الحكم ابن سعيد بن العاص على سوق مكة[3]، واستعمل خالد بن سعيد بن العاص على صنعاء[4]، واستعمل أبان بن سعيد بن العاص على البحرين، وقبض رسول الله ﷺ وهو عليها[5]، كما كان أبان وخالد ابنا سعيد بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان إضافة إلى عثمان بن عفان ﷺ من كتاب الرسول ﷺ[6].

وخلاصة القول: فقد قبض رسول الله ﷺ ومُعظم رجالات بني أمية على مختلف الأعمال، من الولاية والكتابة، وجباية الأموال، ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال الرسول ﷺ أكثر منهم[7]، واستعمال النبي ﷺ لأكثر رجال بني أمية، أكبر دليل على كفاءتهم وأمانتهم[8].

وأما قوله ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[9]، فهذه الكلمات، جعل بعض الناس منها سبة في جبين بني أمية وحدهم، وجعلوا يعيرونهم بأنهم الطلقاء وأبناء الطلقاء، ولم يفهموا أن هؤلاء الطلقاء وأبناءهم قد أسلموا وحسن إسلامهم، وكانت لهم مواقف مشهودة في نصرة الإسلام في حياة الرسول ﷺ وبعده في الفتوحات في عهد خلفائه الراشدين[10]، ونحب أن نشير إلى عدة نقاط متعلقة بوصف الطلقاء منها:

1 - إن هذا الاتهام وليد عصر الخصومة الحزبية الحادة، لما تفجرت الأحقاد ضد بني أمية في أواخر عهد عثمان ﷺ وبعد بروز نجم معاوية بن أبي سفيان وخلافه مع علي بن أبي طالب ﷺ، حيث أصبح ذلك الوصف يعني عندهم أنهم قوم ضعاف الإيمان، دخلوا الإسلام رغبة في غنائمه، أو رهبة من القتل، ليكيدوا لأهله ويفيدوا أنفسهم.

2 - إن أبا سفيان بن حرب وابنه معاوية ليسا من الطلقاء بالمعنى الدقيق السابق لهذه الكلمة، فقد أسلم أبو سفيان قبيل فتح مكة والرسول وجيشه بمر الظهران خارجها، وقد جاء فور إسلامه يدعو قومه إلى المسالمة والفتح، أما معاوية ابنه فقد أكدت بعض الروايات أنه أسلم قبل الفتح أيضاً، غير أنه كان يخفي إسلامه ـ شأن بعض الناس آنذاك ـ لمكانته من أبيه

(1) السيرة النبوية لابن هشام (4/ 69 - 149)، تاريخ خليفة بن خياط ص: 97.
(2) منهاج السنة (3/ 175 - 176).
(3) المصدر نفسه (3/ 175/ 176).
(4) خليفة بن خياط ص: 97.
(5) منهاج السنة (3/ 175/ 176).
(6) تخريج الدلالات السمعية ص: 159 - 162.
(7) منهاج السنة (3/ 175)، العالم الإسلامي في العصر الأموي ص: 12.
(8) العالم الإسلامي في العصر الأموي ص: 12.
(9) الطبقات (2/ 141 - 142).
(10) العالم الإسلامي في العصر الأموي ص: 8.

الذي كان يقود القتال ضد المسلمين، فقد روى أنه أسلم سراً يوم عمرة القضاء، أو عام الحديبية[1]، وإنما وضعهم المؤرخون في زمرة هؤلاء الطلقاء لقرب وقت إسلام أبي سفيان من الفتح، ولأنه كان زعيم مكة الذي ارتبط إسلامه بإسلامها، كما أن معاوية كان إسلامه سراً لم يشع، ولم يعرف إسلامه إلا مع الطلقاء بعد فتح مكة.

3 - إن وصف الطلقاء لا يقتضي الذم، فإن الطلقاء هم مسلمة الفتح الذين أسلموا عام فتح مكة وأطلقهم النبي ﷺ، وكانوا نحو ألفي رجل، ومنهم من صار من خيار المسلمين كالحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، ويزيد بن أبي سفيان وحكيم بن حزام، وأبي سفيان بن الحارث، ابن عم النبي ﷺ الذي كان يهجوه ثم حسن إسلامه، وعتاب بن أسيد الذي ولاه النبي مكة لما فتحها، وغير هؤلاء ممن حسن إسلامهم.

4 - إن النظرة الإسلامية في هذا الشأن أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، ويفسح المجال للإفادة من جميع الطاقات والقدرات ويدفع بها نحو تحقيق غاياته الكبرى، وينزل الناس منازلهم، وأن خيار الناس في الإسلام خيارهم في الجاهلية إذا فقهوا، ولم يمنع تأخر إسلام خالد وعمرو بن العاص من تبوئهما المكانة العالية عند النبي ﷺ، فأرسل عمراً أميراً على ذات السلاسل، وسمّى خالداً سيف الله.. هذا مع حفظ المكانة الأسمى والمنزلة العظمى للسابقين الصادقين في الإسلام، ومن هؤلاء السابقين كان جماعة من بني أمية وغيرهم، كما كان من الطلقاء بني أمية وغيرهم[2].

المبحث الثاني

الأمويون ومعاوية في عهد أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ

أولاً: في خلافة أبي بكر ﷺ:

واجه المسلمون بعد موت نبيهم ﷺ ظروفاً عصيبةً، وأجمعوا على بيعة أبي بكر خليفة لرسول الله ﷺ، وقام بجهود عظيمة في مواجهة الأخطار، فحارب المرتدين حتى ردهم إلى الإسلام والجماعة وبدأ حركة الفتوح في بلاد الفرس والروم، وكان أول كتاب كتبه أبو بكر بشأن حروب الردة إلى عامله الأموي على مكة عتاب بن أسيد، حيث كتب إليه بركوب من ارتد من أهل عمله بمن ثبت على الإسلام، فواجههم عتاب في تهامة حتى ظفر بهم[3]، ثم جهز من أهل مكة وأعمالها خمسمائة رجل وأمّر عليهم أخاه خالد بن أسيد، فاشتركوا في قتال

(1) البداية والنهاية (11/ 396).
(2) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 144.
(3) تاريخ الطبري (3/ 319) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 148.

المرتدين باليمن[1]، وإعادة أهل حضرموت وكندة إلى حظيرة الإسلام[2]، وفي حروب المسلمين ضد مسيلمة الكذاب كان قائد الجيش خالد بن الوليد، الذي جعل على قيادة المهاجرين في جيشه أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ومعه زيد بن الخطاب[3]، فقاتل أبو حذيفة قتالاً مجيداً، ولما انكشف المسلمون في أول القتال كان أبو حذيفة يهتف فيهم: يا أهل القرآن، زينوا القرآن بالفعال، وقاتل حتى قتل ﷺ [4]، وحمل راية المهاجرين يومذاك مولاه سالم وقاتل بها حتى قتل أيضاً[5]، وشهد حروب اليمامة ضد مسيلمة معاوية ﷺ [6]، كما استشهد من حلفاء بني أمية عكاشة بن محصن الأسدي في قتال طليحة الأسدي[7]، وساهم العلاء الحضرمي حليفهم أيضاً في إخماد الردة في البحرين، ففعل وظفر بهم بعد بلاء حسن وآيات عجيبة[8]، وكان من الطبيعي بعد انتهاء حروب الردة وعودة المرتدين إلى حظيرة الدين وانصياعهم للحكومة الراشدة، أن تطمح الأبصار إلى تخليص الشعوب المستعبدة من حكوماتها الظالمة ودعوتها إلى الإسلام، وبدأ ما عرف في التاريخ بحركة الفتوح الكبرى على جبهتي فارس والروم. . وقد كان لبني أمية دور بارز في هذه الحروب مما يؤكد عمق التزامهم الإسلامي وحيوية دورهم التاريخي في هذه الفترة، غير أننا نشير في البداية إلى وضوح سمتين ظاهرتين صاحبتا حركة الفتوح[9]:

الأولى: هي تعاظم دور مسلمة الفتح وطلقاء مكة في الفتوح ـ ومنهم بعض بني أمية ـ وقد كان ذلك متوقعاً لسببين: الأول هو ما قرره أبو بكر من ضرورة عدم الاستعانة بمن ارتد عن الإسلام ثم عاد إليه في الفتح[10]. وقد كان هذا يعود إلى حرص أبي بكر الصديق ﷺ على نقاء هذه الفتوحات من آثار رقة الدين أو شهوات هذه النفوس التي لم تخلص بعد للإسلام، أو لم تبرهن على إخلاصها له.

والثاني: يعود إلى حرص هؤلاء السادة والأشراف على تعويض ما فاتهم من خدمة قضية الإسلام وأن يلحقوا بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الإسلام فسادوا بذلك وعلت أقدارهم[11].

والسمة الظاهرة الثانية: هي تركز نشاط الأمويين في الفتوح على جبهة الشام يشاركهم في

(1) تاريخ الطبري (3/ 322، 329، 330).
(2) المصدر نفسه (3/ 330 - 342).
(3) المصدر نفسه (3/ 381).
(4) المصدر نفسه (3/ 291).
(5) المصدر نفسه (3/ 291 - 292) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 148.
(6) البداية والنهاية (11/ 396).
(7) ديوان الردة، للعتوم ص: 86.
(8) تاريخ الطبري (3/ 301 - 313) سيرة أبي بكر الصديق الصّلابي ص: 225.
(9) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 148.
(10) تاريخ الطبري (3/ 319/ 347).
(11) الدولة الأموية، حمدي شاهين ص: 149.

ذلك كثير من الفاتحين من أهل مكة عموماً، ويبدو أن ذلك كان أمراً مقصوداً من الخليفة الصديق الذي أدرك وجود صلات عميقة الجذور بين بني أمية والمكيين والقبائل العربية المقيمة ببلاد الشام تحت الحكم البيزنطي، تلك الصلات التي تعمقت من خلال النشاط التجاري المتواصل بين مكة والشام في الجاهلية والذي كان بنو أمية أبرز قواده ورواده[1].

وأما عن مشاركة الأمويين في حروب الفتح، فقد جاءت مبكرة، حيث شارك الوليد بن عقبة بن أبي معيط مع خالد بن الوليد في فتوح العراق الأولى، وشهد معه قتل هرمز، وأرسله خالد إلى أبي بكر بالغنائم وبشارة الفتح وأخباره عن جمع جديد من الفرس[2]، ثم وجهه الخليفة مدداً إلى عياض بن غنم الذي كان قد أمره بفتح العراق من جهة الشمال، وكان يحاصر دومة الجندل فيجد العنت والمشقة في فتحها، فأشار عليه الوليد باستمداد خالد بن الوليد، فاستمده، فأنجده، وفتحوا معاً دومة الجندل[3]، ثم ولاه أبو بكر على النصف من صدقات قضاعة مما يلي دومة الجندل[4]، ولكن الخليفة ما لبث أن كتب إليه يعرض عليه الجهاد في سبيل الله، ويخيره بينه وبين أن يظل على عمله الذي ولاه إياه فأجابه بإيثار الجهاد، فوجه به إلى الشام[5]، وكان أول لواء عقده أبو بكر في حروب الشام لخالد بن سعيد بن العاص الأموي ثم عزله وولى بدله يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي أيضاً[6]، وأما جيش يزيد بن أبي سفيان، فكان أول جيش كبير يوجهه أبو بكر إلى الشام ويودعه ماشياً[7]، ثم أتبعه بثلاثة جيوش أخرى يقودها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وأبو عبيدة بن الجراح[8]، يقول الذهبي عن يزيد ابن أبي سفيان: وهو أحد الأمراء الأربعة الذين ندبهم أبو بكر لغزو الروم، عقد له أبو بكر، ومشى تحت ركابه يسايره ويودعه ويوصيه، وما ذلك إلا لشرفه، وكمال دينه[9]. ثم أتبع الصديق بأناس آخرين يرغبون في الجهاد وألحقهم بجيش يزيد وجعل معاوية بن أبي سفيان أميراً عليهم[10].. وخرج أبو سفيان بن حرب - وهو يومئذ شيخ كبير[11]، كما اشترك في

(1) الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص: 149.
(2) البداية والنهاية (6/ 354).
(3) تاريخ الطبري (3/ 390) الدولة الأموية، حمدي شاهين، ص: 149.
(4) المصدر نفسه (3/ 390).
(5) المصدر نفسه (3/ 389 - 390).
(6) المصدر نفسه (3/ 387).
(7) فتوح الشام للواقدي (1/ 3 - 4).
(8) تاريخ الطبري (3/ 394).
(9) سير أعلام النبلاء (1/ 326).
(10) تاريخ الطبري (3/ 391).
(11) لما توفي كان عمره ثمان وثمانون سنة، ولما حضر اليرموك كان عمره أكثر من سبعين سنة.

الجهاد في الشام أيضاً خالد بن سعيد، وأبان بن سعيد، وعمرو بن سعيد، وقاتلوا جميعاً هناك وقتلوا، حتى قيل: ما فتحت بالشام كورة من كورها إلا وجد عندها رجل من بني سعيد بن العاص شهيداً[1]، وقيل معركة اليرموك عقد قادة الجيوش مؤتمراً للحرب في الجولان. . ومر بهم أبو سفيان بن حرب فقال: ما كنت أظن أن أبقى حتى أرى أغلمة من قريش يذكرون أمر حربهم ويتذاكرون ما يكيدون به عدوهم - في منزلي - ولا يحضروني فأشترك معهم في مشورتهم، فأفسحوا له، فأسهم معهم في رسم خطة القتال[2].

ولما أزفت ساعة الحرب في اليرموك عمد قادة الفريقين إلى إذكاء حماس الجنود، فبينما كان الروم يحضهم القسيسون والرهبان، ويمنون لهم النصرانية، حتى تشجعوا وخرجوا للقتال الذي لم يكن بعده قتال مثله[3]، كان المسلمون يتبادرون إلى إلقاء الخطب البليغة والأرجاز المثيرة[4]، بل إنهم عينوا أحد كبار شيوخهم والمخضرمين من رجالهم في مهمة «القاص» وكان ذلك الرجل هو أبو سفيان بن حرب نفسه[5]، ولا شك أن توليه ذلك العمل المهم هو أكبر دليل على صدقه وإخلاصه في دينه وإسلامه، إذ إن قادة الجيش لو علموا فيه آنذاك غير هذا الإخلاص ما جعلوه أميناً على تعبئة حماس الجند وإثارة حميتهم الإسلامية، ولو علم الجنود منه غير ذلك الصدق ما كان لعمله فيه ذلك الأثر العظيم، وقد كان اختياراً موفقاً فعلاً يتسق مع طبيعة تكوين ذلك الجيش الذي يضم الكثير من أهل مكة وقبائل العرب الذين تأخر إسلامهم، والذين احتفظوا بثقتهم القديمة في أبي سفيان، زعيمهم الذي خبروه[6]، وكان أبو سفيان ﷺ يقف على الكراديس[7]، فيقول: الله الله، إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك، اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل النصر على عبادك[8].

ثانياً: في عهد عمر بن الخطاب ﷺ:

عندما توفي الصديق عام 13هـ بويع الفاروق بالخلافة، فسار على نهج صاحبه في استعمال بني أمية والثقة بهم، فلم يعزل أحد منهم من عمل، ولم يجد على أحد منهم مأخذاً والكل يعرف صرامة عمر، وتحريه أمر ولاته وعماله وتقصيه أعمالهم وأخبارهم، ومحاسبتهم بكل

(1) النزاع والتخاصم ص: 46، الدولة الأموية حمدي شاهين ص: 150.
(2) فتوح الشام للواقدي (1/ 99).
(3) تاريخ الطبري (3/ 395).
(4) المصدر نفسه (3/ 395، 397، 398، 401).
(5) تاريخ الطبري (3/ 397).
(6) الدولة الأموية، حمدي شاهين ص: 151.
(7) الكراديس: جمع كردوس، القطعة العظيمة من الخيل أو الكتيبة من الجند.
(8) التبيين في أنساب القرشيين ص: 203.

دقة وحزم، فاستمرارهم في عهده يدل على أمانتهم وكفايتهم، فقد بقي يزيد بن أبي سفيان والياً على دمشق، كما زاد عمر في عمل معاوية بالشام[1].

1 - بدأ نجم معاوية في الظهور:

بدأ نجم معاوية ﷺ في الظهور في ميدان العمل السياسي والإداري في عهد الخليفة عمر ﷺ فقد ولاه فتح قيسارية[2] سنة خمس عشرة للهجرة[3]، وجاء في كتاب توليته له: أما بعد، فقد وليتك قيسارية فسر إليها واستنصر الله عليهم، وأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الله ربنا وثقتنا ومولانا فنعم المولى ونعم النصير[4].

كانت هذه المهمة الجسيمة اختبار كبير من عمر لمعاوية في ميدان الواقع، فقد استطاع تجاوز هذا الاختبار بكل نجاح، فقد سار إلى قيسارية بجنوده الذين أعدهم له أخوه يزيد بن أبي سفيان - أحد ولاة الشام لعمر ﷺ وكانت تلك المدينة محصنة وبأس أهلها شديد، فحاصرها معاوية طويلاً وزاحف أهلها مرات عديدة، فلم ييأس معاوية، فصمم على فتحها، واجتهد في القتال حتى فتح الله على يديه، وكان فتحه كبيراً فقد قتل من أهلها ما يقرب من مائة ألف[5] وبعث بالفتح والأخماس على أمير المؤمنين عمر ﷺ [6]، وقد أثبت معاوية بعد توفيق الله - بهذا الفتح جدارته وحسن قيادته، فأكسبه ذلك ثقة الجميع، فأسند له أخوه يزيد - أمير دمشق - مهمة فتح سواحل الشام، وقد أبلى في ذلك بلاءً حسناً[7]، فكان يقيم على الحصن اليومين والأيام اليسيرة فربما قوتل قتالاً شديد، وربما رمى ففتحها، وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر ما يحتاج لها إليه من المسلمين، فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سربوا إليها الإمداد[8]، ويرى الدكتور عبد الرحمٰن الشجاع أن مدن الشام تساقطت تحت ضربات المجاهدين الواحدة تلو الأخرى، لأن الروم كانوا من الهزيمة بمكان لا تجعلهم يفكرون في المقاومة، فتساقطت مدن بيروت، وصيدا، ونابلس، واللد، وحلب، وأنطاكية، وكانت قيسارية آخر مدن الشام فتحاً على يد معاوية بن أبي سفيان، وكان ذلك بعد القدس[9].

---

(1) العالم الإسلامي في العصر الأموي ص: 15.
(2) قيسارية: على ساحل الشام، تعد في أعمال فلسطين، ياقوت (4/ 421).
(3) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ص: 59.
(4) تاريخ الطبري (4/ 431).
(5) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية ص: 63، 64.
(6) البداية والنهاية (7/ 54).
(7) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ص: 59.
(8) فتوح البلدان للبلاذري ص: 134.
(9) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ص: 355.

وكان عبادة بن الصامت على ميمنة جيش المسلمين في حصار قيسارية، فقام ﷺ بوعظ جنده ودعاهم إلى تفقد أنفسهم والحيطة من المعاصي، ثم قاد هجوماً قتل فيه كثيراً من الروم، لكنه لم يتمكن من تحقيق هدفه، فعاد إلى موقعه الذي انطلق منه، فحرّض أصحابه على القتال، وأبدى لهم استغرابه الشديد لعدم تحقيق أهداف ذلك الهجوم فقال: يا أهل الإسلام، إني كنت من أحدث النقباء سناً وأبعدهم أجلاً، وقد قضى الله أن أبقاني حتى قاتلت هذا العدو معكم. . والذي نفسي بيده ما حمات قط في جماعة من المؤمنين على جماعة من المشركين، إلا خلوا لنا الساحة وأعطانا الله عليهم الظفر فما بالكم حملتم على هؤلاء فلم تزيلوهم [1]؟ ثم بين لهم ما يخشاه منهم، فقال: إني والله لخائف عليكم خصلتين: أن تكونوا قد غللتم، أو لم تناصحوا الله في حملتكم[2]، وحض أصحابه على طلب الشهادة بصدق، وأعلمهم أنه سيكون في مقدمتهم وأنه لن يعود إلى مكانه، إلا أن يفتح الله عليه أو يرزقه الشهادة[3]، فلما التحم المسلمون والروم، ترجل عبادة عن جواده وأخذ يقاتل راجلاً، فلما رآه عمير بن سعد الأنصاري نادى المسلمون يعلمهم بما فعل أميرهم ويدعوهم إلى الاقتداء به، فقاتلوا الروم حتى هزموهم وأحجروهم في حصنهم[4] وبعد فتح قيسارية ونجاح معاوية في فتح سواحل دمشق ولاه عمر بن الخطاب ولاية الأردن، وكان ذلك عام 17هـ[5].

2 - ولايته على دمشق وبعلبك والبلقاء:

في سنة ثمان عشرة للهجرة توفي يزيد بن أبي سفيان ﷺ في طاعون عمواس، فولى عمر معاوية عمل أخيه: دمشق وبعلبك والبلقاء[6]، وقد كان لعمل عمر هذا أكبر الأثر على نفسية والد معاوية ووالدته، فحين عزّى عمر أبا سفيان في وفاة ابنه يزيد قال: يا أمير المؤمنين من وليت مكانه؟ قال: أخوه معاوية. قال: وصلت رحماً يا أمير المؤمنين.

وكتب أبو سفيان لمعاوية ينصحه في بداية عمله هذا فمما قال: يا بني إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم وقدمهم عند الله وعند رسوله ﷺ وقصر بنا تأخيرنا، فصاروا قادة وسادة، وصرنا أتباعاً، وقد ولوك جسيماً من أمورهم فلا تخالفهم، فإنك تجري إلى أمد فتافس فإن بلغته أورثته عقبك[7]، وكذلك كتبت له والدته هند بنت عتبة

(1) الأنصار في العصر الراشدي ص: 207.
(2) المصدر نفسه ص: 209.
(3) المصدر نفسه ص: 209
(4) المصدر نفسه ص: 209.
(5) تاريخ الطبري (4/ 67) خلافة معاوية للعقيلي ص: 17، 18.
(6) الطبقات الكبرى (7/ 406) أثر العلماء في الحياة السياسية ص: 61.
(7) البداية والنهاية (11/ 399) المقصود أورثه عقبك أي : الحمد.

تقول: والله يا بني إنه قل أن تلد مثلك وإن هذا الرجل قد استنهضك في هذا الأمر، فاعمل بطاعته فيما أحببت وكرهت[1].

وكان بعض الناس ـ لا سيما شيوخهم ـ استغربوا تولية عمر ﷺ لمعاوية ﷺ مع حداثة سنه ووجود من هو أكبر منه وأفضل، لذا سوغ عمر ﷺ عمله هذا ـ حيث قالوا: ولى حدث السن ـ بقوله: تلومنني في ولايته، وأنا سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به»[2].

3 - معاوية في موكب عظيم وإنكار عمر عليه:

كان عمر ﷺ ـ وهو الخبير بمعادن الرجال ـ يدرك أكثر من غيره ما يتمتع به معاوية من صفات تؤهله للقيادة، فحين قدم عمر الشام وافاه معاوية بموكب عظيم أنكره عليه عمر فقال: أنت صاحب الموكب العظيم؟ قال: نعم. قال: مع ما بلغني عنك من طول وقوف ذوي الحاجات ببابك. قال: هو ما بلغك من ذلك. قال: ولم تفعل هذا؟ لقد هممت أن آمرك بالمشي حافياً إلى بلاد الحجاز. قال: يا أمير المؤمنين إنا بأرض جواسيس العدو فيها كثيرة، فيجب أن تظهر من عز السلطان ما يكون فيه عز للإسلام وأهله ويرهبهم فإن أمرتني فعلت، وإن نهيتني انتهيت، فقال له عمر: ما سألتك عن شيء إلا تركتني في مثل رواجب[3] الضرس، لئن كان ما قلت حقاً، إنه لرأي أريب، ولئن كان باطلاً إنه لخديعة أديب[4]. قال: فمرني يا أمير المؤمنين، قال: لا آمرك ولا أنهاك. فقال رجل: يا أمير المؤمنين، ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه، فقال عمر: لحسن مصادره وموارده جَشَّمناه ما جَشَّمناه[5]، وفي رواية أن الرجل الذي قال لعمر: ما أحسن ما صدر الفتى عما أوردته فيه، هو عبد الرحمن بن عوف، وكان مع عمر حين استقبلهما معاوية بهذا الموكب العظيم[6]. وهذا الجواب من معاوية ـ ﷺ ـ يدل على خبرة سياسية عالية، ومعرفة واعية بأحوال الأمم، ودراية كاملة بسياسة الرعية والمحافظة على الوضع الأمني للدولة التي يحكمها، ومن أجل هذا رضي عمر سياسته على الرغم من أنها تخالف سياسة عمر في اهتمامه بأحوال رعيته وبحث شكواهم،

(1) البداية والنهاية (11/ 399).
(2) السلسلة الصحيحة (4/ 615) رقم 1969 وقال الألباني: حديث صحيح.
(3) الرواجب: جمع راجبة: وهي ما بين عقد الأصابع من داخل أي: أضيق ما يكون.
(4) البداية والنهاية (11/ 416).
(5) البداية والنهاية (11/ 416).
(6) المصدر نفسه (11/ 416).

ولعل كلمة عمر ـ ﷺ ـ من أجل ذلك جشمناه، ما جشمناه تدل على رضاه عن سياسة معاوية[1].

وكان عمر ﷺ يتعهد معاوية بالتربية والوعظ والنصح، وأحياناً يشتد ويغلظ عليه، فعن أسلم مولى عمر ﷺ قال: قدم علينا معاوية وهو أبيض أو أبضُّ الناس وأجملهم، فخرج إلى الحج مع عمر، فكان عمر ينظر إليه، فيعجب له، ثم يضع أصبُعَه على متنه ثم يرفعها عن مثل الشِّراك، فيقول: بخ بخ، نحن إذاً خير الناس، أن جمع لنا خير الدنيا والآخرة، فقال معاوية: يا أمير المؤمنين، سأحدثك، إنّا بأرض الحمّامات والريف، فقال عمر: سأحدثك ما بك إلطافك نفسك بأطيب الطعام وتصبحك حتى تضرب الشمس متنيك وذوو الحاجات وراء الباب. قال: فلما جئتا ذا طوى أخرج معاوية حُلة فلبسها، فوجد عمر منها ريحاً كأنه ريح طيب، فقال: يعمد أحدكم فيخرج حاجّاً تَفِلاً، حتى إذا جاء أعظم بُلدان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا في الطيب فلبسهما، فقال معاوية: إنما لبستهما لأدْخل فيهما على عشيرتي أو قومي، والله لقد بلغني أذاك ههنا وبالشام، والله يعلم إني لقد عرفتُ الحياء فيه ثم نزع معاوية ثوبيه، ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما[2]، وقال عمرو بن يحيى بن سعيد الأموي، عن جَدِّه قال: دخل معاوية على عمر وعليه حُلَّةٌ خضراء فنظر إليها الصّحابة، فلما رأى ذلك عمر وثب إليه بالدِّرَّة، فجعل يضربه بها، وجعل معاوية يقول: يا أمير المؤمنين، الله الله فيَّ، فرجع عمر إلى مجلسه، فقال له القوم: لم ضربته يا أمير المؤمنين وما في قومك مثله؟، فقال: والله ما رأيت إلا خيراً وما بلغني إلا خير، ولكنّي رأيته - وأشار بيده[3] - فأحببت أن أضع منه[4]، وكان عمر بن الخطاب إذا رأى معاوية قال: هذا كسرى العرب[5].

وكان معاوية ﷺ في إمارته بالشام في أبهة الملك وزيه من العديد والعدة، وكان يرى أنه في ثغر تجاه العدو ويحتاج إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد[6] وإظهار الملك والسلطان، وكان يرى أن الملك لما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين، ومراعاة المصالح وإنما ذمه لما فيه التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوع الأغراض والشهوات، فلو كان الملك مخلصاً في غلبه للناس أنه لله ولحمله على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن ذلك مذموماً[7]، وقد قال الله تعالى: عن نبيّه سليمان أنه دعاء: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: 35] لمّا علم من نفسه أنه بمعزل عن الباطل في النبوة والملك وكانت أبهة معاوية في الملك، لها أغراض ومقاصد شرعية ولذلك سكت عنه عمر ﷺ، وذات يوم ذكر معاوية عند عمر فقال: دعوا فتى قريش وابن سيدها إنه لمن يضحك في الغضب

(1) الأمويون بين الشرق والغرب، لمحمد الوكيل (1/ 30).
(2) البداية والنهاية (11/ 417).
(3) يعني: أشار بيده إلى فوق.
(4) البداية والنهاية (11/ 418).
(5) المصدر نفسه (11/ 417) الاستيعاب ص: 668.
(6) ابن خلدون إسلامياً، عماد الله خليل ص: 78.
(7) المصدر نفسه ص: 78.

ولا يُنال منه إلا على الرِّضا، ومن لا يأخذ من فوق رأسه إلا من تحت قدميه[1]، ومهما يكن في هذه الرواية وغيرها من مبالغة، فإن ثقة عمر في معاوية تظل فوق مستوى الشبهة والشك[2]، فقد برهن معاوية لعمر عمق فهمه لضرورات السياسة وتغير البيئة والمجتمع، وأثر ذلك كله على التطوير السياسي لأدوات الحكم، ومهما يكن من أمر فقد عظمت مكانة معاوية عند عمر ﷺ، فولاه أهم أقاليم دولته، وزاد في ولايته، ولم يعزله، على كثرة من كان يعزل من عماله وأمرائه، وكان معجباً بذكائه وإدارته ولا يكتم ذلك الإعجاب[3] حتى قال يوماً لجلسائه: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية!![4].

4 - جهود معاوية ﷺ على جبهة الشام:

لما تولى معاوية أمر الشام، وانطلق عمرو بن العاص لفتح مصر، أصبحت مهمة حماية الحدود الشامية للدولة الإسلامية والتوسع منها منوطة به، وتتلخص أهم إنجازاته العسكرية في أمرين هما: سن نظام الصوائف والشواتي[5]، وتكوين أسطول بحري إسلامي لأول مرة في تاريخ الإسلام[6].

أ ـ سن نظام الصوائف والشواتي في عهد عمر: أصيب الروم على يد جنود الإسلام بهزائم مريرة متتالية فقدوا على أثرها الشام ومصر، بكل ما تمثلانه من أهمية اقتصادية وسياسية وعسكرية، غير أنهم لم يسلموا بهذه الهزائم، بل استمرت هجماتهم على الشام من خلال الدروب الجبلية التي تفصلهم عن باقي أجزاء إمبراطورية الروم، مما جعل عمر بن الخطاب يقول في جولته بالشام سنة 16هـ: والله لوددت أن الدرب جمرة بيننا وبينهم لنا ما دونه، وللروم ما وراءه[7]، وفي رحلته هذه إلى الشام سمى عمر الصوائف والشواتي، وسد فروج الشام ومسالكها[8]، ومن المحتمل أن يكون هدف الروم من هجماتهم على المدن الإسلامية الحدودية منذ البداية هو اعتماد ذلك كتدبير وقائي لحماية بلاد الروم وردع المسلمين، لكن استجابة معاوية كانت فوق التحدي، فقد نقل المعركة إلى بلاد العدو، وابتعد بالحرب عن بلاد المسلمين، وكان لا بد لمعاوية ـ من أجل تحقيق ذلك الهدف ـ من تطوير وسائط الدفاع، واعتبار العواصم والثغور مجرد قواعد متقدمة واجبها تلقي الصدمة والإنذار، مع استخدام هذه القواعد مركز انطلاق للهجمات المضادة، وقد قاد معاوية بنفسه بعض هذه الصوائف منها صائفة سنة 22هـ حيث دخل بها بلاد الروم في عشرة آلاف، وصائفة 23 هـ[9]، حيث أوغل

---

(1) البداية والنهاية (11/ 415).
(2) الدولة الأموية، حمدي شاهين ص: 154.
(3) الدولة الأموية، حمدي ص: 157.
(4) تاريخ الطبري (5/ 330).
(5) الصوائف: غزو بلاد الروم في الصيف، والشواتي في الشتاء.
(6) الدولة الأموية، ص: 154.
(7) تاريخ اليعقوبي (2/ 133).
(8) تاريخ الطبري (4/ 62).
(9) تاريخ الأمم والملوك (4/ 144، 160).

حتى بلغ عمورية، ومعه من أصحاب رسول الله ﷺ، عبادة بن الصامت، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو ذر الغفاري، وشداد بن أوس ﷺ [1].

ب ـ تكوين أسطول إسلامي في البحر: ويعود الفضل إلى الله ثم إلى معاوية في هذه المرحلة المبكرة إلى فتح باب الجهاد في البحر الذي أصبح ضرورياً لحماية الشام ومصر ومواجهة النشاط المتزايد للأسطول البيزنطي، وغاراته المتكررة على سواحل الإقليمين، وإمداداته للثائرين بهما. وقد استطاعت عمليات الصوائف والشواتي أن تضع حداً للتهديدات البرية، لكن المدن الساحلية، بداية من إنطاكية ونهاية بالإسكندرية، بقيت تحت رحمة البحرية البيزنطية، وأدرك معاوية أيضاً أنه من المحال تطوير عمليات الفتوح في إفريقيا ما لم يتم انتزاع السيطرة البحرية من البيزنطيين[2]، ولم يبدأ معاوية في غزو البحر فعلياً إلا في عهد عثمان وسيأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى.

ثالثاً: معاوية ﷺ في عهد عثمان بن عفان ﷺ:

حينما جاء عثمان إلى الخلافة كان معاوية ﷺ والياً على معظم الشَّام، فأقرَّه عثمان عليها[3]، كما أقرَّ بعض الولاة الآخرين على ولاياتهم، كاليمن، والبحرين، ومصر وغيرها من الولايات، وقد تطورت الأحداث، وضُمَّت إلى معاوية بعض المناطق الأخرى حتى أصبح معاوية هو الوالي المطلق لبلاد الشام، بل أصبح أقوى ولاة عثمان، وأشدّهم نفوذاً وقد كان في بداية خلافة عثمان ولاة آخرون، منهم: عمير بن سعد الأنصاري، وكان على حمص، وينافس معاوية بن أبي سفيان في المكانة لدى عثمان ﷺ إلا أن عميراً مرض مرضاً أعياه عن القيام بأعباء الولاية، فطلب من الخليفة عثمان أن يعفيه، فأعفاه، وضم ولايته إلى معاوية بن أبي سفيان، وبذلك زاد نفوذ معاوية، فامتد إلى حمص التي ولى عليها من قبله عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد[4]، كما توفي علقمة بن محرز، وكان على فلسطين، فضمّ عثمان ولايته إلى ولاية معاوية بن أبي سفيان ﷺ، فاجتمعت الشَّام لمعاوية بعد سنتين من خلافة عثمان ﷺ، وأصبح الوالي المطلق فيها طيلة السنوات الباقية من خلافة عثمان ﷺ، حتَّى توفي عثمان وهو عليها كما هو معروف[5]، وقد كانت فترة معاوية على الشَّام مليئة بالأحداث، فقد كانت من أهم مناطق الجهاد، ورغم أن الشَّام قد استقرت أوضاعها الداخلية، وسادها الإسلام، وقلَّت محاولات الرُّوم إثارة القلاقل فيها، إلا أنَّها كانت متاخمة لأرض الروم، وبالتالي كان المجال مفتوحاً أمام معاوية للجهاد في تلك النواحي وسيأتي الحديث عنها بإذن الله، وقد كان لمعاوية

(1) تاريخ الأمم والملوك (4/ 241) الدولة الأموية ص: 155.
(2) معاوية بن أبي سفيان، بسام العسلي ص: 40.
(3) تاريخ خليفة بن خياط ص: 155.
(4) تاريخ الطبري (5/ 442).
(5) المصدر السابق (5/ 443).

ثقله السياسي في الدولة الإسلامية أواخر خلافة عثمان ﷺ ، إذ كان ضمن الولاة الذين جمعهم عثمان ليستشيرهم، حين بدأت ملامح الفتنة تلوح في الأفق، كما ظهرت له آراء خاصة في هذا الاجتماع، وجُّهها إلى عثمان[1] ﷺ وسيأتي الحديث عنها بإذن الله تعالى.

1 - فتوحات حبيب بن مسلمة الفهري ﷺ :

كان حبيب بن مسلمة الفهري من أبرز أمراء الجهاد في زمن ولاية معاوية على بلاد الشَّام، فعندما أجلبت الرُّوم على المسلمين بالشام بجموع عظيمة أوّل خلافة عثمان، كتب معاوية إلى عثمان يستمده، فكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة والي الكوفة عندما انتهى من مهمته في أذربيجان وعاد إلى الموصل جاء في خطاب الخليفة إلى الوليد بن عقبة: أمّا بعد: فإن معاوية ابن أبي سفيان كتب إليَّ يخبرني: أن الرُّوم قد أجلبت[2] على المسلمين بجموع عظيمة، وقد رأيت أن يمدّهم إخوانهم من أهل الكوفة، فإذا أتاك كتابي هذا، فابعث رجلاً ممَّن ترضى نجدته، وبأسه، وشجاعته، وإسلامه في ثمانية آلاف، أو تسعة آلاف، أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي[3] والسَّلام. فقام الوليد في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بعد أيها الناس، فإن الله قد أبلى المسلمين في هذا الوجه بلاءً حسناً، وردَّ عليهم بلادهم التي كفرت، وفتح بلاداً لم تكن افتتحت، وردَّهم سالمين غانمين مأجورين، فالحمد لله رب العالمين، وقد كتب إليَّ أمير المؤمنين يأمرني أن أندب منكم ما بين العشر آلاف إلى الثمانية آلاف، تمدُّون إخوانكم من أهل الشام، فإنَّهم قد جاشت عليهم الروم، وفي ذلك الأجر العظيم، والفضل المبين، فانتدبوا ـ رحمكم الله - مع سليمان بن ربيعة، فانتدب النَّاس، فلم يمض ثالثة حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فمضوا حتى دخلوا الشام إلى أرض الروم، وعلى جند أهل الشام حبيب بن مسلمة بن خالد الفهريُّ، وعلى جند أهل الكوفة سليمان بن ربيعة الباهليُّ، فشنُّوا الغارات على أرض الروم، فأصاب الناس ما شاؤوا من سبي، وملؤوا أيديهم من المغنم، وافتتحوا بها حصوناً كثيرة[4]، وكان على المسلمين حبيب بن مسلمة، وكان صاحب كيد لعدوه، فأجمع أن يبيت قائدهم الموريان ـ أي: يباغته ليلاً ـ فسمعته امرأته أمُّ عبد الله بنت يزيد الكلبية يذكر ذلك، فقالت: فأين موعدك؟ قال: سرادق الموريان أو الجنة. . ثم بيتهم، فغلبهم. وأتى سرادق الموريان فوجد امرأته قد سبقته إليه[5]، وواصل حبيب جهاده وانتصاراته المتوالية في أراضي أرمينية، وأذربيجان،

(1) الولاية على البلدان (1/ 176).
(2) أجلبت : تجمّعت للحرب.
(3) تاريخ الطبري (5/ 247).
(4) تاريخ الطبري (5/ 247) عثمان بن عفان، للصَّلابيّ ص: 181.
(5) تاريخ الطبري (5/ 248).

ففتحها إمّا صلحاً أو عنوة[1]، وقد كان حبيب بن مسلمة الفهري من أبرز القادة الذين حاربوا في أرمينية البيزنطية، فقد أباد جيوشاً بأكملها للعدوّ، وفتح حصوناً، ومدناً كثيرة[2]، كما غزا ما يلي ثغور الجزيرة العراقية من أرض الروم فافتتح عدة حصون هناك، مثل شمشاط، وملطية، وغيرها[3].

2 - غزوات معاوية في عهد عثمان في البر:

أدرك معاوية ﷺ بأن إزالة خطر الروم وتهديدهم للمسلمين لا يتم إلا بمواصلة غزو الروم وتنشيط حركة الجهاد بشكل مستمر في الثغور الشامية والجزرية[4] وشحنهما بالمرابطين وتعهدها على الدوام، وقد أخذ منه ذلك وقتاً طويلاً وبذل فيه جهداً كبير خلال ولايته تلك في عهد عثمان، ففي سنة خمس وعشرين للهجرة قام معاوية بجولة عسكرية على الثغور الشامية، فوجد الحصون فيما بين أنطاكية وطرسوس خالية فوقف عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين حتى انصرف من غزاته، ثم أغزى بعد ذلك بسنة أو سنتين يزيد بن الحر العبسي الصائفة وأمره ففعل مثل ذلك. وكانت الولاة تفعله[5]، وفي سنة إحدى وثلاثين غزا من ناحية المصيصة فبلغ درولية[6]، فلما خرج جعل لا يمر بحصن فيما بينه وبين أنطاكية إلا هدمه[7]، وكذلك الشأن في الثغور الجذرية التي أولاها عنايته، فقد وجه في الأيام الأولى لولايته تلك كلاً من حبيب بن مسلمة الفهري وصفوان بن المعطل السلمي إلى شمشاط ففتحها. كما وجه حبيب بن مسلمة إلى إعادة فتح ملطية بعد أن انتقضت، ففتحها عنوة، ورتب فيها رابطة من المسلمين مع عاملها، كما قام معاوية بنفسه بعد ذلك بحملة أخرى يريد التوغل في أرض الروم فقد مرّ على ملطية فشحنها بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرهما وذلك لكي تكون طريقاً

---

(1) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، لحمدي شاهين، ص: 252.

(2) حروب الإسلام في الشام في عهود الخلفاء الراشدين ص: 577.

(3) عثمان بن عفان للصلابي ص: 205.

(4) الثغور الشامية والجزرية هي شريط طويل من القلاع والحصون يمتد على الحدود الشمالية للدولة الإسلامية مع الدولة البيزنطية، ويبدأ هذا الشريط من ملطية إلى الفرات الأعلى إلى طرسوس بالقرب من ساحل البحر المتوسط. وينقسم خط هذه القلاع إلى مجموعتين: إحداهما تسمى بـ(الثغور الجزرية) وهي تمثل الجزء الشمالي الشرقي من هذا الخط، ومن أهم ثغور هذا القسم: ملطية، وزبطرة، وحصن منصور، والحدث ومرعش وشمشاط، والمجموعة الثانية، تسمى بالثغور الشامية وهي تمثل الجزء الجنوبي الغربي من ذلك الخط وأهم ثغور ذلك القسم: عين زربة، وأذنة، وطرطوس، وهرقلة ويفصل بين المجموعتين فاصل طبيعي وهو جبل اللكام. انظر: أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ص: 67.

(5) فتوح البلدان، ص: 69.

(6) المصيصة ودرولية من الثغور الشامية.

(7) فتوح البلدان ص: 169

آمناً لحملات الصوائف. كما غزا حصن المرأة من الثغور الجزرية في السنة نفسها[1]، وكان يتعهد حصن الحدث، وبنى مدينة مرعش وأسكنها الجند، وكل هذه المدن والحصون من الثغور الجزرية[2]، ولما اطمأن معاوية إلى قوة جانبه بعد تلك الإجراءات أخذ يغزو في عمق الأراضي الرومية، فقد قاد بنفسه غزوة سنة اثنين وثلاثين للهجرة توغل فيها بجيشه حتى وصل مضيق القسطنطينية[3].

3 - معاوية يلتمس من عثمان ﷺ السماح له بالغزو البحري:

كان معاوية ﷺ يلح على عمر في غزو البحر، ويصف له قرب الرُّوم من حمص، ويقول: إن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلابهم، وصياح دجاجهم حتى كان ذلك يأخذ بقلب عمر، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص: صف لي البحر وراكبه، فإن نفسي تنازعني إليه، فكتب إليه عمرو: إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركن خرَّق القلب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة هم كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق. فلما قرأ عمر بن الخطاب كتاب عمرو بن العاص كتب إلى معاوية: أن لا، والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً، وتالله لمسلم أحبُّ إليَّ مما حوت الروم، فإياك أن تعرض لي، وقد تقدمت إليك، وقد علمت ما لقي العلاء مني، ولم أتقدم إليه في ذلك[4].

ولكن الفكرة لم تبرح نفس معاوية، وقد رأى في الرُّوم ما رأى، فطمع في بلادهم وفتحها، فلمَّا تولَّى الخلافة عثمان عاود معاوية الحديث، وألحَّ به على عثمان، فردَّ عليه عثمان ﷺ قائلاً: أن قد شهدت ما ردَّ عليك عمر - ﷺ - حين استأذنته في غزو البحر. ثم كتب إليه معاوية مرَّة أخرى يهوِّن عليه ركوب البحر إلى قبرص فكتب إليه: فإن ركبت معك امرأتك فاركبه مأذوناً وإلا فلا[5]. كما اشترط عليه الخليفة عثمان ﷺ أيضاً بقوله: لا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيِّرهم، فمن اختار الغزو طائعاً، فاحمله وأعنه[6]، فلما قرأ معاوية كتاب عثمان نشط لركوب البحر إلى قبرص، فكتب لأهل السواحل يأمرهم بإصلاح المراكب، وتقريبها إلى ساحل عكَّا، فقد رمَّه ليكون ركوب المسلمين منه إلى قبرص[7].

---

(1) تاريخ خليفة بن خياط ص: 167، فتوح البلدان ص: 189.

(2) فتوح البلدان ص: 187 - 196.

(3) تاريخ خليفة ص: 167، تاريخ الطبري (4/ 304) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ص: 69.

(4) تاريخ الطبري (5/ 258).

(5) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 538).

(6) تاريخ الطبري (5/ 260).

(7) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (2/ 538).

4 - غزو قبرص:

أعدَّ معاوية المراكب اللازمة لحمل الجيش الغازي، واتَّخذ ميناء عكّا مكاناً للإقلاع، وكانت المراكب كثيرة، وحمل معه زوجه فاخته بنت قرظة، كما حمل عبادة بن الصَّامت امرأته أمَّ حرام بنت ملحان معه في تلك الغزوة[1]، وأمُّ حرام هذه صاحبة القصَّة المشهورة: عن أنس بن مالك ﷺ : أنَّ رسول الله ﷺ كان يدخل على أمِّ حرام بنت ملحان، فتطعمه، وكانت أمُّ حرام تحت عبادة بن الصَّامت، فدخل عليها رسول الله ﷺ يوماً، فأطعمته، ثم جلست تفلي من رأسه، فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ وهو يضحك. فقالت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «**ناس من أمتي عُرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثبيج هذا البحر ملوكاً على الأسرَّة، أو مثل الملوك على الأسرَّة**». وقالت: فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم! فدعا لها ثم وضع رأسه فنام، ثم استيقظ، وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟! قال: «**ناس من أمتي عرضوا عليَّ في سبيل الله...**» - كما قال في الرواية الأولى .. قال: «**أنت من الأوَّلين**». فركبت أمّ حرام بنت ملحان في البحر في زمن معاوية، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر، فهلكت[2]. ورغم أن معاوية ﷺ لم يجبر الناس على الخروج، فقد خرج معه جيش عظيم من المسلمين[3]، مما يدل أن المسلمين قد هانت في أعينهم الدُّنيا بما فيها، فأصبحوا لا يعبؤون بها بالرَّغم من أنها قد فتحت عليهم أبوابها، فصاروا يرفلون في نعيمها. إن المسلمين قد تربّوا على أنَّ ما عند الله خير وأبقى، وأن الله اصطفاهم لنصرة دينه، وإقامة العدل، ونشر الفضيلة، والعمل على إظهار دين الله على كلِّ ما عداه، وهم يعتقدون: أنَّ هذه المهمَّة هي رسالتهم الحقيقية، وأن الجهاد في سبيل الله هو سبيل الحصول على مرضاة الله، فإن هم قصَّروا في مهمَّتهم، وقعدوا عن أداء واجبهم، فسيمسك الله عنهم نصره في الدُّنيا، ويحرمهم مرضاته في الآخرة، وذلك هو الخسران المبين، من أجل هذا عُرعوا مع معاوية، وتسابقوا إلى السفن يركبونها، ولعلَّ حديث أمِّ حرام قد ألمَّ بخواطرهم، فدفعهم إلى الخروج للغزو في سبيل الله تصديقاً لحديث رسول الله ﷺ، وكان ذلك بعد انتهاء فصل الشتاء في سنة ثمان وعشرين من الهجرة 649م[4]، وسار المسلمون من الشام وركبوا من ميناء عكّا، وهمَّت أم حرام لتركب دابَّتها، فنفرت الدَّابة،

(1) البداية والنهاية (7/ 159).
(2) البخاري رقم 2877.
(3) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ص: 356.
(4) المصدر نفسه ص356.

وألقت أمّ حرام على الأرض، فاندقت عنقها، فماتت[1]، وترك المسلمون أمّ حرام بعد دفنها في أرض الجزيرة عنواناً على مدى التضحيات التي قدّمها المسلمون في سبيل نشر دينهم، وعرف قبرها هناك بقبر المرأة الصالحة[2]. واجتمع معاوية بأصحابه، وكان فيهم: أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاريُّ، وأبو الدَّرداء، وأبو ذر الغفاريُّ، وعبادة بن الصَّامت، وواثلة بن الأسقع، وعبد الله بن بشر المازنيُّ، وشدّاد بن أوس بن ثابت، والمقداد بن الأسود، وكعب الحبر بن ماتع، وجبير بن نضير الحضرمي. وتشاوروا فيما بينهم، وأرسلوا إلى أهل قبرص يخيرونهم: أنهم لم يغزوهم للاستيلاء على جزيرتهم[3]، ولكن أرادوا دعوتهم لدين الله، ثمّ تأمين حدود الدولة الإسلامية بالشام، وذلك لأنّ البيزنطيّين كانوا يتخذون من قبرص محطّة يستريحون فيها إذا غزوا، ويتموّنون منها، إذا قلّ زادهم، وهي بهذه المثابة تهدّد بلاد الشام الواقعة تحت رحمتها، فإذا لم يطمئن المسلمون على مسالمة هذه الجزيرة لهم وخضوعها لإرادتهم، فإن وجودها كذلك سيظلّ شوكة في ظهورهم، وسهماً مسدّداً في صدورهم، ولكنّ سكّان الجزيرة لم يستسلموا للغزاة، ولم يفتحوا لهم بلادهم، بل تحصّنوا في العاصمة، ولم يخرجوا لمواجهة المسلمين، وكان أهل الجزيرة ينتظرون تقدّم الروم للدّفاع عنهم، وصدّ هجوم المسلمين عليها[4].

5 - الاستسلام وطلب الصلح:

تقدّم المسلمون إلى عاصمة قبرص «قسطنطينا» وحاصروها وما هي إلا ساعات حتى طلب الناس الصلح، وقدّموا للمسلمين شروطاً، واشترط عليهم المسلمين شروطاً، وأما شرط أهل قبرص، فكان طلبهم ألا يشترط عليهم المسلمون شروطاً تورّطهم مع الروم، لأنهم لا قبل لهم بهم، ولا قدرة لهم على قتالهم، وأمّا شروط المسلمين، فهي:

أ ـ ألا يدافع المسلمون عن الجزيرة، إذا هاجم سكانها محاربون.

ب ـ أن يدلّ سكان الجزيرة المسلمين على تحركات عدوّهم من الروم.

ج ـ أن يدفع سكان الجزيرة للمسلمين سبعة آلاف ومئتي دينار في كل عام.

د ـ أن يكون طريق المسلمين إلى عدوّهم عليهم.

هـ ـ ألا يساعدوا الروم إذا حاولوا غزو بلاد المسلمين، ولا يُطلعوهم على أسرارهم[5].

---

(1) البداية والنهاية (7/ 159).

(2) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ص: 357.

(3) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ص: 357.

(4) المصدر نفسه ص: 357.

(5) تاريخ الطبري (5/ 261).

وعاد المسلمون إلى بلاد الشام، وأثبتت هذه الحملة قدرة المسلمين على خوض غمار المعارك البحرية بجدارة. وأعطتهم فرصة المران على الدخول في معارك من هذا النوع مع العدوّ المتربص بهم سواء بالهجوم على بلاد الشام، أو على الإسكندرية[1].

6 - عبد الله بن قيس قائد الأسطول الإسلامي في الشام:

استعمل معاوية بن أبي سفيان على البحر عبد الله بن قيس الجاسيّ حليف بني فزارة فغزا خمسين غزاة ما بين شاتية وصائفة في البحر، ولم يغرق فيه أحد، ولم ينكب، وكان يدعو الله أن يرزقه الله العافية في جنده، وألا يبتليه بمصاب أحد منهم ففعل، حتى إذا أراد أن يصيبه وحده، خرج في قاربه طليعة، فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم وعليه سُؤَّال يعترّون[2] بذلك المكان، فتصدق عليهم، فرجعت امرأة من السُّؤَّال إلى قريتها، فقالت للرجال: هل لكم في عبد الله بن قيس ؟ قالوا: وأين هو ؟ قالت: في المرفأ، قالوا: أي عدوّة الله، ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس ؟ فوبّختهم، وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله على أحد فساروا إليه، فهجموا عليه، فقاتلوه، وقاتلهم، فأصيب وحده، وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه، فجاؤوا حتى أرقوا، والخليفة منهم سفيان بن عوف الأزدي، فخرج فقاتلهم، فضجر وجعل يعبث بأصحابه، ويشتمهم، فقالت جارية عبد الله: وا عبد الله ما هكذا كان يقول حين يقاتل! فقال سفيان: وكيف كان يقول؟ قالت: الغمرات ثم ينجلينا وأصيب في المسلمين يومئذ، وذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الجاسيّ[3]، وقيل لتلك المرأة التي استثارت الروم على عبد الله بن قيس: كيف عرفته؟ قالت: كان كالتّاجر، فلمّا سألته، أعطاني كالملك، فعرفت أنه عبد الله بن قيس[4]. وهكذا حينما أراد الله تعالى أن يمنّ بالشهادة على هذا القائد العظيم أتيحت له وهو في وضع لا يضرُّ بسمعة المسلمين البحرية، حيث كان وحده يتطلع ويراقب الأعداء فكانت تلك الكائنة الغريبة التي أبصرت غورها تلك المرأة الذكية من نساء تلك البلاد، حيث رأت ذلك الرَّجل يظهر بمظهر التُّجار العاديين، ولكنَّه يعطي عطاء الملوك، فلقد رأت فيه أمارات السِّيادة مع بساطة مظهره فعرفت: أنه قائد المسلمين، الذي دوّخ المحاربين في تلك البلاد، وهكذا كانت نسمات ذلك القائد وسخاؤه البارز حتى مع غير المسلمين سبباً في كشف أمره، ومعرفة مركزه، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فيتمّ بذلك الهجوم عليه، وظفره بالشهادة، وهكذا يضرب قادة المسلمين المُثُل العليا بأنفسهم، لتتمَّ الإنجازات الكبرى على أيديهم، وليكونوا قدوة صالحة لمن يخلفهم، فقد قام هذا القائد الملهم بمهمَّة الاستطلاع بنفسه، ولم

---

(1) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ص: 358، 359.

(2) يعترّون : يتعرضون للناس دون أن يسألهم.

(3) تاريخ الطبري (5/ 260).

(4) تاريخ الطبري (5/ 260).

يكل الأمر إلى جنوده، وفي انفراده بهذه المهمة مظنة للتورط مع الأعداء، والهلاك على أيديهم، ولكنه مع ذلك يغامر بنفسه، فيتولَّى هذه المهمة، ثمّ نجده يتخلقُ بأخلاق الإسلام العليا حتى مع نساء الأعداء وضعفتهم، فيمدُّ لهم يد الحنان والعطف، ويسخو لهم بالمال الذي هو من أعزِّ ما يملك الناس، ونجده قبل ذلك مع جنده رفيقاً صبوراً، لا معنِّفاً، ولا مستكبراً، وإذا ادلهمَّت الخطوب، تفانى بانكشاف الغمة، ولم يلجأ إلى لوم أصحابه وتعنيفهم، ولم يهيمن عليه الارتباك الذي يفسد العمل، ويعجِّل بالخلل والفوضى، وأمَّا خليفته سفيان الأزديّ، فلعلَّه وقع فيما وقع فيه من الارتباك والاشتغال بطرح اللائمة على جنده لكونه حديث العهد بأمور القيادة، ولكن ممَّا يُحفظ له: أنَّه لما نبَّهته جارية عبد الله بن قيس إلى ذلك الأسلوب الحكيم الذي كان أميره يتنهبه في القيادة سارع في التأسي به في ذلك، ولم يحمله التكبُّر على عدم سماع كلمة الحقّ، وإن صدرت من جارية مغمورة. وهذا مثل من أمثلة التجرد من هوى النفس، هذا الخلق العظيم الذي كان غالباً في الجيل الأوَّل، وبه تمّ إنجاز الفتوحات العظيمة، ونجاح الولاة والقادة في إدارة أمور الأمة، فلله درُّ أبناء ذلك الجيل: ما أبلغ ذكرهم وما أبعد نحورهم! وما أعظم وطأتهم في الأرض على الجبارين، أو ما أعذب لمساتهم في الأرض على المستضعفين والمساكين[1].

7 - القبارصة ينقضون الصلح:

في سنة اثنتين وثلاثين هجريَّة، وقع سكان قبرص تحت ضغط رومي عنيف أجبرهم على إمداد جيش الرُّوم بالسُّفن ليغزوا بها بلاد المسلمين، وبذلك يكون القبرصيون قد أخلُّوا بشروط الصلح، وعلم معاوية بخيانة أهل قبرص، فعزم على الاستيلاء على الجزيرة، ووضعها تحت سلطان المسلمين، وهاجم المسلمون الجزيرة هجوماً عنيفاً، فقتلوا، وأسروا وسلبوا، وهجم عليها جيش معاوية من جهة، وعبد الله بن سعد من الجانب الآخر، فقتلوا خلقاً كثيراً، وسبوا سبياً كثيراً، وغنموا مالاً جزيلاً[2]، وتحت ضغط القوات الإسلامية اضطر حاكم قبرص أن يستسلم للفاتحين ويلتمس منهم الصلح، فأقرهم معاوية على صلحهم الأول[3]، وخشي معاوية أن يتركهم هذه المرة بغير جيش يرابط في الجزيرة، فيحميها من غارات الأعداء، ويضبط الأمن فيها حتى لا تتمرد على المسلمين، فبعث إليهم اثني عشر ألفاً من الجنود، ونقل إليهم جماعة من بعلبك، وبنى هناك مدينة، وأقام فيها مسجداً، وأجرى معاوية على الجنود أرزاقهم، وظلّ الحال على ذلك، الجزيرة هادئة والمسلمون آمنون من

(1) التاريخ الإسلامي (12/ 402).

(2) جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين ص: 359 - 360.

(3) البلاذري ص: 158.

هجمات الروم المفاجئة، ولاحظ المسلمون أنّ أهل قبرص ليس فيهم قدرات عسكرية، وهم مستضعفون أمام من يغزوهم، وأحس المسلمون أن الروم يغلبونهم على أمرهم، ويسخّرونهم لمصالحهم فرأوا أن من حقهم عليهم أن يحموهم من ظلم الروم، وأن يمنعوهم من تسلط البيزنطيين، وقال إسماعيل بن عيّاش: أهل قبرص أذلاء مقهورون ويغلبهم الروم على أنفسهم ونسائهم، فقد يحق علينا أن نمنعهم ونحميهم[1].

8 - ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه:

وقد جاء في سياق هذه الغزوة المذكورة خبر أبي الدرداء ﷺ حينما نظر إلى سبي الأعداء فبكى، ثمّ قال: ما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه، فانظر إلى هؤلاء القوم بينما هم ظاهرون قاهرون لمن ناوأهم، فلما تركوا أمر الله ﷻ وعصوه، صاروا إلى ما ترى[2].

وجاء في روايةٍ: فقال له جبير بن نفير: أتبكي وهذا يوم أعزّ الله فيه الإسلام وأهله، فقال: ويحك، إن هذه كانت أمّة قاهرة لهم ملك، فلما ضيّعوا أمر الله، صيّرهم إلى ما ترى، سلط الله عليهم السبي، وإذا سلط على قوم السّبي، فليس لله فيهم حاجة، وقال: ما أهون العباد على الله تعالى، إذا تركوا أمره[3]. إن ما تفوّه به أبو الدرداء، يعتبر مثلاً للبصيرة النافذة، والفقه في أمر الله تعالى، فهذا الصحابي الجليل يبكي حسرة على هؤلاء الذين أعمى الله بصائرهم، فلم ينقادوا لدعوة الحق، فباؤوا بهذا المصير المؤلم، حيث تحولوا من الملك، والعزة إلى الاستسلام والذّلة، لإصرارهم على لزوم الباطل، والتكبر على الخضوع لدعوة الحق، ولو أنهم عقلوا، وتدبّروا لكان في دخولهم في الإسلام بقاء ملكهم، وعمران ديارهم، والظفر بحماية دولة الإسلام، وإن هذا التفكير العميق من أبي الدرداء مظهرٌ من مظاهر الرّحمة والعطف، تفتحت عنه نفسه الزكية، فتشكل ذلك في الظاهر على هيئة دموع تتحدّر من عيني هذا الرجل العظيم، ليعبّر عمّا يجول في نفسه من نظرات الحنان، والرّحمة، والأسى على مصير تلك الأمة التي اجتمع البقاء على الضلال، والمآل السيء بزوال الملك، والوقوع في الذل والهوان، وإنّه بقدر ما يفرح المسلم بدخول الناس في الإسلام، فإنه يحزن من رؤية الكافرين وهم يعيشون في ضلال مع إدراكه ما ينتظرهم من العذاب الأليم المؤبد في الآخرة، فكيف إذا أضيف إلى ذلك وقوعهم في الأسر والتشرّد، وتعرضهم للقتل في الحياة الدنيا[4]؟

9 - معاوية يولّي عبادة بن الصامت ﷺ قسمة غنائم قبرص:

قال عبادة بن الصامت لمعاوية ﷺ: شهدت رسول الله ﷺ في غزوة حنين الناس يكلمونه في الغنائم، فأخذ وبرة من بعير، وقال: «ما لي مما أفاء الله عليكم من هذه الغنائم إلا

(1) جولة تاريخية ص: 361.
(2) التاريخ الإسلامي (12/ 396).
(3) البداية والنهاية (7/ 159).
(4) التاريخ الإسلامي (12/ 397).

الخمس، والخمس مردود فيكم»[1]. فاتق الله يا معاوية! واقسم الغنائم على وجهها، ولا تعطي منها أحداً أكثر من حقه! فقال له معاوية: قد وليتك قسمة الغنائم، ليس أحد بالشّام أفضل منك، ولا أعلم، فاقسمها بين أهلها، واتق الله فيها، فقسّمها عبادة بين أهلها، وأعانه أبو الدرداء، وأبو أمامة[2].

وعبادة بن الصامت ﷺ من مؤسسي المدرسة الشامية فقد وجهه عمر إلى الشام قاضياً ومعلماً، فأقام بحمص ثم انتقل إلى فلسطين فولي قضاءها، واستقر به المقام فيها، فكان أول من تولى قضاء فلسطين، وكان أيضا يعلم أهلها القرآن، وظل على هذا النحو إلى أن مات بها[3]، وقد أسهم عبادة ﷺ بنصيب كبير في تنفيذ سياسة الخلافة الراشدة العلمية والتربوية والجهادية، وكان ﷺ من أهل الزهد والخشونة، فعندما وصل إلى حمص قال لأهلها: ألا إن الدنيا عرض حاضر، وإن الآخرة وعد صادق، ألا إن للدنيا بنين وإن للآخرة بنين، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن كل أم يتبعها بنوها[4].

10 ـ حقيقة الخلاف بين أبي ذر ومعاوية وموقف عثمان ﷺ منه:

إن مبغضي عثمان بن عفان ﷺ كانوا يشنّعون عليه أنه نفى أبا ذر ﷺ إلى الربذة، وزعم بعض المؤرخين: أن ابن السوداء عبد الله بن سبأ لقي أبا ذر في الشام، وأوحى إليه بمذهب القناعة، والزهد، ومواساة الفقراء، ووجوب إنفاق المال الزائد عن الحاجة، وجعله يعيب معاوية، فأخذه عبادة بن الصامت إلى معاوية، وقال له: هذا والله الذي بعث إليك أبا ذر. فأخرج معاوية أبا ذر من الشام[5]، وقد حاول أحمد أمين أن يوجد شبهاً بين رأي أبي ذر، ورأي مزدك الفارسي، وقال بأن وجه الشبه جاء من أن ابن سبأ كان في اليمن وطوّف في العراق، وكان الفرس في اليمن، والعراق قبل الإسلام، فمن المحتمل القريب أن يكون قد تلقّى هذه الفكرة من مزدكية العراق، واعتنقها أبو ذرّ على حسن النية في اعتقادها[6]. وكلّ ما قيل في قصّة أبي ذرّ، ممّا يُشَنَّع به على عثمان باطل لا يُبنى على رواية صحيحة، وكلُّ ما قيل حول اتصال أبي ذر ﷺ بابن السّوداء باطل لا محالة[7]. والصحيح: أن أبي ذرّ ﷺ نزل في الربذة باختياره، وأنّ ذلك كان بسبب اجتهاد أبي ذرّ في فهم آية خالف فيها الصّحابة، وأصرّ على رأيه، فلم يوافقه أحد عليه، فطلب أن ينزل بالربذة[8]، التي كان يغدو إليها زمن

(1) البداية والنهاية (4/ 353).
(2) الرياض النضرة ص: 561.
(3) عبادة بن الصامت، صحابي كبير وفاتح مجاهد ص: 84.
(4) الاكتفاء، الكلاعي (3/ 310).
(5) المدينة المنوّرة فجر الإسلام (2/ 216، 217).
(6) فجر الإسلام ص: 110.
(7) المدينة المنورة فجر الإسلام (2/ 217).
(8) كانت منزلاً في الطريق بين العراق ومكة.

النبي ﷺ، ولم يكن نزوله بها نفياً قصرياً، أو إقامة جبرية، ولم يأمره الخليفة بالرّجوع عن رأيه، لأن له وجهاً مقبولاً، لكنّه لا يجب على المسلمين الأخذ به[1]. وأصحُّ ما روي في قصة أبي ذرّ ﷺ ما رواه البخاري في صحيحه عن زيد بن وهب، قال: مررت بالرَّبذة، فإذا أنا بأبي ذرٍّ ﷺ فقلت له: ما أنزلك منزلك هذا؟ قال: كنت بالشَّام، فاختلفت أنا ومعاوية في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [التوبة: 34] قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب، فقلت: نزلت فينا، وفيهم، فكان بيني وبينه في ذاك، وكتب إلى عثمان يشكوني، فكتب إليَّ عثمان أن اقدم المدينة، فقدمتها، فكثر عليَّ الناس حتَّى كأنهم لم يروني قبل ذلك، فذكرت ذلك لعثمان، فقال لي: إن شئتَ تنحَّيْتَ فكنت قريباً، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل، ولو أمّروا عليَّ حبشيّاً، لسمعت وأطعت[2]. وقد أشار هذا الأثر إلى أمور مهمة منها:

أ - سأله زيد بن وهب، ليتحقَّق ممَّا أشاعه مبغضو عثمان: هل نفاه عثمان أو اختار أبو ذرّ المكان؟ فجاء سياق الكلام: أنه خرج بعد أن كثر النّاس عليه يسألونه عن سبب خروجه من الشَّام، وليس في نص الحديث: أنَّ عثمان أمره بالذهاب إلى الربذة، بل اختارها بنفسه، ويؤيد هذا ما ذكره ابن حجر عن عبد الله بن الصَّامت قال: دخلت على أبي ذرٍّ عند عثمان، فحسر رأسه، فقال: والله ما أنا منهم - يعني: الخوارج - فقال: إنَّما أرسلنا إليك لتجاورنا بالمدينة، فقال: لا حاجة لي في ذلك، ائذن لي بالرَّبذة. قال: نعم[3].

ب - قوله: كنت بالشَّام: بيَّن السَّبب في سكناه الشَّام، ما أخرجه أبو يعلى عن طريق زيد ابن وهب: حدَّثني أبو ذرّ، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إذا بلغ البناء - أي المدينة - سَلْعاً، فارتحل إلى الشَّام». فلمَّا بلغ البناء سلعاً، قدمت الشام فسكنت فيها[4].

جـ - إنَّ قصة أبي ذرٍّ في المال جاء من اجتهاده في فهم الآية الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: 34-35]. وروى البخاري عن أبي ذرٍّ ما يدل على أنَّه فسر الوعيد ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾، وكان يخوّف النَّاس به، فعن الأحنف بن قيس، قال: جلستُ إلى ملأ من قريش في مسجد المدينة، فجاء رجل خشن الشَّعر، والثّياب، والهيئة، حتى قام عليهم، فسلَّم، ثم

(1) المدينة المنورة، فجر الإسلام (2/ 217).
(2) البخاري، كتاب الزكاة رقم 1406.
(3) فتح الباري (3/ 274).
(4) المدينة المنورة فجر الإسلام (2/ 219).

قال: بشِّر الكانزين بَرضفٍ[1] يُحمى عليهم في نار جهنَّم ثم يوضع على حلمة ثَدْي أحدهم، حتَّى يخرج من نُغْضِ كتفه، ويُوضع على نُغْضِ كَتِفِه حتى يخرج من حلمة ثديه، يتزلزل[2]. ثمَّ ولَّى فجلس في سارية، وتبعته، وجلست إليه، وأنا لا أدري من هو، فقلت له: لا أرى القوم إلا قد كرهوا الذي قلت، قال: إنَّهم لا يعقلون شيئاً. واستدلَّ أبو ذرّ ﷺ بقول رسول الله ﷺ: «ما أحبُّ أنَّ لي مثل أحد ذهباً، أنفقه كُله إلا ثلاثة دنانير»[3].

د - وقد خالف جمهور الصحابة أبا ذرّ، وحملوا الوعيد على مانعي الزّكاة واستدلوا على ذلك بالحديث، الذي رواه أبو سعيد الخدريُّ، قال: قال النَّبي ﷺ: «ليس فيما دون خمس أواق صدقة، وليس دون خمس ذَوْدٍ صدقة وليس فيما دون خمس أوسق صدقة»[4]. وقال الحافظ ابن حجر: ومفهوم الحديث: أنَّ ما زاد على الخمس ففيه صدقة، ومقتضاه: أنَّ كلّ ما أخرجت منه الصَّدقة، فلا وعيد على صاحبه، فلا سعْي ما يفضل بعد إخراجه الصدقة كنزاً[5]، هذا وقد فصلت في موضوع خلاف أبي ذرّ مع معاوية ﷺ في كتابي عثمان بن عفان ﷺ، وأثبت بالحجج والأدلة والبراهين بأن عثمان ﷺ لم ينف أبا ذرٍّ ﷺ، إنما استأذنه، فأذن له، ولكنَّ أعداء عثمان ﷺ كانوا يشيعون عليه بأنَّه نفاه، ولذلك لمَّا سأل غالب القطان الحسن البصري: عثمان أخرج أبا ذرٍّ؟ قال الحسن: لا، معاذ الله[6]، وكل ما روي أنَّ عثمان نفاه إلى الرَّبذة فإنه ضعيف الإسناد، لا يخلو من علة قادحة، مع ما في متنه من نكارة لمخالفته للمرويَّات الصحيحة والحسنة، التي تبيِّن أن أبا ذرٍّ استأذن للخروج إلى الرّبذة، وأنَّ عثمان أذن له[7]، بل إن عثمان أرسل يطلبه من الشام، ليجاوره بالمدينة، فقد قال له عندما قدم من الشام: إنا أرسلنا إليك لخير، لتجاورنا بالمدينة[8]. وقال له أيضا: كن عندي، تغدو عليك، وتروح اللقاح[9]. أفمن يقول ذلك ينفيه[10]. ولم تنصّ على نفيه إلا رواية رواها ابن سعد، وفيها بريدة بن سفيان الأسلمي الذي قال عنه الحافظ ابن حجر: ليس بالقوي، وفيه رفض. فهل تقبل رواية رافضي تتعارض مع الروايات الصحيحة والحسنة[11]؟ واستغل الرّافضة هذه الحادثة أبشع استغلال، فأشاعوا: أن عثمان ﷺ نفى أبا ذر إلى الربذة، وأن ذلك مما عيب عليه من قبل الخارجين عليه، أو أنَّهم سوّغوا الخروج عليه[12]، وعاب عثمان ﷺ بذلك

(1) الرَّضف: الحجارة المحمَّاة، واحدها، رضفة.
(2) نغض: العظم الدقيق الذي على طرف الكتف، يتزلزل: يضطرب.
(3) البخاري: كتاب الزكاة رقم 1407.
(4) البخاري رقم 1405.
(5) فتح الباري (3/ 272).
(6) تاريخ المدينة، ابن شبّة، ص: 1037، إسناده صحيح.
(7) فتنة مقتل عثمان ﷺ (1/ 110).
(8) تاريخ المدينة ص: 1036 - 1037، إسناده حسن.
(9) الطبقات، لابن سعد (4/ 226 - 227)
(10) فتنة مقتل عثمان (1 / 111).
(11) المصدر السابق نفسه.
(12) فتنة مقتل عثمان (1/ 111).

ابن المطهّر الحلّي الشيعي المتوفي سنة 726هـ، بل زاد: أن عثمان ﷺ ضرب أبا ذرٍّ ضرباً وجيعاً، وردَّ عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رداً جامعاً قوياً[1]، وكان سلف هذه الأمّة يعلمون هذه الحقيقة، فإنّه لما قيل للحسن البصريّ: عثمان أخرج أبا ذرٍّ؟ قال: لا، معاذ الله[2].

وكان ابن سيرين إذا ذُكر له: أنَّ عثمان ﷺ سيَّر أبا ذرّ، أخذه أمرٌ عظيم، ويقول: هو خرج من نفسه، ولم يسيِّره عثمان[3]، وكما تقدم في الرِّواية الصحيحة الإسناد: أنَّ أبا ذرّ ﷺ لمَّا رأى كثرة النَّاس عليه خشي الفتنة، فذكر ذلك لعثمان كأنه يستأذنه في الخروج، فقال له عثمان ﷺ: إن شئت تنحيت، فكنت قريباً[4]. كما أن أبا ذرٍّ ﷺ لم يتأثر لا من قريب ولا من بعيد بآراء عبد الله بن سبأ اليهوديّ، وقد أقام بالرَّبذة حتى توفيّ، ولم يحضر شيئاً مما وقع في الفتن[5]، ثمَّ قد روى حديثاً من أحاديث النَّهي عن الدخول في الفتنة[6]، وبعد وفاة أبي ذرٍّ ﷺ ضمّ أمير المؤمنين عثمان ﷺ عياله إلى عياله[7]، فرضي الله على جميع الصحابة الأبرار، الطيبين الأطهار.

11 - اتهام عثمان ﷺ بإعطاء أقاربه من بيت المال:

اتُّهم عثمان ﷺ من قبل الغوغاء والخوارج بإسرافه في بيت المال، وإعطائه أكثره لأقاربه، وقد ساند هذا الاتّهام حملة دعائية باطلة قادها أعداء الإسلام ضدَّه، وتسرَّبت في كتب التاريخ، وتعامل معها بعض المفكّرين والمؤرخين على كونها حقائق، وهي باطلة لم تثبت لأنها مختلقة، والذي ثبت من إعطائه أقاربه أمور تعد مناقبه، لا من المثالب[8]فيه. إن عثمان ﷺ كان ذا ثروة عظيمة، وكان وصولا للرحم[9]يصلهم بصلات كثيرة وفيرة، فنقم عليه أولئك الأشرار، وقالوا بأنّه إنما كان يصلهم من بيت المال، وعثمان قد أجاب عن موقفه هذا بقوله: وقالوا: إني أحبُّ أهل بيتي، وأعطيهم.. فأمّا حبّي لهم؛ فإنَّه لم يمل معهم إلى جور، بل أحمل الحقوق عليهم.. وأما إعطاؤهم، فإني إنّما أعطيهم من مالي، ولا أستحلُّ أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس، وقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرَّعية من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وأنا يومئذ شحيح حريص، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي[10]، وفني عمري، وودَّعت الذي لي في أهلي، قال الملحدون ما قالوا[11]؟ وكان عثمان قد قسم ماله، وأرضه في بني أميه، وجعل ولده كبعض مَنْ يعطي، فبدأ ببني أبي

(1) منهاج السنة لابن تيمية (6/ 183).
(2) تاريخ المدينة (1037) إسناده صحيح.
(3) المصدر السابق.
(4) البخاري، كتاب: الزكاة رقم 1406.
(5) أحداث الفتنة الأولى بين الصحابة في ضوء قواعد الجرح والتعديل، ص: 174.
(6) المصدر نفسه ص: 174.
(7) تاريخ الطبري (5/ 314).
(8) عثمان بن عفان، للصَّلابي ص: 146.
(9) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ص: 82.
(10) جاوزت أعمارهم.
(11) تاريخ الطبري (5/ 356).

العاص، فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة الآف، فأخذوا مئة ألف، وأعطى بني عثمان مثل ذلك، وقسم في بني العاص، وفي بني العيص، وفي بني حرب[1]، فهذه النصوص وغيرها وممَّا اشتهر عنه، وما صحَّ من الأحاديث في فضائله الجمّة تدل على ما قيل فيه من إسرافه في بيت المال، وإنفاق أكثره على أقاربه، وقصوره حكايات بدون زمام، ولا خطام[2].

إن سيرة عثمان ﷺ في أقاربه تمثِّل جانباً من جوانب الإسلام الكريمة الرحيمة،لقوله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: 26]. كما أنَّها تمثِّل جانباً عملياً من سيرة المصطفى ﷺ، فقد رأى عثمان ﷺ من رسول الله وعلم من حاله ما لم ير أو يعلم غيره من منتقديه، وعقل من الفقه ما لم يعقله مثله من جمهرة النَّاس، وكان ممَّا رأى شدَّة حبِّ رسول الله ﷺ لأقاربه وبرِّه لهم وإحسانه إليهم،وقد أعطى عمَّه العبَّاس ما لم يعط أحداً عندما ورد عليه مال البحرين[3]، ولعثمان وسائر المؤمنين في رسول الله أعظم القدوة[4]، وقد ردَّ ابن تيمية ﷺ على من اتَّهم عثمان بتفضيله أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال فقال: وكان يؤثر أهله بالأموال الكثيرة من بيت المال حتَّى إنَّه دفع إلى أربعمائة نفر من قريش أربعمائة ألف دينار، ودفع إلى مروان ألف وألف دينار مليون دينار. فالجواب يقال: أين النقل الثابت بهذا؟. نعم كان يعطي أقاربه، ويعطي غير أقاربه أيضاً، وكان يحسن إلى جميع المسلمين، وأمَّا هذا القدر الكثير فيحتاج إلى نقل ثابت، ثم يقال ثانياً: هذا من الكذب البيِّن، فإنه لا عثمان ولا غيره من الخلفاء الراشدين أعطوا أحداً ما يقارب هذا المبلغ[5].

12 - هل عيَّن عثمان ﷺ أحداً من أقربائه على حساب المسلمين؟

لم يكن عثمان ﷺ ليعيِّن أحداً من أقاربه على حساب المسلمين، ولو أراد أن يجامل أحداً من أقاربه على حساب المسلمين لكان ربيبه محمد بن أبي حذيفة أولى النَّاس بهذه المجاملة، ولكنَّ الخليفة أبى أن يوليه شيئاً ليس كفؤاً له بقوله: يابنيَّ لو كنت رضاً ثمّ سألتني العمل، لاستعملتك، ولكن لست[6] هناك. ولم يكن ذلك كراهية له، ولا نفوراً منه، وإلا لما جهَّزه من عنده وحمله وأعطاه حين استأذن في الخروج إلى مصر[7]، وأمّا استعمال الأحداث فكان لعثمان ﷺ في رسول الله أسوة حسنة فقد جهَّز جيشاً لغزو الرُّوم في آخر حياته واستعمل عليه أسامة بن زيد، ﷺ [8]، وعندما توفيَّ الرَّسول ﷺ تمسَّك الصديق ﷺ بإنفاذ هذا الجيش،

(1) تاريخ الطبري (5/ 356).
(2) فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ص: 83.
(3) البخاري، كتاب الجزية.
(4) البداية والنهاية (7/ 201).
(5) منهاج السنة (3/ 190).
(6) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 247).
(7) المصدر السابق (1/ 247) تاريخ الطبري (5/ 416).
(8) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 247) تاريخ الطبري (5/ 416).

لكنَّ بعض الصحابة رغبوا في تغيير أسامة بقائد أحسن منه، فكلَّموا عمر في ذلك ليكلمَ أبا بكر، فغضب أبو بكر لمَّا سمع هذه المقالة، وقال لعمر: يا عمر استعمله رسول الله ﷺ، وتأمرني أن أعزله[1]. ويجيب عثمان بنفسه على هذه المآخذ أمام الملأ من الصحابة بقوله: لم أستعمل إلا مجتمعاً، محتلماً، مرضياً، وهؤلاء أهل عملهم، فسلوهم عنهم، وهؤلاء أهل بلدهم وقد ولّى من قبلي أحدث منهم، وقيل لرسول الله ﷺ ممَّا قيل لي في استعماله لأسامة، أكذلك؟ قالوا: نعم يعيبون للنَّاس ما لا يفسرون[2]. ويقول عليّ ﷺ: ولا يولّ أي: عثمان ـ إلا رجلاً سوياً، عدلاً، وقد ولى رسول الله ﷺ عتّاب بن أسيد على مكّة وهو ابن عشرين سنة[3]، ولم يكن ولاة الأمصار في عهد عثمان ﷺ جاهلين بأمور الشَّرع، ولم يكونوا من المفرّطين في الدّين، وإذا كانت لهم ذنوب، فلهم حسنات كثيرة، ومع ذلك فإن سيئات وذنوب هؤلاء تعود عليهم ولم يكن لها تأثير في المجتمع المسلم، وقد تتبعنا آثار هؤلاء الولاة أيّام ولايتهم، ووجدناها عظيمة الفائدة للإسلام والمسلمين، وقد اهتدى على يدي ولاة عثمان مئات الألوف إلى الإسلام، وبسبب فتوحاتهم انضمّ إلى ديار الإسلام أقاليم واسعة، ولو لم يكن عند هؤلاء من الشجاعة، والدّين ما يحثهم على الجهاد، ما قادوا الجيوش إلى الجهاد، وفيه مظنة الهلاك، وفيه ترك الراحة ومتاع الدنيا، وقد تتبعت سيرة هؤلاء الولاة، فوجدت لكل واحد منهم فتحاً، أو فتوحاً في الجهات التي تجاور ولايته، مع مناقب وصفات حسنة تؤهله للقيادة وقد فصلت في كتابي عن عثمان ﷺ في مبحث مستقل حقيقة ولاة عثمان[4] ﷺ.

إن الذي يرجع إلى الصحيح الممحّص من وقائع التاريخ، ويتتبع سيرة الرجال الذين استعان بهم أمير المؤمنين ذو النورين ـ رضوان الله عليهم ـ وما كان لجهادهم من جميل الأثر في تاريخ الدعوة الإسلامية، بل ما كان لحسن إدارتهم من عظيم النتائج في هناء الأمّة وسعادتها، فإنه لا يستطيع أن يمنع نفسه عن الجهر بالإعجاب، والفخر كلما أمعن في دراسة ذلك من أدوار التاريخ الإسلامي[5].

إن عثمان ﷺ وولاته انشغلوا بمدافعة الأعداء وجهادهم وردّهم، ولم يمنعهم ذلك من توسيع رقعة الدولة الإسلامية، ومدّ نفوذها في مناطق جديدة، وقد كان للولاة تأثير مباشر في أحداث الفتنة حيث كانت التهمة موجهة إليهم، وأنّهم اعتدوا على الناس، ولكنّنا لم نلمس حوادث معينة يتّضح فيها هذا الاعتداء المزعوم والمشاع، كما اتُّهم عثمان بتولية أقاربه، وقد

(1) تاريخ الطبري (5/ 416).
(2) المصدر السابق (5/ 355).
(3) البداية والنهاية (7/ 178).
(4) عثمان بن عفان، للصلّابي ص: 294.
(5) حاشية المنتقى من منهاج الاعتدال ص: 390.

دحضنا تلك الفرية، وهكذا نرى أنّ عثمان لم يألُ جهداً في نصح الأمة، وفي تولية من يراه أهلاً للولاية، ومع هذا لم يسلم عثمان وولاته من اتهامات وجهت إليهم من قبل أصحاب الفتنة في حينها، كما أن عثمان ﷺ لم يسلم من كثير من الباحثين في كتاباتهم غير المحقّقة عن عهد عثمان وخصوصاً الباحثين المحدثين الذين يطلقون أحكاماً لا تعتمد على التحقيق، أو على وقائع محددة، يعتمدون فيها على مصادر موثوقة، فقد تورّط الكثير منهم في الرّوايات الضّعيفة، والرافضّية، وبنوا أحكاماً باطلة وجائرة في حق الخليفة الرّاشد عثمان بن عفان، مثل طه حسين في كتابه: الفتنة الكبرى، وراضي عبد الرحيم في كتابه: النظام الإداري والحربي، وصبحيّ الصالح في كتابه: النُّظم الإسلامية، ومولوي حسين في كتابه: الإدارة العربية، وصبحي محمصاني في كتابه: تراث الخلفاء الراشدين في الفقه والقضاء، وتوفيق اليوزبكي في كتابه: دراسات في النظم العربية والإسلامية، ومحمد الملحم في كتابه: تاريخ البحرين في القرن الأول الهجري، وبدوي عبد اللطيف في كتابه: الأحزاب السياسية في فجر الإسلام، وأنور الرّفاعي في كتابه: النظم الإسلامية، ومحمد الرّيّس في كتابه: النظريات السياسية، وعلي حسني الخربوطلي في كتابه: الإسلام والخلافة، وأبي الأعلى المودودي في كتابه الملك والخلافة، وسيد قطب في كتابه: العدالة الاجتماعية، وغيرهم[1].

ولقد أكثر المؤرخون من الحديث عن محاباة عثمان أقاربه، وسيطرتهم على أزمة الحكم في عهده، حتّى أثاروا عليه نقمة كثير من الناس، فثاروا ناقمين عليه إطلاقه يد ذوي قرباه في شئون الدولة[2]، وأقارب عثمان الذي ولاهم ﷺ أوّلهم معاوية بن أبي سفيان، والثاني عبد الله بن أبي السرح، والثالث الوليد بن عقبة، والرّابع سعيد بن العاص، والخامس عبد الله بن عامر، هؤلاء خمسة ولاهم عثمان، وهم من أقاربه، وهذا في زعمهم مطعن عليه، فلو أخذنا إحصائية لوجدنا: أن عدد الولاة في عهد عثمان ستة وعشرون والياً، ألا يصح أن يكون خمسة من بني أمية يستحقون الولاية وبخاصة إذا علمنا: أن النبي ﷺ كان يولي بني أمية أكثر من غيرهم؟ علماً بأن هؤلاء الولاة لم يكونوا كلّهم في وقت واحد، بل كان عثمان ﷺ قد ولى الوليد بن عقبة، ثمّ عزله، فولى مكانه سعيد بن العاص، فلم يكونوا خمسة في وقت واحد، ولم يتوفّ عثمان إلا وقد عزل أيضا سعيد بن العاص، فعندما توفي عثمان لم يكن من بني أمية من الولاة إلا ثلاثة وهم: معاوية، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، وعبد الله بن عامر ابن كريز فقط، عزل عثمان الوليد بن عقبة، وسعيد بن العاص، ولكنّه عزلهما من أين؟ من الكوفة التي عزل منها عمر ﷺ سعد بن أبي وقاص، الكوفة التي لم ترض بوالٍ أبداً، إن عزل

(1) الولاية على البلدان (1/ 222 إلى 232).

(2) الدولة الأموية المفترى عليها ص: 159.

عثمان ﷺ لأولئك الولاة لا يعتبر مطعناً فيهم، بل مطعن في أهل الشغب في المدينة التي وُلُّوا عليها[1]. إن بني أمية كان رسول الله ﷺ يستعملهم في حياته، واستعملهم بعده من لا يُتهم بقرابة منهم: أبو بكر، وعمر ﷺ، ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمّال لرسول الله ﷺ أكثر من بني عبد شمس! لأنهم كانوا كثيرين وكان فيهم شرف وسؤدد، فاستعمل النبي ﷺ عتّاب بن أسيد بن أبي العاص على مكة، وأبا سفيان بن حرب على نجران، وخالد بن سعيد على صدقات بني مذحج، وأبان بن سعيد على بعض السّرايا ثمّ على البحرين، فعثمان ﷺ لم يستعمل إلا من استعمله النبي ﷺ، ومن جنسهم وقبيلتهم، وكذلك أبو بكر وعمر بعده، فقد ولى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان في فتوح الشام، وأقرّه عمر، ثمّ ولى عمر بعده أخاه معاوية[2]. والسؤال الذي يطرح نفسه: أأثبت هؤلاء كفاءتهم أم لا؟ والحقيقة العلمية التي أثبتُّها في كتابي عن عثمان ﷺ بأن ولاته أثبتوا كفاءتهم، فالولاة الذين ولاهم عثمان ﷺ من أقاربه قد أثبتوا الكفاءة والمقدرة في إدارة شؤون ولاياتهم، وفتح الله على أيديهم الكثير من البلدان وساروا في الرعية سيرة العدل والإحسان[3]، فمثلاً معاوية ﷺ كانت سيرته مع الرعية في ولايته من خير سير الولاة ممّا جعل النّاس يحبونه، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ قال: «خيار أئمتكم ـ حكامكم ـ الذين تحبونهم، ويحبونكم، وتصلون عليهم ـ تدعون لهم ـ ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم، ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم»[4]، وقد بيَّن القاضي ابن العربي وأثبت أن رسول الله استكتبه، وأن سند ولايته الأعمال في الدولة الإسلامية لم يكن لأحد قبله، ولم يكن لأحد بعده، حيث اجتمع على توليته: رسول الله ﷺ، ومن بعده خلفاؤه الثلاثة، ثم صالحه وأقرّ له بالخلافة الحسن بن علي بن أبي طالب[5].

13 - أسباب فتنة مقتل عثمان ﷺ:

قال الزهري: ولي عثمان اثنتي عشرة سنة أميراً للمؤمنين، أوّل ستّ سنين منها لم ينقم الناس عليه شيئاً، وإنّه لأحبُّ إلى قريش من عمر بن الخطاب، لأنّ عمر كان شديداً عليهم، أمّا عثمان، فقد لان لهم وَوَصَلَهم، ثمّ حدثت الفتنة بعد ذلك، وقد سمّى المؤرّخون المسلمون الأحداث في النّصف الثاني من ولاية عثمان 30 ـ 35هـ (الفتنة)، التي أدّت إلى استشهاد عثمان ﷺ[6]، وكان المسلمون في خلافة أبي بكر، وعمر، وصدراً من خلافة عثمان، متّفقين لا تنازع بينهم، ثم حدثت في أواخر خلافة عثمان أمور أوجبت نوعاً من التفرق، وقام قوم من أهل الفتنة والظلم فقتلوا عثمان، فتفرق المسلمون بعد مقتله[7]، وكان

(1) حقبة من التاريخ ص: 75.
(2) منهاج السنة (3/ 175، 176).
(3) تحقيق مواقف الصحابة من الفتنة (1/ 417).
(4) مسلم، كتاب الإمارة رقم 65.
(5) العواصم من القواصم ص: 82.
(6) طبقات ابن سعد (1/ 39 - 47) الخلفاء الرّاشدون، للخالدي ص: 112.
(7) مجموع الفتاوى (13/ 20).

المجتمع الإسلامي في خلافة الصديق، والفاروق، والنّصف الأوّل من خلافة عثمان يتّصف بالسّمات الآتية:

ـ أنه في عمومه ـ مجتمع مسلم بكل معنى الإسلام، عميق الإيمان بالله واليوم الآخر، مطبّق للإسلام بجدية واضحة والتزام ظاهر، وبأقلّ قدر من المعاصي وقع في أي مجتمع في التّاريخ.

- أنه المجتمع الذي تحقّق فيه أعلى مستوى للمعنى الحقيقيّ للأمّة بمعناها الرّباني، فهي الأمة التي تربط بينها رابطة العقيدة، بصرف النظر عن اللغة، والجنس، واللّون، ومصالح الأرض القريبة، وهذه لم تتحقّق في التاريخ كما تحقّقت في الأمة الإسلامية.

- أنه مجتمع أخلاقيّ يقوم على قاعدة أخلاقية واضحة مستمدة من أوامر الدين، وتوجيهاته.

- أنه مجتمع جادّ، مشغول بمعالي الأمور لا بسفاسفها، وليس الجدُّ بالضرورة عبوساً وصرامة، ولكنه روح تبعث الهمّة في الناس، وتحثُّ على النشاط، والعمل، والحركة.

- أنه مجتمع مجنّد للعمل، في كلّ اتجاه، تلمس فيه روح الجنديّة واضحة لا في القتال في سبيل الله فحسب، ولكن في جميع الاتجاهات، فهو معبّأ من تلقاء نفسه بدافع العقيدة وبتأثير شحنتها الدّافعة لبذل النشاط في كلّ اتجاه[1].

- أنه مجتمع متعبّد تلمس فيه روح العبادة واضحة في تصرفاته، ليس فقط في أداء الفرائض والتطوّع بالنّوافل ابتغاء مرضات الله، ولكن في أداء الأعمال جميعاً والعمل في حسّه عبادةٌ، يؤديه بروح العبادة[2].

هذه من أهم صفات عهد الخلفاء الراشدين ـ بصفة عامة ـ إلا أن تلك السّمات كانت أقوى كلمّا اقتربنا من عهد النبوة وتضعف كلّما ابتعدنا عن عصر النُّبوة، وقد بدأ التغير على عهد الخلافة الراشدة مع ظهور فتنة مقتل عثمان ﷺ، وكان لظهور هذه المحنة العظيمة التي مرت بها الأمة أسباب منها:

أ ـ الرخاء وأثره في المجتمع: وغنيٌّ عن الإشارة أنّ النّعم، والخيرات، وتلك الواردات من الفتوح سيكون لها أثرها على المجتمع، إذ تجلب الرّخاء وما يترتّب عليه من انشغال النّاس بالدّنيا، والافتتان بها، كما أنّها مادة للتنافس، والبغضاء خاصة بين أولئك الذين لم يصقل الإيمان نفوسهم، ولم تهذبهم التّقوى من أعراب البادية وجفاتها، ومن مسلمة الفتوحات،

(1) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص: 102.

(2) المصدر نفسه ص: 102.

وأبناء الأمم المترفة، وقد أدرك عثمان ﷺ هذه الظاهرة وأنذر بما سيؤول إليه أمر الأمة من التَّبذُّل والتغيُّر في كتابه الموجه إلى الرَّعية: فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاثةٍ فيكم: تكامل النِّعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن[1]، وحدث ما توقعه عثمان ﷺ وبدأ يظهر أثر التغيّر أولاً على أطراف الدّولة الإسلامية، ثم أخذ يزحف إلى عاصمة الخلافة، ممّا دفع عثمان ﷺ إلى تذكير المسلمين في خُطَبِهِ بضرورة الحذر من التهالك على الدنيا وحطامها، فكان مما قاله في إحدى خطبه: إنَّ الله إنَّما أعطاكم الدُّنيا، لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها، لتركنوا إليها، إن الدنيا تفنى، وإن الآخرة تبقى، ولا تبطرنَّكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية، . . . واحذروا ومن الله الغير، والزموا جماعتكم، لا تصيروا أحزاباً[2]، ثم قرأ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: 103-104].

وفي مثل هذه الظروف والخيرات، فاضت الدُّنيا على المسلمين وتفرّغ الناس بعد أن فتحوا الأقاليم، واطمأنُّوا فأخذوا ينقمون على خليفتهم[3]. ومن هنا يُعلم أثر الرخاء في تحريك الفتنة، ومن هنا أيضاً يمكن فهم مقالة عثمان ﷺ لعبد الرَّحمٰن بن ربيعة ـ له صحبة ـ وهو على الباب[4]: إن الرَّعية قد أبطر كثيراً منهم البطنة، فقصِّر بهم، ولا تقتحم بالمسلمين، فإنِّي خاشٍ أن يبتلوا[5].

ب ـ طبيعة التحول الإجتماعيّ في عهد عثمان ﷺ: حدثت تغيُّرات اجتماعية عميقة، ظلَّت تعمل في صمت وقوة لا يلحظها كثير من الناس، حتى ظهرت على ذلك الشكل العنيف المتفجِّر بدءاً من النِّصف الثاني من خلافة عثمان، وبلغت قمّة فورانها في التمرُّد الذي أدّى إلى استشهاده ﷺ[6]، ولما توسَّعت الدولة الإسلامية عبر حركة الفتوح، حصل تغيُّر في تركيبة المجتمع واختلالات في نسيجه، لأنَّ هذه الدَّولة بتوسُّعها المكانيّ، والبشريّ، ورثت ما على هذه الرقعة الواسعة من أجناس، وألوان ولغات، وثقافات، وعادات، ونظم، وأفكار،

(1) تاريخ الطبري (5/ 245).
(2) أحداث وأحاديث الهرج، ص: 567
(3) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 362).
(4) المقصود بالباب: منطقة في جهة أذربيجان، معجم البلدان (1/ 303).
(5) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 362).
(6) الدولة الأموية المفترى عليها، ص: 166.

ومعتقدات، وفنون أدبية، وعمرانية، ومظاهر، وظهرت على سطح هذا النسيج ألوان مضطربة، وخروقات غير منتظمة، كما صيَّرت المجتمع غير متجانس في نسيجه التَّركيبيّ، وبالذات في الأمصار الكبرى المؤثِّرة: البصرة، الكوفة، والشّام، ومصر، والمدينة ومكة، فقد كانت الأمصار الكبيرة بموقعها وأهميتها تدفع لجيش الفتوح، وتستقبلها وهي عائدة، وقد تنقص عددها بالموت والقتل، وتستقبل بدلاً عنهم أو أكثر منهم أعداداً وفيرة من أبناء المناطق المفتوحة، فرس، وترك، وروم، وقبط، وكرد، وبربر، وكان أكثرهم من الفرس، أو النَّصارى العرب، أو غيرهم، أو من اليهود[1]، وكان أغلب سكّان هذه الأمصار من القبائل العربيَّة من جنوبها، وشمالها، وشرقها، والذين لم يكونوا ـ عادة ـ من الصَّحابة، وبمعنى أدق: ليسوا ممَّن تلقَّوا التَّربية الكافية على يد رسول الله ﷺ أو على أيدي الجيل الأوَّل من الصحابة، إمَّا لانشغالهم بالفتوح، أو لقلة الصحابة، وقد حصلت تغيراتٌ في نسيج المجتمع البشريّ المكوّن من جيل السَّابقين، وسكّان البلاد المفتوحة والأعراب، ومن سبقت لهم ردَّة، واليهود، والنَّصارى وفي تكوين نسيج المجتمع الثَّقافي، وفي بسطة عيش المجتمع، وفي ظهور لون جديد من الانحرافات، وفي قبول الشائعات[2].

ج ـ ظهور جيل جديد: فقد حدث في المجتمع تغيُّر أكبر، ذلك: أن جيلا جديداً من الناس ظهر، وأخذ يحتل مكانه في المجتمع وهو غير جيل الصحابة، جيل يعيش في العصر غير الذي كانوا يعيشون فيه، ويتَّصف بما لا يتَّصفون به، فهو جيل[3] يعتبر في مجموعه أقلَّ من الجيل الأوَّل الذي حمل على كتفه عبء بناء الدَّولة وإقامتها، فقد تميز الجيل الأوَّل من المسلمين بقوَّة الإيمان، والفهم السَّليم لجوهر العقيدة الإسلاميَّة، والاستعداد التَّام لإخضاع النَّفس لنظام الإسلام المتمثل في القرآن والسُّنَّة، وكانت هذه الميِّزات أقل ظهوراً في الجيل الجديد الذي وُجد نتيجة للفتوحات الواسعة، وظهرت فيه المطامع الفرديَّة، وبُعثت فيه العصبية للأجناس والأقوام، وبعضهم يحملون رواسب كثيرة من رواسب الجاهليَّة التي كانوا عليها ولم ينالوا من التربية الإسلامية على العقيدة الصحيحة السَّليمة مثل ما نال الرَّعيل الأوَّل من الصَّحابة ﷺ على يد رسول الله ﷺ، وذلك لكثرتهم، وانشغال الفاتحين بالحروب والفتوحات الجديدة[4]، فالصَّحابة كانوا أقلَّ فتناً من سائر من بعدهم، فإنَّه كلما تأخَّر العصر عن النبوة كثر التفرق والخلاف[5]، ووجد دعاة الفتنة في المنحرفين من الجيل الجديد بغيتهم.

د ـ استعداد المجتمع لقبول الشائعات: ندرك من خلال هذا الخليط غير المتجانس في

(1) دراسات في عهد النبوة، ص: 379
(2) المصدر السابق نفسه، ص: 380
(3) الدولة الأموية، يوسف العش، ص: 132
(4) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 356)
(5) ذو النورين عثمان بن عفان، مال الله ص: 99.

نسيج المجتمع: أنه صار مهيَّئاً للهزَّات، مستعدّاً للاضطراب، قابلاً لتلقِّي الإذاعات والأقاويل والشائعات[1]، ولهذا لما كان الناس في خلافة أبي بكر وعمر أقرب عهداً بالرِّسالة وأعظم إيماناً صلاحاً، وأئمتهم أقوم بالواجب، وأثبت في الطمأنينة، لم تقع فتنة إذ كانوا في حكم القسط، أي: النفوس المطمئنة[2]، ولما كان آخر خلافة عثمان، وخلافة عليّ، كثر: أهل النفس اللَّوَّامة التي تخلط عملاً صالحاً، وآخر سيئاً، فصار فيهم شهوة، وشبهة مع الإيمان والدِّين، وصار ذلك في بعض الولاة، وبعض الرَّعايا، ثمَّ كثر هذا القسم، الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فنشأت الفتنة التي سببها ما تقدَّم من عدم تمحيص التَّقوى، والطَّاعة في الطَّرفين، واختلاطهما بنوع من الهوى، والمعصية في الطَّرفين، وكل منهم متأوِّلٌ وأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأنَّه مع الحقِّ والعدل، ومع هذا التأويل نوع من الهوى، ففيه من الظنِّ وما تهوى الأنفس، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحقِّ من الأخرى[3]، ويوضِّح هذا الواقع بدقة أكثر ذلك الحوار الذي دار بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأحد أتباعه، قال الرَّجل: ما بال المسلمين اختلفوا عليك، ولم يختلفوا على أبي بكر، وعمر؟ قال علي: لأنَّ أبا بكر وعمر كانا واليين على مثلي، وأنا اليوم والٍ على مثلك[4]، وكان أمير المؤمنين عثمان بن عفان مدركاً لما يدور في وسط المجتمع حيث قال في رسالته إلى الأمراء: أمّا بعد، فإن الرَّعيَّة قد طعنت في الانتشار، ونزعت إلى الشَّره، وأغذّاها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة، وأهواء مسرعة، وضغائن محمولة، يوشك أن تنفر، فتُغيِّر[5].

هـ - مجيء عثمان بعد عمر ﷺ: كان مجيء عثمان ﷺ مباشرة بعد عمر بن الخطاب ﷺ واختلاف الطبع بينهما مؤدِّياً إلى تغيُّر أسلوبهما في معاملة الرَّعية، فبينما كان عمر قوي الشكيمة، شديد المحاسبة لنفسه، ولمن تحت يديه، كان عثمان ألين طبعاً وأرقَّ في المعاملة، ولم يكن يأخذ نفسه، أو يأخذ النَّاس بما يأخذ به عمر، حتَّى يقول عثمان لنفسه: يرحم الله عمر، ومن يطيق ما كان عمر يطيق[6]؟! لكن النَّاس، وإن رغبوا به في الشَّوط الأوَّل من خلافته، لأنَّه لان معهم، حتَّى أصبحت محبَّته مضرب المثل، فقد أنكروا عليه بعد ذلك، ويرجع هذا إلى نشأة عثمان في لطفه، ولين عريكته، ورقة طبعه ودماثة خلقه، ممّا كان له بعض الأثر في مظاهر الفرق عند الأحداث بين عهده وعهد سلفه عمر بن الخطَّاب، وقد أدرك عثمان ذلك حين قال لأقوام سجنهم: أتدرون ما جرّأكم عليَّ؟ ما جرّأكم عليَّ إلا

(1) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ص: 382.
(2) مجموع الفتاوى (28/ 148).
(3) المصدر نفسه (28/ 149).
(4) مقدمة ابن خلدون ص: 189.
(5) التمهيد والبيان ص: 64.
(6) تاريخ الطبري (5/ 418).

حلمي[1]، وحين بدت نوايا الخارجين وقد ألزمهم عثمان الحجَّة في ردّه على المآخذ التي أخذوها عليه أمام الملأ من الصَّحابة والنَّاس، أبى المسلمون إلا قتلهم، وأبى عثمان إلا تركهم لحلمه، ووداعته قائلاً: بل نعفو، ونقبل، ولنصبرهم بجهدها، ولا نحادّ أحداً حتى يركب حدّاً، أو يبدي كفراً[2].

و ـ **خروج كبار الصَّحابة من المدينة**: كان عمر ﷺ قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن وأجل، فشكوه، فبلغه، فقام فقال: ألا أنّي قد سننت الإسلام سَنَّ البعير، يبدأ فيكون جذعاً، ثم ثنيّاً، ثمّ رباعيّاً، ثم سدسيّاً، ثمّ بازلاً[3]، فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان، ألا فإنَّ الإسلام قد نَزَل، ألا وإنَّ قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معوناتٍ دون عباده، ألا فأمّا وابن الخطاب حيٌّ فلا، إني قائم دون شِعب الحرَّة، آخذ بحلاقيم[4] قريش وَحُجَزِها أن يتهافتوا في النَّار[5]، لقد كان عمر يخاف على هؤلاء الصَّحابة من انتشارهم في البلاد المفتوحة، وتوسُّعهم في القطاع والضِّياع فكان يأتيه الرَّجل، من المهاجرين، وهو ممَّن حبس في المدينة، فيستأذنه في الخروج، فيجيبه عمر: لقد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدُّنيا ولا تراك[6]، وأمّا عثمان فقد سمح لهم بالخروج ولان معهم.

ز ـ **العصبية الجاهلية**: يقول ابن خلدون: لما استكمل الفتح، واستكمل للملَّة الملك ونزل العرب بالأمصار في حدود ما بينهم وبين الأمم من البصرة، والكوفة، والشّام ومصر، وكان المختصُّون بصحبة الرَّسول ﷺ والاقتداء بهديه وآدابه: المهاجرين والأنصار، وقريش، وأهل الحجاز، ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم، وأمّا سائر العرب من بني بكر بن وائل، وعبد القيس، وسائر ربيعة، والأزد، وكندة، وتميم، وقضاعة، وغيرهم فلم يكونوا في تلك الصحبة بمكان إلا قليل منهم. وكانت لهم في الفتوحات قدم، فكانوا يرون ذلك لأنفسهم مع ما يدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السَّابقة، ومعرفة حقّهم، وما كانوا فيه من الذهول، والدَّهش لأمر النُّبوّة، وتردُّد الوحي، وتنزل الملائكة، فلمَّا انحصر ذلك العباب، وتنوسي الحال بعض الشَّيء، وذل العدوُّ، واستفحل الملك، كانت عروق الجاهليَّة تنبض، ووجدوا الرِّياسة عليهم من المهاجرين، والأنصار، وقريش، وسواهم، فأنِفَتْ نفوسهم منه، ووافق ذلك في أيّام عثمان، فكانوا يظهرون الطعن في ولاته بالأمصار، والمؤاخذة لهم باللَّحظات والخطوات، والاستبطاء عليهم بالطاعات، والتَّجنّي بسؤال الاستبداد منهم، والعزل ويفيضون في النكير

(1) تاريخ الطبري (5/ 250).
(2) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (1/ 364).
(3) البازل: الذي انشق نابه بدخوله في التَّاسعة.
(4) الحلاقيم: جمع حلقوم.
(5) تاريخ الطبري (5/ 413).
(6) المصدر نفسه (5/ 414).

على عثمان، وفشت المقالة في ذلك في أتباعهم، وتناولوا بالظُّلم في جهاتهم، وانتهت الأخبار بذلك إلى الصَّحابة بالمدينة، فارتابوا، وأفاضوا في عزل عثمان، وحمله على عزل أمرائه، وبعث إلى الأمصار من يأتيه بالخبر.. فرجعوا إليه فقالوا: ما أنكرنا شيئاً، ولا أنكره أعيان المسلمين ولا عوامُّهم[1].

ح ـ **توقُّف الفتوحات بسبب حواجز طبيعية أو بشرية**: توقَّفت الفتوح في أواخر عهد عثمان أمام حواجز طبيعية أو بشرية لم تتجاوزها، سواء في جهات فارس، وشمالي بلاد الشَّام، أو في جهة إفريقية، توقفت الغنائم على أثرها، فتساءل الأعراب أين ذهبت الغنائم القديمة؟ أين ذهبت الأراضي المفتوحة التي يعدونها حقاً من حقوقهم[2]؟ وانتشرت الشائعات الباطلة التي اتهمت عثمان ﷺ بأنه تصرف في الأراضي الموقوفة على المسلمين وفق هواه، وأنه أقطع منها لمن شاء من النَّاس، وقد كان لها أثر وواقع على الأعراب، وخاصة وأنَّ معظمهم بقي بدون عمل يقضون شطراً من وقتهم في الطعام والنَّوم، والشطر الآخر بالخوض في سياسة الدَّولة، والحديث عن تصرُّفات عثمان التي كانت تهوِّلها السبئيَّة، وقد أدرك أحد عمَّال عثمان هذا الأمر، وهو عبد الله بن عامر، فأشار على الخليفة حيث طلب من عماله ـ وهم وزراؤه، ونصحاؤه ـ أن يجتهدوا في آرائهم، ويشيروا عليه، فأشار عليه أن يأمر النَّاس بالجهاد ويجمرهم في المغازي حتَّى لا يتعدَّى همُّ أحدهم قمل فروة رأسه ودبر دابته[3]، وفي ذلك الجو من الحديث والفكر عند أفراد تعوَّدوا الغزو، ولم يفقهوا من الدِّين شيئاً كثيراً يمكن أن يتوقع كلُّ سوء ويكفي أن يحرِّك هؤلاء الأعراب، وأن يُوجَّهوا توجيهاً، فإذا هم يثورون، ويحدثون القلاقل والفتن، وهذا ما حدث بالفعل، فإنَّ الأعراب ـ بسبب توقف الفتوحات ـ ساهموا في بوادر الفتنة الأولى، وكانوا سبباً من أسباب اندلاعها[4].

ط ـ **المفهوم الخاطئ للورع بتحريم الحلال**: الورع في الشريعة طيِّبٌ، وهو أن يُترك ما لا بأس به، ومخافة ممَّا فيه بأس، وهو في الأصل ترفع عن المباحات في الله ولله، والورع شيء شخصي يصحُّ للإنسان أن يطالب به نفسه، ولكن لا يصح أن يطالب به الآخرين، ومن أخطر أنواع الورع: الورع الجاهل الذي يجعل المباح حراماً أو مفروضاً، وهذا الذي وقع فيه أصحاب الفتنة[5]، فقد استغلَّ أعداء الإسلام يومها مشاعرهم هذه ونفخوا فيها، فرأوا فيما فعله عثمان من المباحات أو المصالح خروجاً على الإسلام، وتغييراً لسنَّة من سبقه، وعظمت هذه المسائل في أعين الجهلة، فاستباحوا أو أعانوا من استباح دم الخليفة الراشد عثمان بن عفَّان ﷺ وفتحوا على المسلمين باب الفتنة إلى اليوم[6].

---

(1) تاريخ ابن خلدون (2/ 477).
(2) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 344).
(3) تاريخ الطبري (2/ 340).
(4) تحقيق موقف الصَّحابة في الفتنة (1/ 353).
(5) الأساس في السنة (4/ 1676).
(6) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ص: 517.

ي ـ ظهور جيل جديد من الطامحين: وجد في الجيل الثاني من أبناء الصحابة ﷺ من يعتبر نفسه جديراً بالحكم والإدارة، ووجد أمثال هؤلاء أنَّ الطريق أمامهم مغلق، وفي العادة أنه متى وجد الطَّامحون الذين لا يجدون لطموحهم متنفساً، فإنَّهم يدخلون في كل عملية تغيير، ومعالجة أمر هؤلاء في غاية الأهمية[1].

ك ـ وجود طائفة موتورة من الحاقدين: لقد دخل في الإسلام منافقون موتورون اجتمع لهم من الحقد والذكاء والدَّهاء، ما استطاعوا به أن يدركوا نقاط الضَّعف التي يستطيعون من خلالها أن يوجدوا الفتنة، ووجدوا من يستمع إليهم بآذان صاغية، فكان من آثار ذلك ما كان[2]، فقد عرفنا سابقاً وجود يهود ونصارى وفرس، وهؤلاء جميعاً معروف باعث غيظهم وحقدهم على الإسلام والدولة الإسلاميّة، ولكنَّنا هنا نضيف من وقع عليه حدٌّ أو تعزير لأمر ارتكبه في وسط الدولة، وعاقبه الخليفة، أو ولاته في بعض الأمصار وبالذَّات البصرة، والكوفة، ومصر، والمدينة، فاستغلَّ أولئك الحاقدون من يهود ونصارى وفرس، وأصحاب الجرائم مجموعات من الناس كان معظمهم من الأعراب، ممَّن لا يفقهون هذا الدِّين على حقيقته، فتكوَّنت لهؤلاء جميعاً طائفة وُصفت من جميع من قابلهم بأنَّهم أصحاب شرٍ، فقد وُصفُوا: بالغوغاء من أهل الأمصار، ونزَّاع القبائل، وأهل المياه، وعبيد المدينة[3]، وبأنهم ذؤبان العرب[4]، وأنَّهم حثالة النَّاس ومتَّفقون على الشَّرِّ[5]، وسفهاء عديمو الفقه[6]، وأرذال من أوباش القبائل[7]، فهم أهل جفاء، وهمج، ورعاع من غوغاء القبائل، وسفلة الأطراف الأراذل[8]، وأنَّهم آلة الشيطان[9]، وقد تردَّد في المصادر اسم عبد الله بن سبأ الصَّنعاني اليهوديِّ ضمن هؤلاء الموتورين الحاقدين، وأنه كان من اليهود، ثمّ أسلم، ولم ينقِّب أحد عن نواياه، فتنقَّل بين البلدان الإسلاميَّة باعتباره أحد أفراد المسلمين[10]، وسيأتي الحديث عنه بإذن الله.

ل ـ التدبير المحكم لإثارة المآخذ ضدّ عثمان ﷺ: كان المجتمع مهيَّئاً لقبول الأقاويل، والشائعات نتيجة عوامل وأسباب متداخلة، وكانت الأرض مهيَّأةً ونسيج المجتمع قابلاً لتلقي الخروقات، وأصحاب الفتنة أجمعوا على الطَّعن في الأمراء بحجَّة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، حتى استمالوا النَّاس إلى صفوفهم، ووصل الطَّعن إلى عثمان بن عفان ﷺ نفسه

(1) الأساس في السنة (4/ 1676).
(2) المصدر نفسه (4/ 1676).
(3) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ص: 392.
(4) المصدر السابق ص: 392.
(5) الطبقات (3/ 71) هذا وصف ابن سعد.
(6) دراسات في عهد النبوة ص: 392.
(7) شذرات الذهب (1/ 40) هذا وصف ابن العماد.
(8) شرح صحيح مسلم (15/ 148، 149).
(9) تاريخ الطبري (5/ 327).
(10) دراسة في عهد النبوة ص: 394.

باعتباره قائد الدَّولة، وإذا ما حصرنا الدّعاوي التي رُوِّجت ضد الخليفة، وطعنوه بها، فيمكننا تصنيفها إلى مجموعات خمس:

- مواقف شخصيّة له قبل توليه الخلافة (تغيبه عن بعض الغزوات، والمواقع).

- سياسته الإدارية النّافذة: توليه أقاربائه، طريقته في التّولية.

- اجتهادات خاصة به، أو بمصلحة الأمّة (إتمام الصّلاة بمنى، جمع القرآن، الزّيادة في المسجد).

- معاملته لبعض الصّحابة: عمّار، أبي ذرّ، ابن مسعود.

وقد بينت موقف عثمان ﷺ في كلّ ما وجه إليه في كتابي تيسير الكريم المنان في سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان شخصيته وعصره. وقد حدث تزيُّد في إبراز المطاعن على عثمان ﷺ في عهده، وما واجهوه بها، وردُّه عليها في حينه، أو ما تُقوّل عليه فيما بعد عند الرُّواة والكتّاب، فإنها لم تصح، ولم تصل إلى حدّ أن تكون سبباً في قتله[1].

إن المآخذ السّابق ذكرها والمدوّنة في تاريخ الطّبري، وغيره من كتب التاريخ والمرويّة عن طريق المجاهيل، والإخباريين الضّعفاء ـ خاصّة الشيعة ـ كانت وما تزال بليّة عظمى على الحقائق في سير الخلفاء والأئمّة، خاصة في مراحل الاضطرابات والفتن، وقد كان مع الأسف لسيرة عثمان أمير المؤمنين ﷺ من ذلك الحظّ الوافر، فرواية الحوادث ووضع الأباطيل على النّهج الملتوي بعض ما نال تلك السيرة النيرة من تحريف المنحرفين، وتشويه الغالين، بغية التأليب عليه، أو التشهير به وقد أدرك عثمان ﷺ بنفسه ذلك عندما كتب إلى أمرائه: أمّا بعد، فإن الرَّعية طعنت في الانتشار ونزعت إلى الشرّ، أعداها على ذلك ثلاث: دنيا مؤثرة، وأهواء متسرّعة، وضغائن محمولة[2]، وقال ابن العربي على تلك المآخذ: قالوا متعذّين متعلّقين برواية كذّابين: جاء عثمان في ولايته بمظالم، ومناكير، ... هذا كله باطل سنداً ومتناً[3].

م ـ **استخدام الأساليب والوسائل المهيّجة للنّاس**: وأهم هذه الأساليب: إشاعة الأراجيف، حيث تردّدت كلمة الإشاعة والإذاعة كثيراً، والتّحريض والمناظرة، والمجادلة للخليفة أمام النّاس، والطّعن على الولاة، واستخدام تزوير الكتب، واختلاقها على لسان الصّحابة ﷺ، كعائشة، وعليّ، وطلحة، والزبير، والإشاعة بأن علي بن أبي

(1) دراسات في عهد النبوة، والخلافة الراشدة ص: 400.

(2) التمهيد والبيان ص: 64.

(3) العواصم من القواصم ص: 61 - 63.

طالب ﷺ الأحق بالخلافة، وأنّه الوصي بعد رسول الله ﷺ وتنظيم فرق في كل من البصرة، والكوفة، ومصر، أربع فرق من كلّ مصر ممّا يدل على التّدبير المسبق، وأوهموا أهل المدينة: أنهم ما جاؤوا إلا بدعوة الصّحابة، وصعّدوا الأحداث، حتى وصل الأمر إلى القتل[1]، وإلى جوار هذه الوسائل استخدموا مجموعة من الشعارات منها: التكبير، ومنها: أنَّ جهادهم هذا ضدَّ المظالم، ومنها: أنّهم لا يقومون إلا بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ومنها: المطالبة باستبدال الولاة وعزلهم، ثمَّ تطورت المطالبة إلى خلع عثمان، إلى أن تمادوا في جرأتهم وطالبوا، بل سارعوا إلى قتل الخليفة، وخاصّة حينما وصلهم الخبر بأنَّ أهل الأمصار قادمون لنصرة الخليفة، فزادهم حماسهم المحموم لتضييق الخناق على الخليفة، والشوق إلى قتله بأيّ وسيلة[2].

ن ـ دور عبد الله بن سبأ في تحريك الفتنة: في السّنوات الأخيرة من خلافة عثمان ﷺ بدت في الأفق سمات الاضطراب في المجتمع الإسلاميّ نتيجة عوامل التّغيير التي ذكرتها، وأخذ بعض اليهود يتحيّنون فرصة الظهور مستغلّين عوامل الفتنة، ومتظاهرين بالإسلام، واستعمال التّقيّة، ومن هؤلاء: عبد الله بن سبأ الملقّب بابن السّوداء، وإذا كان ابن سبأ لا يجوز التّهويل في شأنه كما فعل بعض المغالين في تضخيم دوره في الفتنة[3]، فإنه كذلك لا يجوز التّشكيك فيه، أو الاستهانة بالدّور الذي لعبه في أحداث الفتنة، كعامل من عواملها، على أنّه أبرزها وأخطرها، إذ أنَّ هناك أجواء للفتنة مهّدت له، وعوامل أخرى ساعدته، وغاية ما جاء به ابن سبأ آراء ومعتقدات ادّعاها واخترعها من قبل نفسه، وافتعلها من يهوديّته الحاقدة، وجعل يروّجها لغاية ينشدها، وغرض يستهدفه، وهو الدس في المجتمع الإسلامي بغية النّيل من وحدته، وإذكاء نار الفتنة، وغرس بذور الشّقاق بين أفراده، فكان ذلك من جملة العوامل التي أدّت إلى قتل أمير المؤمنين عثمان ﷺ وتفرّق الأمة شيعاً وأحزاباً[4]. وخلاصة ما جاء به أن أتى بمقدّمات صادقة، وبنى عليها مبادئ فاسدة راجت لدى السُّذّج والغلاة، وأصحاب الأهواء من النّاس، وقد سلك في ذلك مسالك ملتوية لبّس فيها على من حوله، حتى اجتمعوا عليه، فطرق باب القرآن بتأوّله على زعمه الفاسد، حيث قال: لَعَجبٌ ممّن يزعم أنَّ عيسى يرجع، ويكذّب بأن محمّداً يرجع، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ فمحمد أحق بالرجوع من عيسى[5]، كما سلك طريق القياس الفاسد من ادّعاء إثبات الوصيّة لعليّ ﷺ بقوله: إنّه كان ألف نبيّ، ولكل نبيّ وصيّ، وكان عليّ وصيّ محمد، ثمّ

(1) دراسات في عهد النبوة ص: 401.
(2) المصدر نفسه ص: 402.
(3) مثال سعيد الأفغاني في كتابه: عائشة والسياسة.
(4) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 327).
(5) تاريخ الطبري (5/ 247).

قال: محمد خاتم الأنبياء، وعلي خاتم الأوصياء، وحينما استقر الأمر في نفوس أتباعه انتقل إلى هدفه المرسوم، وهو خروج النَّاس على الخليفة عثمان بن عفان ﷺ فصادف ذلك هوىً في نفوس بعض القوم، حيث قال لهم: من أظلم ممَّن لم يُجِزْ وصيّة رسول الله ﷺ ووثب على وصيّ رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمّة، ثمّ قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حقّ، وهذا وصيُّ رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر فحرِّكوه، وابدؤوا بالطَّعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، تستميلوا النَّاس، وادعوهم إلى هذا الأمر[1]، وبثَّ دعاته، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السِّر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كلِّ مصر منهم إلى مصر آخر بما يضعون، فيقرأه أولئك في أمصارهم، وهؤلاء في أمصارهم حتَّى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون ويسِّرون غير ما يبدون، فيقول أهل كل مصر: إنَّا لفي عافية ممَّا ابتلي به هؤلاء، إلا أهل المدينة فإنَّهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار، فقالوا: إنَّا لفي عافية ممّا فيه النَّاس[2]، ويظهر من هذا النَّصِّ الأسلوب الذي تبعه ابن سبأ، فهو أراد أن يوقع في أعين الناس بين اثنين من الصَّحابة حيث جعل أحدهما مهضوم الحقِّ وهو عليٌّ، وجعل الثاني مغتصباً وهو عثمان، ثمّ حاول بعد ذلك أن يحرِّك النَّاس ـ خاصَّة في الكوفة ـ على أمرائهم باسم الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر فجعل هؤلاء يثورون لأصغر الحوادث على ولاتهم، علماً بأنَّه ركَّز في جملته هذه على الأعراب الذين وجد فيهم مادّة ملائمة لتنفيذ خطّته، فالقرَّاء منهم استهواهم عن طريق الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وأصحاب المطامع منهم هيّج أنفسهم، بالإشاعات المغرضة المفتراة على عثمان، مثل تحيزه لأقاربه، وإغداق الأموال من بيت مال المسلمين عليهم، وأنّه حمى الحمى لنفسه، إلى غير ذلك من التُّهم، والمطاعن التي حرك بها نفوس الغوغاء ضدّ عثمان ﷺ، ثمّ إنه أخذ يحض أتباعه على إرسال الكتب بأخبار سيئة عن مصرهم إلى بقية الأمصار، وهكذا يتخيل النَّاس في جميع الأمصار: - إنّ الحال بلغ من السوء ما لا مزيد عليه، والمستفيد من هذه الحال هم السبئية، لأن تصديق ذلك من الناس يفيدهم في إشعال شرارة الفتنة داخل المجتمع الإسلامي[3]، هذا وقد شعر عثمان ﷺ بأن شيئاً ما يحاك في الأمصار، وأنّ الأمّة تمخض

(1) تاريخ الطبري (5/ 348).
(2) المصدر نفسه (5/ 348).
(3) الدولة الأموية يوسف العش ص: 68، تحقيق مواقف الصحابة (1/ 330).

بشرٌ، فقال: والله إن رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات، ولم يحرّكها[1]، على أن المكان الذي رتع فيه ابن سبأ هو مصر، وهناك أخذ ينظّم حملته ضدّ عثمان ﷺ، ويحثُّ على التوجّه إلى المدينة لإثارة الفتنة بدعوى: أنّ عثمان أخذ الخلافة بغير حقٍّ، ووثب على وصيّ رسول الله، يقصد عليًّا[2]، وقد غشهم بكتب ادّعى أنها وردت من كبار الصحابة حتى إذا أتى هؤلاء الأعراب المدينة المنورة واجتمعوا بالصحابة لم يجدوا منهم تشجيعاً، تبرّؤوا ممّا نسب إليهم من رسائل تؤلّب النّاس على عثمان[3]، ووجدوا عثمان مقدّراً للحقوق، بل وناظرهم فيما سبوا إليه، وردّ عليهم افتراءهم وفسر لهم صدق أعماله حتى قال أحد هؤلاء الأعراب وهو مالك بن الأشتر النّخعي: لعله مُكر به ويكم[4]، ويعتبر الذهبي: أنّ عبد الله بن سبأ المهيّج للفتنة بمصر، وباذر بذور الشّقاق والنّقمة على الولاية ثمّ الإمام ـ عثمان ـ فيها[5]، ولم يكن ابن سبأ وحده وإنّما كان عمله ضمن شبكة من المتآمرين، وأخطبوطاً من أساليب الخداع، والاحتيال، والمكر، وتجنيد الأعراب، والقرّاء وغيرهم، ويروي ابن كثير: أنّ من أسباب تألّب الأحزاب على عثمان ظهور ابن سبأ، وذهابه إلى مصر، وإذاعته بين النّاس كلاماً اخترعه من عند نفسه، فافتتن به بشر كثير من أهل مصر[6].

إنّ المشاهير من المؤرّخين والعلماء من سلف الأمّة وخلفها يتّفقون على أنّ ابن سبأ ظهر بين المسلمين بعقائد وأفكار وخطط سبئيّة، ليلفت المسلمين عن دينهم وطاعة إمامهم، ويوقع بينهم الفرقة، والخلاف، فاجتمع إليه من غوغاء الناس ما تكوّنت به الطائفة السّبيئيّة المعروفة التي كانت عاملاً من عوامل الفتنة المنتهية بمقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفّان ﷺ والذي يظهر من خطط السّبئيّة أنّها كانت أكثر تنظيماً، إذ كانت بارعة في توجيه دعايتها، ونشر أفكارها، لامتلاكها ناصية الدّعاية، والتّأثير بين الغوغاء والرُّعاع من النّاس، كما كانت نشيطة في تكوين فروع لها سواء في البصرة، أم الكوفة، أم مصر، مستغلة العصبية القبليّة ومتمكّنة من إثارة مكامن التّذمّر عند الأعراب، والعبيد، والموالي، عارفة بالمواضع الحسّاسة في حياتهم، وبما يريدون[7].

---

(1) تاريخ الطبري (5/ 350).
(2) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 330) تاريخ الطبري (5/ 348).
(3) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 330) تاريخ الطبري (5/ 365).
(4) المصدر نفسه (1/ 331).
(5) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 338).
(6) البداية والنهاية (7/ 167، 168).
(7) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 339).

موقف معاوية بن أبي سفيان ﷺ في الفتنة:

في يوم من أيام سنة ثلاث وثلاثين جلس والي الكوفة سعيد بن العاص في مجلسه العام وحوله عامّة النّاس، وكانوا يتحدّثون ويتناقشون فيما بينهم، فتسلّلَ الخوارج من السَّبئيين إلى المجلس، وعملوا على إفساده، وعلى إشعال نار الفتنة وجرى كلام وحوار في المجلس بين سعيد بن العاص، وبين أحد الحضور، وهو خنيس بن حُبيش الأسدي، واختلفا على أمر، وكان سبعة من الخوارج، أصحاب الفتنة جالسين، منهم: جندب الأزديُّ، الذي قتل ابنه السَّارق بسبب تورطه في قضية قتل، ومنهم الأشتر النَّخعيُ، وابن الكوَّاء، وصعصعة بن صحوان، فاستغل أصحاب الفتنة الفرصة المناسبة، وقاموا بضرب خُنيس الأسدي في المجلس، ولمَّا قام أبوه يساعده وينقذه ضربوه، وحاول سعيد منعهم من الضَّرب فلم يمتنعوا، وأغمي على الرَّجل وابنه من شدَّة الضَّرب، وجاء بنو أسد للأخذ بثأر أبنائهم، وكادت الحرب تقع بين الفريقين، ولكنَّ سعيداً تمكَّن من إصلاح الأمر[1]، ولمّا علم عثمان بالحادثة، طلب من سعيد بن العاص أن يعالج الموضوع بحكمة، وأن يضيق على الفتنة ما استطاع، وذهب الخوارج المفتونون إلى بيوتهم، وصاروا ينشرون الإشاعات، ويُذيعون الافتراءات والأكاذيب ضدّ سعيد والي الكوفة، وضدَّ عثمان، وضدَّ أهل الكوفة ووجوهها، فاستاء أهل الكوفة منهم، وطلبوا من سعيد أن يعاقبهم، فقال لهم سعيد: إنَّ عثمان قد نهاني عن ذلك، فإذا أردتم ذلك، فأخبروه، وكتب أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم إلى عثمان بشأن هؤلاء النَّفر، وطلبوا منه إخراجهم من الكوفة، ونفيهم عنها، فهم مفسدون مخرِّبون فيها، فأمر عثمان واليه سعيد بن العاص بإخراجهم من الكوفة وكانوا بضعة عشر رجلاً، وأرسلهم سعيد إلى معاوية في الشام بأمر عثمان، وكتب عثمان إلى معاوية بشأن هؤلاء، فقال له: إنَّ أهل الكوفة قد أخرجوا إليك نفراً خلقوا للفتنة. فَرُعْهُم، وأخِفْهم، وأدِّبهم، وأقم عليهم، فإن آنست منهم رشداً، فاقبل منهم[2]. ومن الذين تمَّ نفيهم إلى الشام: الأشتر النَّخعيُ، وجندب الأزديُّ، وصعصعة بن صوحان، وكميل بن زياد، وعمير بن ضابئ، وابن الكوَّاء[3]، ولمّا قدموا على معاوية رحب بهم، وأحسن ضيافتهم، وأجرى عليهم بأمر عثمان ما كان يُجرى عليهم بالعراق، وجعل لا يزال يتغدَّى، ويتعشَّى معهم فقال لهم يوماً: إنكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة، وقد أدركتم بالإسلام شرفاً، وغلبتم الأمم، وحويتم مرائبهم ومواريثهم، وقد بلغني أنكم نقمتم قريشاً وإنّ قريشاً لو لم تكن لعدتم أذلة كما كنتم[4]. كان عثمان ﷺ يدرك: أنَّ معاوية للمعضلة، فله من فصاحته وبلاغته، وله من حلمه وصبره، وله

(1) تاريخ الطبري (5/ 323).
(2) المصدر السابق (5/ 324).
(3) الخلفاء الرّاشدون ص: 131.
(4) تاريخ الطبري (5/ 324).

من ذكائه ودهائه ما يواجه به الفتن، ومن أجل ذلك ما إن تقع المعضلة حتّى يرسلها لابن أبي سفيان كي يحلّها، وفعلاً بذل معاوية ﷺ ما بوسعه من أجل إقناع هؤلاء النَّفر: أكرمهم أوّلاً، وخالطهم، وجالسهم، وعرف سرائرهم من خلال هذه المجالسة قبل أن يحكم عليهم بما نُقل عنهم، وبعد أن أزال الوحشة عنهم، وأزال الكلفة بينه وبينهم، لاحظ أنَّ النَّعرة القبلية هي التي تحرّكهم، وأنَّ شهوة الحكم والسُّلطة هي التي تثيرهم، فكان لا بدَّ أن يلج عليهم من زاويتين اثنين:

الأولى: أثر الإسلام في عزّة العرب.

الثانية: دور قريش في نشر الإسلام وتحمُّل أعبائه فإن كان للإسلام أثرٌ في تكوينهم، فلا بدَّ أن يرعَوا لهذا الحديث، بعد هذا وضع أمامهم صورة لوضع العرب، وقد انقلبوا بالإسلام أمّة واحدة تخضع لإمام واحد وودعوا حياة الفوضى، وسفك الدِّماء، والقبليَّة المتنة[1]، ويتابع معاوية حديثه معهم، فيقول: إن أئمَّتكم لكم إلى اليوم جُنَّة[2]، فلا تشذوا عن جنَّتكم، وإنَّ أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور، ويحتملون منكم المؤونة، والله لتنتهنَّ أو ليبتلينَّكم الله بمن يسومكم، ثمَّ لا يحمدكم على الصَّبر، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرَّعيَّة في حياتكم، وبعد موتكم، فقال رجل من القوم: أمَّا ما ذكرت من قريش، فإنها لم تكن أكثر العرب، ولا أمنعها في الجاهلية، فتخوفنا، وأما ما ذكرت من الجُنَّة، فإن الجُنَّة إذا اخترقت خلص إلينا. فقال معاوية: عرفتكم الآن، علمت أن الذي أغراكم على هذا قلة العقول، وأنت خطيب القوم، ولا أرى لك عقلاً. أُعظِم عليك أمر الإسلام، وأذكّرك به، وتذكّرني الجاهليَّة؟ وقد وعظتك وتزعم لما يُجنُّك: أنه يخترق، ولا ينسب ما يخترق إلى الجُنَّة، أخزى الله أقواماً أعظموا أمركم، ورفعوا إلى خليفتكم[3].

وعرف معاوية أنَّ الإشارة العابرة لن تقنعهم، ولا بد من شرح مسهب لواقع قريش أوّلاً، فقال: افقهوا ـ ولا أظنكم تفقهون ـ أنَّ قريش لم تعزَّ في جاهليةٍ ولا في إسلام إلا بالله ﷻ، لم تكن أكثر العرب، ولا أشدَّهم، ولكنَّهم كانوا أكرمهم أحساباً، وأمحضهم أنساباً، وأعظمهم أخطاراً، وأكملهم مروءةً، ولم يمتنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضاً، إلا بالله الذي لا يُستَذَل من أعزَّ، ولا يوضع من رفع، هل تعرفون عرباً، أو عجماً، أو سوداً، أو حمراً إلا قد أصابه الدّهر في بلده، وحرمته بدولةٍ، إلا ما كان من قريش، فإنَّه لم يردهم أحد بكيد إلا جعل الله خدَّه الأسفل، حتى أراد الله أن ينقذ من أكرم، واتَّبع دينه من هوان الدُّنيا، وسوء مردّ الآخرة، فارتضى لذلك خير خلقه، ثمَّ ارتضى له أصحاباً، فكان خيارهم قريشاً، ثمَّ بنى هذا الملك عليهم، وجعل هذه الخلافة فيهم، ولا يصلح ذلك إلا عليهم، فكان الله

(1) معاوية بن أبي سفيان، لمنير الغضبان ص: 101. (3) تاريخ الطبري (5/ 324).
(2) جنة: وقاية.

يحوطهم وهم على دينه، وقد حاطهم الله في الجاهليَّة من الملوك الذين كانوا يدينونكم، أفلَّ لك ولأصحابك ولو أن متكلماً غيرك تكلَّم، ولكنَّك ابتدأت، فأمَّا أنت يا صعصعة فإنَّ قريتك شرُّ قرىً عربية، أنتنها نبتاً، وأعمقها وادياً، وأعرفها بالشَّرِّ، وألأمها جيراناً، لم يسكنها شريف قط ولا وضيع إلا سُبَّ بها، وكانت عليه هُجنة. ثمَّ كانوا أقبح العرب ألقاباً، وألأمها أصهاراً نزّاع[1] الأمم، وأنتم جيران الخطّ وفعلة فارس، حتَّى أصابتكم دعوة النَّبيّ ﷺ، ونكبتك دعوته، وأنت نزيع شطير[2] في عمان، لم تسكن البحرين، فتشركهم في دعوة النَّبي ﷺ، فأنت شرُّ قومك، حتى إذا أبرزك الإسلام، وخلطك بالنَّاس، وحملك على الأمم التي كانت عليك، أقبلت تبغي دين الله عوجاً وتنزع إلى اللاَّمة، والذِّلة، ولا يصنع ذلك قريش، ولن يضرَّهم ولن يمنعهم من تأدية ما عليهم، إنَّ الشَّيطان عنكم غير غافل، قد عرفكم بالشَّر من بين أمَّتكم، فأغرى النَّاس، وهو صارعكم، لقد علم: أنَّه لا يستطيع أن يردَّ بكم قضاء الله، ولا أمراً أراد الله، ولا تدركون بالشَّر أمراً إلا فتح الله عليكم شراً منه وأخزى، ثم قام وتركهم فتذامروا، فتقاصرت إليهم أنفسهم[3] وبذلك بذل معاوية كلَّ طاقاته الفكريَّة والثقافية والسياسية لإقناعهم:

- عرض لهم أولاً أمر قريش في الجاهلية والإسلام.

- تناول قبائل هؤلاء النَّفر، ووضعها في الجاهلية، حيث كانت تعاني سوء المناخ، ونتن المنبت من الناحية الطبيعية، ثمّ الذلة والتبعية لفارس من الناحية السياسية، إلى أن أكرمها الله بالإسلام فعزت بعد ذلّ، وارتقت بعد هوانٍ.

- تناول معاوية ﷺ صعصعة بن صوحان خطيب القوم، وكيف تلكّأ عن تلبية نداء الرسالة، وقد دخل قومه بها، ثمّ عاد وانضم إلى الإسلام، ورفعه الإسلام ثانية بعد انحدار.

- كشف معاوية ﷺ مخطّطات صعصعة وأصحابه، وكيف يبغون الفتنة، ويبغون دين الله عوجاً.

- وإن الشيطان هو وكر هذه الفتنة، ومحرّك هذا الشّر، وبذلك ربط تاريخ الأمة بالله، ثمّ الإسلام، والعقيدة ثمّ كشف عن زيف هؤلاء النَّفر، وفضحهم عن آخرهم، وأبان عن مخطّطاتهم، وصلتها بدعوى الجاهلية[4].

٥ - جلسة أخرى:

ثمّ أتاهم القابلة فتحدَّث عنهم طويلاً، ثم قال: أيُّها القوم! ردُّوا عليَّ خيراً، أو اسكتوا، وتفكَّروا وانظروا فيما ينفعكم، وينفع أهليكم، وينفع عشائركم، وينفع جماعة المسلمين،

(1) النزاع : جمع نزيع وهو الغريب.
(2) الشطير : الغريب.
(3) تاريخ الطبري (5/ 326).
(4) معاوية بن أبي سفيان، للغضبان ص: 111.

فاطلبوه تعيشوا ونعش بكم، قال صعصعة: لست بأهل لذلك، ولاكرامه لك أن تطاع في معصية الله. فقال معاوية: أوليس ما ابتدأتكم به أن أمرتكم بتقوى الله وطاعته وطاعة نبيه ﷺ، وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا، قالوا: بل أمرت بالفرقة، وخلاف ما جاء به النَّبي ﷺ! قال: إنِّي آمركم الآن، إن كنت فعلت، فأتوب إلى الله، وآمركم بتقواه وطاعته، وطاعة نبيِّه ﷺ، ولزوم الجماعة، وكراهة الفرقة، وأن توقِّروا أئمتكم، وتدلُّوهم على كلِّ حسن ما قدرتم، وتعظوهم في لينٍ ولطف في شيءٍ إن كان معهم، قال صعصعة: فإنا نأمرك أن تعتزل عملك فإنَّ من المسلمين من هو أحقُّ به منك. قال معاوية: من هو؟ قالوا: من كان أبوه أحسن قِدْماً من أبيك، وهو بنفسه أحسن قِدْماً منك في الإسلام، قال معاوية: والله إن لي في الإسلام قِدْماً. ولغيري كان أحسن قِدماً منِّي، ولكنَّه ليس في زماني أحدٌ أقوى على ما أنا فيه منِّي، ولقد رأى ذلك عمر بن الخطَّاب، فلو كان غيري أقوى منِّي، لم يكن لي عند عمر هوادة، ولا لغيري، ولم أحدث من الحدث ما ينبغي لي أن أعتزل عملي، ولو رأى ذلك أمير المؤمنين، وجماعة المسلمين، لكتب بخطِّ يده، فاعتزلت عمله، ولو قضي الله أن يفعل ذلك، لرجوت أن يعزم له على ذلك إلا هو خير. فمهلاً فإنَّ في ذلك وأشباهه ما يتمنَّى الشيطان ويأمر، ولعمري لو كانت الأمور تُقضى على رأيكم وأمانيِّكم ما استقامت الأمور لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة، ولكنَّ الله يقضيها، ويدبِّرها وهو بالغ أمره، فعاودوا الخير، وقولوه. قالوا: لست لذلك أهلاً. قال معاوية: أما والله إنَّ لله سطوات ونقمات، وإنِّي لخائف عليكم أن تتابعوا في مطاوعة الشَّيطان حتَّى تُحلكم مطاوعة الشَّيطان، ومعصية الرَّحمٰن دار الهوان من نقم الله في عاجل الأمر، والخزي الدَّائم في الأجل فوثبوا عليه، فأخذوا بلحيته، ورأسه، فقال: مه! إن هذه ليست بأرض الكوفة، والله لو رأى أهل الشَّام ما صنعتم بي وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم، فلعمري إنَّ صنيعكم ليشبه بعضه بعضاً، ثم قام من عندهم: فقال: والله لا أدخل عليكم مدخلاً ما بقيت[1].

هذه المحاولة الأخيرة التي بذل فيها معاوية أمير الشَّام كلَّ جهده، واستعمل حلمه وثقافته وأعصابه كي يثنيهم عن الفتنة، إنَّه يدعوهم إلى تقوى الله، وطاعته، والاستمساك بالجماعة، والابتعاد عن الفرقة، وإذ بهم يرفعون عقيرتهم قائلين: ليس لك أن تطاع في معصية الله[2]. وبحلمه الكبير وصدره الواسع عاد، فذكَّرهم بأنَّه لا يأمرهم إلا بطاعة الله، وعلى حدِّ زعمهم، فهو يتوب من المعصية إن وقعت، ثمَّ يعود لدعوتهم إلى الطَّاعة والجماعة، والابتعاد عن تفريق كلمة الأمَّة، ولو كان الوعظ يجدي معهم لأمكن أن تتأثَّر قلوبهم لهذه المعاملة وهذا اللُّطف، وهذا يوجِّههم إلى أن يستعملوا الأسلوب الهادئ في العظة، واللين في النُّصح،

(1) تاريخ الطبري (5/ 330، 331).
(2) المصدر السابق نفسه (5/ 330).

فوجدنا المال رحباً أن يكشفوا في مكنون قلوبهم. فقالوا: فإنّا نأمرك أن تعتزل عملك، فإنّ في المسلمين من هو أحقُّ به منك، وانتبه معاوية انتباهاً مفاجئاً إلى ما يكنُّون، فأحبَّ أنَّ يتعرف جانباً غامضاً عليه لعلَّ في هذا التعرُّف ما يوصله إلى من يحرِّكهم، ويبثّ في ذهنهم الأراجيف المغرضة، ولكنَّهم أخفوا ما يكنُّون واكتفوا بالإشارة إلى أنَّهم يحبون أن يدع العمل لمن هو أفضل منه، ولمن أبوه أفضل من أبيه، ثم تحلَّم عليهم أكثر فأكثر رغم الأسلوب الفجّ الذي سلكوه معه، وهم يأمرونه بأن يعتزل العمل. وهنا نجد لمعاوية جواباً مستفيضاً عن وجهة نظره في الحكم والإمارة والقيادة، وقد لخَّص معاوية إجابته في ستِّ نقاط أساسيَّة ومهمة:

- هي أنَّ له قِدَماً وسابقة في الإسلام، فهو حامي ثغر الشَّام منذ وفاة أخيه يزيد بن أبي سفيان ﷺ.

- أنَّ هناك في المسلمين من هو أفضل منه وأكرم وأحسن سابقة وأكثر بلاءً، وهو يرى أنَّه أقوى من يحمي هذا الثَّغر الإسلاميَّ العظيم ـ الشَّام ـ فمنذ أن تولاه تمكن من ضبطه وسياسته، وفهم نفسيَّات أهله حتَّى أحبُّوه.

- إنَّ الميزان الحساس، والمعيار الدَّقيق الذي يقيِّم الولاة هو عمر بن الخطاب ﷺ، الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، فلو وجد من معاوية شططاً أو انحرافاً عمل له طيلة خلافته، كما ولاه من قبل رسول الله ﷺ على بعض عمله، واستخدمه كاتباً بين يديه، وولاه أبو بكر الصِّدِّيق من بعده، ولم يطعن في كفاءته أحد.

- إنَّ اعتزال العمل يجب أن يستند لأسباب موجبة للاعتزال، فما هي الحجَّة التي يقدِّمها دعاة الفتنة ليتمَّ الاعتزال على أساسها؟

- إنَّ الذي يقرِّر العزل عن العمل، أو البقاء في الإمارة ليس هؤلاء الأدعياء، إنَّ ذلك من حقِّ أمير المؤمنين عثمان ﷺ وهو الذي له الحقُّ في تعيين الولاة وعزلهم.

- إنَّ أمير المؤمنين عثمان يوم يقرِّر عزل معاوية، فهو واثق أنَّ أمره خير كلَّه، ولا غضاضه في ذلك فهو أمير مأمور، وهو أمر خليفة المسلمين.[1] كان ختام الجلسة مؤسفاً أشدَّ الأسف، مؤلماً أشدَّ الألم، لقد حذَّرهم نقمة الله وغضبه، وحذَّرهم الانقياد إلى أهوائهم وغرورهم، فماذا كان منهم مقابل ذلك؟ وثبوا عليه وأخذوا برأسه ولحيته، وعندئذ زجرهم وقمعهم، ووجَّه لهم كلاماً قاسياً مبطَّناً بالتهديد، وعرف: أنَّ هؤلاء يستحيل أن ينصاعوا للحقِّ، فلا بدَّ من إبلاغ أمرهم لأمير المؤمنين عثمان ﷺ وكشف هويَّاتهم وخطرهم، ليرى فيهم أمير المؤمنين رأياً آخر[2].

---

(1) معاوية بن أبي سفيان، صحابي كبير، وملك مجاهد ص: 114 إلى 117.

(2) معاوية بن أبي سفيان، للغضبان ص: 117، 118.

كتاب معاوية إلى عثمان ﷺ بشأن أهل الفتنة من الكوفة:

كتب معاوية إلى عثمان ﷺ قائلاً: بسم الله الرحمٰن الرحيم لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من معاوية بن أبي سفيان، أما بعد يا أمير المؤمنين، فإنك بعثت إليَّ أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين وما يُملون عليهم، ويأتون النَّاس ـ زعموا ـ من قِبَل القرآن فيشبهون على الناس، ، وليس كل النَّاس يعلم ما يريدون، وإنما يريدون فرقة ويقربون فتنة، قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم، وتمكنت رُقَى الشيطان من قلوبهم، فقد أفسدوا كثيراً من النَّاس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة، ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم وفجورهم فارددهم إلى مصرهم، فلتكن دارهم في مصرهم الذي نجا فيه نفاقهم[1]، فكتب عثمان إلى سعيد بن العاص بالكوفة، فردّهم إليه، فلم يكونوا إلا أطلق ألسنة منهم حين رجعوا، وكتب سعيد إلى عثمان يضجّ منهم، فكتب عثمان إلى سعيد أن سيِّرهم إلى عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، وكان أميراً على حمص[2]، فلما وصلوا إلى عبد الرحمٰن بن خالد ابن الوليد، استدعاهم، وكلَّمهم كلاماً شديداً، وكان ممَّا قاله لهم: يا آلة الشيطان ألا مرحباً بكم، ولا أهلاً، لقد رجع الشيطان محسوراً خائباً، وأنتم مازلتم نشيطون في الباطل، خَسَّرَ الله عبد الرحمٰن إن لم يؤدِّبكم ويخزِكم! يا معشر من لا أدري من أنتم أعرب، أم عجمٌ؟ لن تقولوا لي كما كنتم تقولون لسعيد ومعاوية، أنا ابن خالد بن الوليد، أنا ابن من قد عَجمته العاجمات، أنا ابن قاقيء الرِّدَّة، والله لأذلنَّكم! وأقامهم عبد الرحمٰن بن خالد عنده شهراً كاملاً، وعاملهم بمنتهى الحزم والشِّدَّة، ولم يَلِن معهم كما لان سعيد ومعاوية، وكان إذا مشى مشوا معه، وإذا ركب ركبوا معه، وإذا غزا غزوا معه، وكان لا يدع مناسبة إلا ويذلهم فيها، وكان إذا قابل زعيمهم صعصعة بن صوحان يقول له: يا بن الخطيئة! هل تعلم أنَّ من لم يصلحه الخير أصلحه الشَّرُّ، وأن من لم يصلحه اللِّين أصلحته الشدَّة؟ وكان يقول لهم: لماذا لا تردُّون عليَّ، كما كنتم تردُّون على سعيد في الكوفة، وعلى معاوية بالشام؟ لماذا لا تخاطبوني، كما كنتم تخاطبوهما؟ ونفع معهم أسلوب عبد الرَّحمٰن بن خالد، وأخرسهم حزمه، وشدَّته، وقسوته، وأظهروا له التَّوبة والنَّدم، وقالوا له: نتوب إلى الله، ونستغفره أقِلْنَا أقالك الله وسامحنا سامحك الله. بقي القوم في الجزيرة عند عبد الرَّحمٰن بن خالد، وأرسل عبد الرَّحمٰن أحد زعمائهم وهو الأشتر النَّخعي إلى عثمان ليخبره بتوبتهم وصلاحهم، وتراجعهم عمَّا كانوا عليه من الفتنة، فقال عثمان للأشتر: احللْ أنت ومن معك حيث شئتم، فقد عفوت عنكم. قال الأشتر: نريد أن نبقى عند عبد الرَّحمٰن في الجزيرة مدَّةً، أظهروا فيها

(1) تاريخ الطبري (5/ 331).
(2) تاريخ الطبري (5/ 331).

التّوبة، والاستقامة والصّلاح[1]، وسكت أصحاب الفتنة في الكوفة إلى حين، وكان هذا في شهور سنة ثلاثة وثلاثين، بعدما تمّ نفي رؤوس الفتنة إلى معاوية في الشّام، ثمّ إلى عبد الرّحمٰن ابن خالد، فرأى أصحاب الفتنة في الكوفة أنّ المصلحة تقتضي أن يسكتوا إلى حين[2]. إلا أن بقية دعاة الفتنة كانوا يشتغلون في البصرة، ومصر، وغيرها وفي سنة أربع وثلاثين ـ السنة الحادية عشرة من خلافة عثمان ـ أحكم عبد الله بن سبأ خطته، ورسم مؤامرته، ورتب مع جماعته السَّبئيِّين الخروج على الخليفة وولاته، فقد اتّصل ابن سبأ اليهودي من وكر مؤامراته في مصر بالشّياطين من حربه في البصرة، والكوفة، والمدينة، واتفق معهم على تفاصيل الخروج، وكاتبهم وكاتبوه، وراسلهم وراسلوه وكان ممّن كاتبهم وراسلهم السَّبئيُّون في الكوفة، وقد كانوا بضعة عشر رجلاً منهم منفيين في الشّام، ثمّ في الجزيرة عند عبد الرّحمن ابن خالد بن الوليد، وبعد نفي أولئك الخارجين، كان زعيم السَّبئيِّين الحاقدين في الكوفة يزيد ابن قيس[3]. وقد خلت الكوفة في سنة أربع وثلاثين من وجوهها وأشرافها، لأنّهم توجّهوا للجهاد في سبيل الله، ولم يبق إلا الرُّعاع، والغوغاء الذين أثر فيهم السَّبئيُون والمنحرفون، وشحنوهم بأفكارهم الخبيثة، وهيّجوهم ضدّ والي عثمان إلى الكوفة سعيد بن العاص ﷺ[4] واستطاع القعقاع بن عمرو التميميُّ أمير الحرب بالكوفة أن يقضي على التحرك الأوّل بقيادة يزيد بن قيس، ولما رأى يزيد شدة القعقاع ويقظته وبصيرته، لم يجاهره بهدفهم وخطتهم في الخروج على الخليفة عثمان وخلعه، وأظهر له كل ما يريده هو وجماعته عزل الوالي سعيد بن العاص، والمطالبة بوالٍ آخر مكانه، فاستُجيب لطلبهم، ولذلك أطلق القعقاع سراح الجماعة، لما سمع كلام يزيد، قال يزيد: لا تجلس لهذا الهدف في المسجد، ولا يجتمع عليك أحد، واجلس في بيتك واطلب ما تريد من الخليفة، وسيحقّق لك ذلك بإذن[5] الله، واستمر يزيد بن قيس في إشعال الفتنة، واضطر إلى تعديل خطّته في الخروج وبعد كيد ومكر وتدبير من أتباع السبيئيِّن، قرّر الغوغاء والرُّعاع بقيادة يزيد بن قيس منع سعيد بن العاص من دخول الكوفة وكان سعيد بالمدينة[6].

ولمّا خرج السبيُّون، والغوغاء طلباً للفتنة، والتمُّرد، وإحداث القلاقل بقي في المسجد وجوه المسلمين، وأشرافهم، وحلماؤهم، فصعد المنبر نائب الوالي عمرو بن حُريث وطالب المسلمين بالأخوّة والوحدة، ونهاهم عن التفرُّق والاختلاف والفتنة والخروج، ودعاهم إلى عدم الاستجابة للخارجين والمتمرّدين[7]، قال القعقاع بن عمرو التميمي: أثردُّ السَّيل عن

(1) تاريخ الطبري (5/ 327).
(2) الخلفاء الراشدون، للخالدي ص: 134.
(3) الخلفاء الراشدون، للخالدي ص: 135.
(4) الخلفاء الراشدون، ص: 135.
(5) تاريخ الطّبري (5/ 337).
(6) المصدر نفسه (5/ 338).
(7) الخلفاء الرّاشدون، للخالدي ص: 139.

عبابه، فاردد الفرات عن أدراجه، هيهات لا والله لا تُسكّن الغوغاء إلا المشرفيّة[1]، ويوشك أن تُنتضى، ثمّ يعجُّون عجيج العتدان[2]، ويتمنون ما هم فيه، فلا يردهم عليهم أبداً، فاصبر، فقال: أصبر، وتحوّل إلى منزله[3]. واستطاع أهل الفتنة أن يمنعوا سعيد بن العاص من دخول الكوفة ورجع إلى المدينة، وكان من رأيه: أن من الحكمة عدم مواجهتهم، وعدم تأجيج نار الفتنة، بل محاولة إخمادها، أو تأجيل اشتعالها على الأقل، وبعد رجوعه إلى المدينة أخبر سعيد عثمان بما حصل. قال له عثمان: ماذا يريدون؟ هل خلعوا يداً من طاعة؟ وهل خرجوا على الخليفة وأعلنوا عدم طاعتهم له؟ قال له سعيد: لا لقد أظهروا أنّهم لا يريدونني والياً عليهم، ويريدون والياً آخر مكاني. قال له عثمان: من يريدون والياً؟ قال سعيد بن العاص: يريدون أبا موسى الأشعريّ، قال عثمان: قد عيّنا، وأثبتنا أبا موسى والياً عليهم، ووالله لن نجعل لأحد عُذراً ولن نترك لأحدٍ حجة، ولنصبرنّ عليهم كما هو مطلوب منّا، حتى نعرف حقيقة ما يريدون، وكتب عثمان إلى أبي موسى بتعيينه والياً على الكوفة[4]، وكان أبو موسى ﷺ يقوم بتهدئة الأمور، وينهي النّاس عن العصيان. وقال لهم: أيها الناس لا تخرجوا في هذه المخالفة، ولا تعودوا لمثل هذا العصيان، والزموا جماعتكم والطاعة، وإياكم والعجلة، اصبروا، فكأنّكم بأمير[5]. فقالوا: فصلّ بنا، قال: لا، إلا على السمع والطاعة لعثمان بن عفان، قالوا: على السّمع والطاعة لعثمان[6]. وما كانوا صادقين في ذلك، لكنّهم كانوا يخفون أهدافهم الحقيقيّة عن الآخرين وكان أبو موسى يصليّ بالنّاس إلى أن جاءه كتاب عثمان بتعيينه والياً على الكوفة، وكتب عثمان بن عفان إلى الخارجين من أهل الكوفة: أما بعد فقد أمّرت عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأفرشنّ لكم عِرضي، ولأبذُلنّ لكم صبري، ولأستصلحنّكم بجهدي، واسألوني كلّ ما أحببتم، ممّا لا يعصي الله فيه، فسأعطيه لكم، ولا شيئاً كرهتموه لا يُعصى الله فيه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عندما أحببتم، حتّى لا يكون لكم عليّ حجّة، وكتب بمثل ذلك إلى الأمصار[7]، رضي الله عن أمير المؤمنين عثمان، ما كان أصلحه وأوسع صدره وكم ظلمه السّبئيّون والخارجون الحاقدون، واختلقوا عليه.

مشورة عثمان لولاة الأمصار ورأي معاوية في ذلك:

واجه عثمان بن عفان الفتنة بوسائل وأساليب متنوعة منها: إرسال لجان تفتيش وتحقيق إلى الولايات، ومحاولة معرفة أغراض أهل الفتنة واستطاع أن يخترق صفوفهم، وأقام الحجة

(1) نوع من السيوف.
(2) تنتضى: أخرج السيف من غمده. العتدان: قيل الحولي من أولاد الماعز.
(3) تاريخ الطبري (5/ 338).
(4) تاريخ الطبري (5/ 339).
(5) أي: يأتيكم من قبل أمير المؤمنين عثمان.
(6) تاريخ الطبري (5/ 339).
(7) المصدر نفسه (5/ 343).

على الغوغاء والمتمردين بالحوار والنقاش، والاستجابة لبعض مطالبهم، وقد فصلت الحديث عن سياسة عثمان في التعامل مع الفتنة في كتابي عن عثمان بن عفان ﷺ ومن الأساليب التي اتخذها عثمان ﷺ مشورته لولاة الأمصار حيث بعث إلى هؤلاء الولاة واستدعاهم على عجلٍ وكانوا: عبد الله بن عامر، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الله بن سعد، وأدخل معهم في المشورة سعيد بن العاص، وعمرو بن العاص - وهم من الولاة السابقين - وكانت جلسة مغلقة وخطيرة، وقال فيه كل المشاركين برأيه وكان رأي معاوية: أشير عليك أن تأمر أمراء الأجناد فيكفيك كل رجل منهم ما قبله، وأكفيك أنا أهل الشام[1].

وبعد أن سمع عثمان من المشاركين اقتراحاتهم قام فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: كل ما أشرتم به عليَّ قد سمعت، ولكلٍّ أمر باب يؤتى منه، إنَّ هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمَّة كائن وإن بابه الذي يغلق عليه، فيُكفكف به اللِّين، والمؤاتاة والمتابعة، إلا في حدود الله تعالى ذكره، التي لا يستطيع أحد أن ينادي بعيب أحدها، فإن سدَّه شيء فرفق، فذاك والله ليُفتحنَّ، وليست لأحد عليَّ حجة حقٌّ، وقد علم الله إنِّي لم آل الناس خيراً، ولا نفسي. والله إنَّ رحا الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يحرِّكها، كفكفوا النَّاس، وهبوا لهم حقوقهم، واغفروا لهم، وإذا تعوطيت حقوق الله، فلا تُدهنوا فيها[2]، منع عثمان ﷺ الولاة من التَّنكيل بمثيري الشَّغب، وحبسهم، أو قتلهم، وقرَّر أن يعاملهم بالحسنى واللِّين[3]، وطالب من عماله أن يعودوا إلى أعمالهم، وفق ما أعلنه لهم من أسلوب مواجهة الفتنة التي كان كلٌّ بصير يرى أنَّها قادمة[4]، وقبل أن يتوجه معاوية بن أبي سفيان إلى الشَّام أتى عثمان وقال له: يا أمير المؤمنين انطلق معي إلى الشَّام، قبل أن يهجم عليك من الأمور والأحداث ما لا قِبَل لك بها. قال عثمان: أنا لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء، ولو كان فيه قطع خيط عنقي. قال له معاوية: إذاً أبعث لك جيشاً من الشَّام، يقيم في المدينة، لمواجهة الأخطار المتوقعة، ليدافع عنك، وعن أهل المدينة، قال عثمان: لا حتى لا أقتّر على جيران رسول الله ﷺ الأرزاق بجند تساكنهم، ولا أضيِّق على أهل الهجرة والنُّصرة. قال له معاوية: يا أمير المؤمنين، والله لتُغتلنَّ، أو لتُغزينَّ. قال عثمان: حسبي الله ونعم الوكيل[5]. ولقد حدث كل ما توقعه معاوية، فجاءت جموع أهل الفتنة لتحاصر عثمان ﷺ وتغتاله في النهاية. وحين جاء هؤلاء الثوار من مختلف الأقاليم لا نجد من بينهم جماعة من أهل الشام[6]، من كل ما سبق نجد أننا أمام والٍ كبير يشق طريقه بجدارة من بين الولاة إلى ما هو أبعد من الولاية فقد استطاع أن يجعل من

(1) الكامل (2/ 278) تاريخ الطبري (5/ 351).
(2) تاريخ الطبري (5/ 351).
(3) خلافة عثمان، د. السلمي ص: 77.
(4) الخلفاء الراشدون، للخالدي ص: 151.
(5) تاريخ الطبري (5/ 353).
(6) عبد الله بن سبأ، للعودة ص: 152، أثر العلماء في الحياة.

إقليم الشام الإقليم المهيأ لقيادة بقية الأقاليم في الدولة الإسلامية بما عمق فيه من حسن الطاعة للقيادة، وبما ثبت فيه من دعائم الاستقرار، وقطعه لأسباب الفتنة وعوامل الفرقة فيه، وهذا ما لا نجده في غيره من الأقاليم[1].

مقتل عثمان ﷺ وموقف الصحابة من ذلك:

اشتد الحصار على عثمان ﷺ، حتى منع من أن يحضر للصَّلاة في المسجد، وكان صابراً على هذه البلوى التي أصابته كما أمره رسول الله ﷺ بذلك، وكان مع إيمانه القوي بالقضاء والقدر، يحاول أن يجد حلاً لهذه المصيبة، فنراه تارة يخطب الناس عن حرمة دم المسلم وإنه لا يحل سفكه إلا بحقه، وتارة يتحدث في الناس ويظهر فضائله وخدماته الجليلة في الإسلام ويستشهد على ذلك ببقية العشرة رضوان الله عليهم[2]، وكأنه يقول من هذا: هل من الممكن أن يطمع بالدنيا ويقدمها على الآخرة؟ وهل يعقل يخون الأمانة ويعبث بأموال الأمة ودمائها وهو يعرف عاقبة ذلك عند الله، وهو الذي تربى على عين النبي ﷺ والذي شهد له وزكاه وكذلك أفاضل الصحابة، ومتى؟ بعد ما تجاوز السبعين وقارب الثمانين من عمره أهكذا تكون معاملته؟ واشتدت سيطرة المتمردون على المدينة حتى أنهم ليصلون بالناس في أغلب الأوقات[3]، وحينها أدرك الصحابة أن الأمر ليس كما حسبوا، وخشوا من حدوث ما لا يحمد عقباه، وقد بلغهم أن القوم يريدون قتله، فعرضوا عليه أن يدافعوا عنه، ويخرجوا الغوغاء عن المدينة إلا أنه رفض أن يراق دم بسببه[4]، وأرسل كبار الصحابة أبناءهم دون استشارة عثمان ﷺ، ومن هؤلاء الحسن بن علي ﷺ، وعبد الله بن الزبير، فقد كان عثمان يحب الحسن ويكرمه، فعندما وقعت الفتنة وحوصر عثمان ﷺ أقسم على الحسن ﷺ بالرجوع إلى منزله وذلك خشية عليه أن يصاب بمكروه[5]، وقد قال عثمان للحسن ﷺ: ارجع ابن أخي حتى يأتي الله بأمره[6]، وقد صحت روايات أن الحسن حمل جريحاً من الدار يوم الدار[7]، كما جرح غير الحسن، عبد الله بن الزبير، ومحمد بن حاطب، ومروان بن الحكم، كما كان معهم الحسين بن علي، وابن عمر ﷺ[8]، وقد كان

---

(1) أثر العلماء في الحياة السياسية ص: 76.

(2) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد علي ص: 85.

(3) سير أعلام النبلاء (3/ 515).

(4) فتنة مقتل عثمان (1/ 167) صحيح الإسناد.

(5) تاريخ المدينة لابن شبه (4/ 1208).

(6) الرياض النضرة، نقلاً عن الحسن بن علي ودوره السياسي ص: 46.

(7) الطبقات لابن سعد (8/ 128) بسند صحيح.

(8) تاريخ خليفة ص: 174.

علي ﷺ من أدفع الناس عن عثمان ﷺ ، وشهد له بذلك مروان بن الحكم[1]، كما أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله ﷺ ، إن علياً أرسل إلى عثمان فقال: إن معي خمسمائة دارع، فاذن لي فأمنعك من القوم، فإنك لم تحدث شيئاً يستحل به دمك، فقال: جزيت خيراً، ما أحب أن يهراق دم في سببي[2]، وقد وردت روايات عديدة تفيد وقوفه بجانب عثمان ﷺ أثناء الحصار فمن ذلك: أن الثائرين منعوا عن عثمان الماء حتى كاد أهله أن يموتوا عطشاً، فأرسل علي ﷺ إليه بثلاث قرب مملؤة ماء فما كادت تصل إليه، وجرح بسببها عدة من موالي بني هاشم وبني أمية حتى وصلت، ولقد تسارعت الأحداث فوثب الغوغاء على عثمان فقتلوه ﷺ ، ووصل الخبر إلى الصحابة وأكثرهم في المسجد، فذهبت عقولهم، وقال علي لأبنائه وأبناء أخيه: كيف قتل عثمان وأنتم على الباب؟ ولطم الحسن، وكان قد جرح[3]، وضرب صدر الحسين وشتم ابن الزبير وابن طلحة، وخرج غضبان إلى منزله وهو يقول: تباً لكم سائر الدهر، اللهم أني أبرأ إليكم من دمه أن يكون قتلت أو مالأت على قتله[4]، وهكذا كان موقف علي ﷺ ، نصح وشورى سمع وطاعة، ووقفة قوية بجانبه أثناء الفتنة، ومن أدفع الناس عنه، ولم يذكره بسوء قط، يحاول الإصلاح وسد الخرق بين الخليفة والخارجين عليه لكن الأمر فوق طاقته وخارج إرادته، إنها إرادة الله ﷻ أن يفوز أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ بالشهادة[5]. . . . وبوء المفسدين بالإثم. إن أمير المؤمنين علي ﷺ أنكر قتل عثمان، وتبرأ من دمه، وكان يقسم على ذلك في خطبه، وغيرها: إنه لم يقتله ولم يأمر بقتله ولا مالأ عليه ولا رضي، وقد ثبت ذلك عنه بطرق تفيد القطع[6]، خلافاً لما تزعمه الشيعة الرافضة من أنه كان راضياً بقتل عثمان ﷺ [7]، وقال الحاكم بعد ذكر بعض الأخبار الواردة في مقتله ﷺ : فأما الذي ادعته المبتدعة من معونة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ ، فإنه كذب وزور، فقد تواترت الأخبار بخلافه[8]. وقال ابن تيمية: وهذا كله كذب على علي ﷺ وافتراء عليه، فعلي ﷺ لم يشارك في دم عثمان ﷺ ، ولا أمر ولا رضي، وقد

(1) تاريخ الإسلام ص: 460 - 461 إسناده قوي.
(2) تاريخ دمشق ص: 403.
(3) ابن أبي عاصم الآحاد والثماني (1/ 125) نقلاً عن خلافة علي ص: 87.
(4) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 209) إسناده صحيح.
(5) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 209) إسناده صحيح.
(6) البداية والنهاية (7/ 202).
(7) العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ص: 129.
(8) المستدرك (3/ 103).

روي عنه ذلك وهو الصادق البار[1]، وقد قال علي ﷺ : اللهم أني أبرأ إليك من دم عثمان[2]. وقد شوّهت بعض كتب التاريخ مواقف الصحابة من فتنة مقتل عثمان، وذلك بسبب الروايات الضعيفة والموضوعة التي ذكرها كثير من المؤرخين، والمتتبع لأحداث الفتنة في تاريخ الإمام الطبري، وكتب التاريخ الأخرى من خلال روايات أبي مخنف، والواقدي، وابن أعثم، وغيرها من الأخبار حبكت بطريقة ذات ميول عدائية للتاريخ الصحيح، ويشعر أن الصحابة هم الذين كانوا يحركون المؤامرة ويثيرون الفتنة، فأبي مخنف ذو الميول الشيعية لا يتورع في اتهام عثمان بأنه الخليفة الذي كثرت سقطاته، فاستحق ما استحق، ويظهر طلحة في مروياته كواحد من الثائرين على عثمان، والمؤلبين ضده، ولا تختلف روايات الواقدي عن روايات أبي مخنف، وقد كثرت الروايات الشيعية التي تتهم الصحابة بالتآمر ضد عثمان ﷺ وأنهم هم الذين حركوا الفتنة وأثاروا الناس، وهذا كله كذب وزور[3]، وخلافاً للروايات الموضوعة والضعيفة فقد حفظت لنا كتب المحدثين بحمد الله، الروايات الصحيحة التي يظهر فيها الصحابة من المؤازرين لعثمان والمنافحين عنه والمتبرأين من قتله[4]، والمطالبين بدمه بعد مقتله، وبذلك يستبعد أي اشتراك لهم في تحريك الفتنة أو إثارتها[5].

إن الصحابة جميعاً ﷺ أبرياء من دم عثمان ﷺ . ومن قال خلاف ذلك فكلامه باطل ولا يستطيع أن يقيم عليه أي دليل ينهض إلى مرتبة الصحة، ولذلك أخرج خليفة في تاريخه عن عبد الأعلى بن الهيثم عن أبيه، قال: قلت للحسن: أكان فيمن قتل عثمان أحد من المهاجرين والأنصار؟ قال: لا، كانوا أعلاجاً[6] من أهل مصر. وقال الإمام النَّووي: ولم يشارك في قتله أحد من الصحابة، وإنما قتله همج، ورعاع من غوغاء القبائل سفلة الأطراف والأراذل، تحزّبوا، وقصدوه من مصر، فعجز الصحابة الحاضرون عن دفعهم، فحضروه حتّى قتل ﷺ [7]، وقد وصفهم الزبير ﷺ بأنهم غوغاء من الأمصار، ووصفتهم السيدة عائشة بأنّهم نزّاع القبائل[8]، ووصفهم ابن تيمية بأنهم خوارج مفسدون ضالون، باغون

(1) منهاج السنة (4/ 406).
(2) العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ص: 229، الطبقات (3/ 3) إسناده حسن.
(3) تحقيق مواقف الصحابة (20/ 14 إلى 18).
(4) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي للصَّلّابيّ ص: 122.
(5) تحقيق مواقف الصحابة (20/ 14 إلى 18).
(6) العلج : كل جاف شديد من الرِّجال، عثمان بن عفان للصَّلّابيّ، ص: 450.
(7) شهيد الدار عثمان بن عفان ص: 148.
(8) شرح النووي على صحيح مسلم (15/ 148).

معتدون[1]، ووصفهم الذهبيُّ بأنهم رؤوس شرٍّ وجفاء[2]، ووصفهم ابن العماد الحنبلي في الشذرات بأنَّهم أراذل من أوباش القبائل[3]، ويشهد على هذا الوصف تصرُّف هؤلاء الرُّعاع منذ الحصار إلى قتل الخليفة ﷺ ظلماً وعدواناً، فكيف يمنع الماء عنه والطعام وهو الذي طالما دفع من ماله الخاص ما يروي ظمأ المسلمين بالمجّان[4]، والذي يساهم بأموال كثيرة عندما يلمُّ النَّاس مجاعة، أو مكروه وهو الدائم العطاء عندما يصيب النَّاس ضائقة، أو شدَّة من الشدائد[5]، حتى أن علياً ﷺ يصف هذا الحال، وهو يؤنب المحاصرين بقوله: يا أيها الناس، إن الذي تفعلونه لا يشبه أمر المؤمنين، ولا أمر الكافرين، فلا تمنعوا عن هذا الرَّجل الماء، ولا المادة ـ الطعام ـ فإنَّ الروم وفارس لتأسر وتطعم وتسقي[6]، لقد صحَّت الأخبار وأكّدت حوادث التاريخ على براءة الصَّحابة من التَّحريض على عثمان أو المشاركة في الفتنة ضدّه[7]، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابي سيرة عثمان بن عفان[8].

المبحث الثالث

معاوية بن أبي سفيان في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ

كان معاوية ﷺ والياً على الشام في عهدي عمر وعثمان ﷺ، ولما تولى علي ﷺ الخلافة أراد عزله ـ ويبدو أن هناك ضغوط على علي ﷺ من قبل الغوغاء لكي يعزل معاوية، وخصوصاً أن الغوغاء يعرفون معاوية جيداً، والذي جعلني أقول ذلك أن العلاقة بين علي ومعاوية قبل خلافة علي، لا يوجد ما يشوبها، بل كانت جيدة، كما أن الغوغاء فيما بعد ضغطوا على أمير المؤمنين علي في عزل قيس بن سعد من مصر ونجحوا في ذلك وترتب على ذلك ضياع مصر، وقد فصلت ذلك في كتابي سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، هذا وقد اختار أمير المؤمنين علي بدلاً من معاوية عبد الله بن عمر فأبى عليه عبد الله قبول ولاية الشام

(1) منهاج السنة (2/ 189 – 206).
(2) دول الإسلام، للذهبي (1/ 12).
(3) تحقيق مواقف الصحابة (1/ 482) شذرات الذهب (1/ 40).
(4) تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان ص: 450.
(5) التمهيد والبيان ص: 424.
(6) تاريخ الطبري (5/ 400).
(7) تحقيق مواقف الصحابة (2/ 8).
(8) عثمان بن عفان، للصلابي ص: 451 إلى 466.

واعتذر في ذلك، وذكر له القرابة والمصاهرة التي بينهما[1]، ولم يلزمه أمير المؤمنين علي وقيل منه طلبه بعدم الذهاب إلى الشام، وأما الروايات التي تزعم أن علياً قام بالتهجم على عبد الله بن عمر ﷺ، لاعتزاله وعدم وقوفه إلى جانبه، ففي ذلك الخبر تحريف وكذب[2]، وأقصى ما وصل إليه الأمر في قضية عبد الله بن عمر وولاية الشام ما رواه الذهبي من طريق سفيان بن عيينة: عن ابن نافع عن أبيه عن ابن عمر قال: بعث إليَّ علي فقال: يا أبا عبد الرحمن إنك رجل مطاع في أهل الشام، فسر فقد أمرتك عليهم، فقلت: أذكرك الله وقرابتي من رسول الله ﷺ، وصحبتي إياه، إلا ما أعفيتني، فأبى علي، فاستعنت بحفصة فأبى، فخرجت ليلاً إلى مكة[3]، وهذا دليل قاطع على مبايعة ابن عمر، ودخوله في الطاعة، إذ كيف يوليه علي وهو لم يبايع، وفي الاستيعاب لابن عبد البر من طريق أبي بكر بن أبي الجهم عن ابن عمر أنه قال حين احتضر: ما آسى على شيء إلا تركي قتال الفئة الباغية مع علي ﷺ[4]، وهذا مما يدل أيضاً على مبايعته لعلي، وإنه إنما ندم على عدم خروجه مع علي للقتال، فإنه كان ممن اعتزل الفتنة، فلم يقاتل مع أحد، ولو كان قد ترك البيعة، لكان ندمه على ذلك أكبر وأعظم ولصرح به، فإن لزوم البيعة والدخول فيما داخل الناس فيه واجب، والتخلف عنه متوعد عليه برواية ابن عمر نفسه أن النبي ﷺ قال: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية»[5]. وهذا بخلاف الخروج للقتال مع علي، فإنه مختلف فيه بين الصحابة، وقد اعتزله بعض الصحابة، فكيف يتصور أن يندم ابن عمر على ترك هذا القتال، ولا يندم على ترك البيعة لو كان تاركاً لها، مع ما فيه من الوعيد الشديد، وبهذا يظهر بطلان قول بعض المؤرخين في زعمهم من ترك ابن عمر البيعة لعلي ﷺ، حيث ثبت أنه كان من المبايعين له بل من المقربين منه، الذين كان يحرص على توليتهم، والاستعانة بهم، لما رأى فيه من صدق الولاء والنصح له[6]، وبعد اعتذار ابن عمر من قبول ولاية الشام، أرسل أمير المؤمنين علي سهيل بن حنيف بدلاً منه، إلا أنه ما كاد يصل مشارف الشام حتى أخذته خيل معاوية وقالوا له: إن كان بعثك عثمان فحي هلا بك، وإن كان بعثك غيره فارجع[7]، وكانت بلاد الشام تغلي غضباً على مقتل عثمان ظلماً وعدواناً.

أولاً: اختلاف الصحابة في الطريقة التي يؤخذ بها القصاص من قتلة عثمان:

إن الخلاف الذي نشأ بين أمير المؤمنين علي من جهة، وبين طلحة والزبير وعائشة ﷺ

(1) المصنف لابن أبي شيبة (7/ 472) إسناده صحيح.
(2) استشهاد عثمان ووقعة الجمل ص: 160.
(3) سير أعلام النبلاء (3/ 224) رجاله ثقات.
(4) الاستيعاب (6/ 326) بحاشية كتاب الإصابة.
(5) مسلم، كتاب الإمارة رقم 1851.
(6) الانتصار للصحب والآل ص: 507.
(7) تهذيب تاريخ دمشق (4/ 39) خلافة علي، لعبد الحميد ص: 110.

من جهة أخرى، ثم بعد ذلك بين علي ومعاوية ﷺ لم يكن سببه ومنشؤه أن هؤلاء كانوا يقدحون في خلافة أمير المؤمنين علي وإمامته، وأحقيته بالخلافة والولاية على المسلمين، فقد كان هذا محل إجماع بينهم، قال ابن حزم: ولم ينكر معاوية قط فضل عليّ واستحقاقه الخلافة، ولكنَّ اجتهاده أدّاه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان ﷺ على البيعة، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان[1].

وقال ابن تيمية: ومعاوية لم يدّع الخلافة، ولم يبايع له بها حين قاتل علياً، ولم يقاتل على أنه خليفة، ولا أنه يستحق الخلافة، ويقرون له بذلك، وقد كان معاوية يقر بذلك لمن سأله عنه، ولم يكن معاوية وأصحابه يرون أن يبتدئوا علياً وأصحابه بالقتال، ولا فعلوا[2]، وقال أيضاً: وكل فرقة من المتشيعين مقرّة مع ذلك بأنه ليس معاوية كفؤاً لعلي بالخلافة، ولا يكون خليفة مع إمكان استخلاف علي، فإن فضل علي وسابقته وعلمه ودينه وشجاعته، وسائر فضائله كانت عندهم ظاهرة معلومة، كفضل إخوانه أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ[3].

إن منشأ الخلاف لم يكن قدحاً في خلافة أمير المؤمنين علي ﷺ وإنما اختلافهم في قضية الاقتصاص من قتلة عثمان، ولم يكن خلافهم في أصل المسألة، وإنما في الطريقة التي تعالج بها هذه القضية، إذ كان أمير المؤمنين علي ﷺ موافقاً من حيث المبدأ على وجوب الاقتصاص من قتلة عثمان، وإنما كان رأيه أن يرجيء الاقتصاص من هؤلاء إلى حين استقرار الأوضاع وهدوء الأمور واجتماع الكلمة وهذا هو الصواب[4]، قال النووي: واعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة، فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم وصاروا ثلاثة أقسام: قسم ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في هذا الطرف، وأن مخالفه باغٍ، فوجب عليهم نصرته، وقتال الباغي عليه فيما اعتقدوه ففعلوا ذلك، ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن مساعدة إمام العدل في قتال البغاة في اعتقاده، وقسم عكس هؤلاء: ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في الطرف الآخر، فوجب عليهم مساعدتهم وقتال الباغي عليه، وقسم ثالث: اشتبهت عليهم القضية، وتحيروا فيها، ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين فاعتزلوا الفريقين، وكان هذا الاعتزال هو الواجب في حقهم، لأنه لا يحل الإقدام على قتال مسلم حتى يظهر أنه مستحق لذلك، ولو ظهر لهؤلاء رجحان أحد الطرفين، وأن الحق معه، لما جاز لهم التأخر عن نصرته في قتال البغاة عليه[5].

---

(1) الفصل في الملل والأهواء والنحل (4/ 160).
(2) مجموع الفتاوى (35/ 72).
(3) المصدر نفسه.
(4) أحداث وأحاديث فتنة الهرج ص: 158.
(5) شرح النووي على صحيح مسلم (15/ 149).

ثانياً معركة صفين: ٣٧هـ

تسلسل الأحداث التي قبل المعركة:

1 - أم حبيبة بنت أبي سفيان، ترسل النعمان بن بشير بقميص عثمان إلى معاوية وأهل الشام:

لما قُتل عثمان ﷺ : أرسلت أم المؤمنين، أم حبيبة بنت أبي سفيان إلى أهل عثمان: أرسلوا إليّ بثياب عثمان التي قُتل فيها، فبعثوا إليها بقميصه مضرّجاً بالدم، وبخصلة الشعر التي نتفت من لحيته، ثم دعت النعمان بن بشير، فبعثته إلى معاوية، فمضى بذلك وبكتابها[1]، وجاء في رواية: خرج النعمان بن بشير ومعه قميص عثمان مضمخ بالدماء، ومعه أصابع نائلة التي أصيبت حين دافعت عنه بيدها[2]، وكانت نائلة بنت الفرافصة الكلبية زوج عثمان كلبية شامية[3]، فورد النعمان على معاوية بالشام فوضعه معاوية على المنبر ليراه الناس وعلق الأصابع في كم القميص يرفع تارة ويوضع تارة، والناس يتباكون حوله، وحث بعضهم بعضاً على الأخذ بثأره[4]، وجاء شرحبيل بن السمط الكندي وقال لمعاوية: كان عثمان خليفتنا، فإن قويت على الطلب بدمه وإلا فاعتزلنا[5] وألّى رجال الشام ألّا يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش، حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم[6]، وكان ذلك ما يريده معاوية، فقد كانت الصورة التي نقلها النعمان بن بشير إلى أهل الشام بشعة: مقتل الخليفة، سيوفاً مصلته من الغوغاء على رقاب الناس بالمدينة، بيت المال منتهكاً مسلوباً، وأصابع نائلة مقطوعة، فهاجت النفوس والعواطف، واهتزت المشاعر، وتأثرت بها القلوب، وذرفت منها العيون. ولذلك كان إصرار معاوية ومن معه من أهل الشام على المطالبة بدم عثمان، وتسليم القتلة للقصاص قبل البيعة. وهل تتصور أن يتم مقتل أمير المؤمنين وسيد المسلمين من حاقدين محتالين متآمرين، ولا يتماوج العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه للقصاص من أصحاب هذه الجريمة البشعة[7]؟

2 - دوافع معاوية ﷺ في عدم البيعة:

كان معاوية ﷺ والياً على الشام في عهد عمر وعثمان ﷺ، ولما تولى الخلافة

---

(1) تاريخ الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين ص: 539.
(2) البداية والنهاية (7/ 539).
(3) تاريخ الدعوة الإسلامية لمحمد جميل ص: 398.
(4) البداية والنهاية (7/ 539) سندها ضعيف.
(5) الأنساب (4/ 418)، تاريخ الدعوة الإسلامية ص: 398.
(6) تاريخ الطبري (5/ 600).
(7) معاوية بن أبي سفيان، للغضبان ص: 178، 183.

عليّ ﷺ أراد عزله وتولية عبد الله بن عمر ﷺ، فاعتذر ابن عمر، فأرسل عليّ سهل بن حنيف بدلاً منه، إلا أنه ما كان يصل مشارف الشام ـ وادي القرى ـ حتى عاد من حيث جاء، إذ لقيته خيل لمعاوية عليها حبيب بن مسلمة الفهري، فقالوا له: إن كان بعثك عثمان فحي هلا بك وإن كان بعثك غيره فارجع[1]، لقد امتنع معاوية وأهل الشام عن البيعة ورأوا أن يقتصّ علي ﷺ من قتلة عثمان ﷺ ثم يدخلون البيعة[2]، وقالوا: لا نبايع من يأوي القتلة[3]. وتخوّفوا على أنفسهم من قتلة عثمان ﷺ الذين كانوا في جيش علي، فرأوا أن البيعة لعلي لا تجب عليهم قبل القصاص، وأنهم إذا قوتلوا على ذلك كانوا مظلومين، قالوا: لأن عثمان قتل مظلوماً باتفاق المسلمين، وقتلته في عسكر علي، وهم غالبون لهم شوكة، فإذا بايعنا ظلمونا واعتدوا علينا وضاع دم عثمان، وكان معاوية ﷺ يرى أن عليه مسئولية الانتصار لعثمان والقود من قاتليه، فهو ولي دمه والله يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: 33]. لذلك جمع معاوية الناس، وخطبهم بشأن عثمان، وأنه قتل مظلوماً على يد سفهاء منافقين لم يقدروا الدم الحرام، إذ سفكوه في الشهر الحرام في البلد الحرام، فثار الناس واستكروا وعلت الأصوات وكان منهم عدد من أصحاب رسول الله ﷺ، فقام أحدهم واسمه مرة بن كعب فقال: لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما تكلمت: . . وذكر الفتن وقربها، فمر رجل متقنع في ثوب، فقال: «هذا يومئذ على الهدى»، فقمت إليه، فإذا هو عثمان بن عفان، فأقبلت عليه بوجهه فقلت: هذا؟ قال: «نعم»[4]. وهناك حديث آخر له تأثيره في طلب معاوية القود من قتلة عثمان، ومنشطاً ودافعاً قوياً للتصميم على تحقيق الهدف، وهو: عن النعمان بن بشير عن عائشة ﷺ قالت: أرسل رسول الله ﷺ. . فكان من آخر كلمة أن ضرب منكبه، فقال: «يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصاً، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني» ثلاثاً، فقلت لها: يا أم المؤمنين فأين كان هذا عنك؟ قالت: نسيته والله ما ذكرته، قال: فأخبرته معاوية بن أبي سفيان فلم يرض بالذي أخبرته، حتى كتب إلى أم المؤمنين أن اكتبي إلي به، فكتبت إليه كتاباً[5]. لقد كان الحرص الشديد في تنفيذ حكم الله في القتلة السبب الرئيسي في رفض أهل الشام بزعامة معاوية بن أبي سفيان بيعة علي بن أبي طالب ﷺ، ورأوا أن تقديم حكم القصاص مقدم على البيعة، وليست لأطماع معاوية في ولاية الشام فضلاً عن طلبه للخلافة، إذ كان يدرك إدراكاً تاماً أن هذا الأمر في بقية الستة من أهل الشورى، وأن علياً أفضل منه وأولى بالأمر منه[6]، فعن أبي مسلم

(1) تاريخ الطبري (5/ 466).
(2) البداية والنهاية (7/ 129).
(3) العواصم من القواصم ص: 162.
(4) صحيح سنن ابن ماجه (1/ 240).
(5) مسند أحمد رقم 24045 حديث صحيح.
(6) خلافة علي بن أبي طالب، لعبد الحميد ص: 112.

الخولاني أنه قال لمعاوية: أنت تنازع علياً أم أنت مثله؟ فقال: لا والله إني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر مني، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً، وأنا ابن عمه والطالب بدمه، فائتوه فقولوا له، فليدفع إليّ قتلة عثمان وأسلم له، فأتوا علياً فكلموه، فلم يدفعهم إليه[1]، وأما ما شاع بين الناس قديماً وحديثاً أن الخلاف بين علي ومعاوية ﷺ كان سببه طمع معاوية في الخلافة، وأن خروج هذا الأخير على عليّ وامتناعه عن بيعته كان بسبب عزله عن ولاية الشام، فهذه روايات لا تصح ولا ثبتت، فقد جاء في كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة الدينوري، وهو لا يثبت له وإنما صاحبه ذو أنفاس شيعية رافضية، فقد ذكر أنَّ معاوية ادّعى الخلافة، وذلك من خلال الرواية التي ورد فيها ما قاله ابن الكواء لأبي موسى الأشعري ﷺ: اعلم أن معاوية طليق الإسلام، وأن أباه رأس الأحزاب، وأنه ادعى الخلافة من غير مشورة فإن صدقك فقد حلّ خلعه، وإن كذبك فقد حرم عليك كلامه[2]. وهذا كلام لا يثبت عن أمير المؤمنين علي وإنما من كلام الشيعة الروافض، وسيأتي الحديث عن كتاب الإمامة والسياسة وبيان كذبه وزوره ودوره في تشويه حقائق التاريخ في موضعه بإذن الله، وقد امتلأت كتب التاريخ والأدب بالروايات الموضوعة والضعيفة التي تزعم أن معاوية اختلف مع علي من أجل الملك والزعامة والإمارة[3]. والصحيح أن الخلاف بين علي ومعاوية ﷺ كان حول مدى وجوب بيعة معاوية وأصحابه لعلي قبل توقيع القصاص على قتلة عثمان أو بعده، وليس هذا في أمر الخلافة في شيء فقد كان رأي معاوية ﷺ ومن حوله من أهل الشام أن يقتص عليّ ﷺ من قتلة عثمان، ثم يدخلون بعد ذلك في البيعة[4]، يقول القاضي ابن العربي أن سبب القتال بين أهل الشام وأهل العراق يرجع إلى تباين المواقف بينهما: فهؤلاء ـ أي أهل العراق ـ يدعون إلى عليّ بالبيعة وتأليف الكلمة على الإمام، وهؤلاء ـ أي أهل الشام ـ يدعون إلى التمكين من قتلة عثمان ويقولون: لا نبايع من يأوي القتلة[5]، ويقول إمام الحرمين في «لمع الأدلة»: إن معاوية وإن قاتل علياً، فإنه لا ينكر إمامته ولا يدّعيها لنفسه، وإنما كان يطلب قتلة عثمان ظانًّا منه أنه مصيب، وكان مخطئاً[6]. ويقول الهيثمي: ومن اعتقاد أهل السنة والجماعة أنَّ ما جرى بين معاوية وعلي ﷺ من الحروب، لم يكن لمنازعة معاوية لعلي في الخلافة للإجماع على أحقيتها لعليّ، فلم تهج الفتنة بسببها، وإنما

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 140). رجاله ثقات وإسناده جيد.
(2) الإمامة والسياسة (1/ 113).
(3) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (2/ 145).
(4) البداية والنهاية (8/ 129) فتح الباري (13/ 92).
(5) العواصم من القواصم ص: 162.
(6) لمع الأدلة في عقائد أهل السنة والجماعة ص: 115.

هاجت بسبب أن معاوية ابن عمّه فامتنع علي[1]، لقد تضافرت الروايات وأشارت إلى أنّ معاوية ﷺ اتخذ موقفه للمطالبة بدم عثمان، وأنه صرح بدخوله في طاعة علي ﷺ إذا أقيم الحد على قتلة عثمان ولو افترض أنه اتخذ قضية القصاص والثأر لعثمان ذريعة لقتال علي وطمعاً في السلطة، فماذا سيحدث لو تمكن علي من إقامة الحد على من قتل عثمان؟ حتماً ستكون النتيجة خضوع معاوية لعلي ومبايعته له، لأنه التزم بذلك في موقفه من تلك الفتنة، كما أن كل من حارب معه كانوا يقاتلون على أساس إقامة الحد على قتلة عثمان، على أن معاوية إذا كان يخفي في نفسه شيئاً آخر لم يعلن عنه، سيكون هذا الموقف بالتالي مغامرة، ولا يمكن أن يقدم عليها إذا كان ذا أطماع[2].

إن معاوية ﷺ كان من كتّاب الوحي، ومن قادة الصحابة، وأكثرهم حلماً، فكيف يعتقد أن يقاتل الخليفة الشرعي ويهرق دماء المسلمين من أجل مُلك زائل؟ وهو القائل: والله لا أخيّر بين الله وبين غيره إلا اخترت الله على ما سواه[3]، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال فيه: «اللهم اجعله هادياً مهدياً واهد به»[4]، وقال: «اللهم علمه الكتاب وقه العذاب»[5]. وأما وجه الخطأ في موقفه من مقتل عثمان ﷺ، فيظهر في رفضه أن يبايع لعلي ﷺ قبل مبادرته إلى الاقتصاص من قتلة عثمان، ويضاف إلى ذلك خوف معاوية على نفسه لمواقفه السابقة من هؤلاء الغوغاء، وحرصهم على قتله بل ويلتمس منه أن يمكنه منهم، أن الطالب للدم لا يصح أن يحكم، بل يدخل في الطاعة ويرفع دعواه إلى الحاكم، ويطلب الحق عنده[6]، وقد اتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتصّ من أحد ويأخذ حقه دون السلطان، أو من نصبه السلطان لهذا الأمر، لأن ذلك يفضي إلى الفتنة وإشاعة الفوضى[7]. ويمكن القول: إن معاوية ﷺ كان مجتهداً، متأولاً يغلب ظنه أن الحق معه، فقد قام خطيباً في أهل الشام بعد أن جمعهم وذكّرهم أنه ولي عثمان ـ ابن عمه ـ وقد قتل مظلوماً، وقرأ عليهم الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: 33]. ثم قال: أنا أحب أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان، فقام

(1) الصواعق المحرقة (2/ 622) هذا هو اجتهاد معاوية وإن كان الصواب هو أن يسلم معاوية ويطالب بالدعوة للقصاص.
(2) تحقيق مواقف الصحابة (2/ 150).
(3) سير أعلام النبلاء (3/ 151).
(4) صحيح سنن الترمذي للألباني، رقم 3018 (3/ 236).
(5) فضائل الصحابة (2/ 319) إسناده حسن.
(6) تحقيق مواقف الصحابة (2/ 151).
(7) تفسير القرطبي (2/ 256).

أهل الشام جميعهم وأجابوا إلى الطلب بدم عثمان، وبايعوه على ذلك، وأعطوه العهود والمواثيق على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم حتى يدركوا ثأرهم أو يفني الله أرواحهم[1]. وإذا قارنّا بين طلحة والزبير ﷺ، ومعاوية لاحظنا أنهما أقرب إلى الصواب من معاوية ﷺ ومن معه من أربعة أوجه كان أولها: مبايعتهما لعليّ ﷺ طائعين مع اعترافهما بفضله، ومعاوية لم يبايعه وإن كان معترفاً بفضله[2]. والثاني: منزلتهما في الإسلام وعند المسلمين وسابقتهما على معاوية ولاشك أن معاوية دونهما فيها[3]. الثالث: أنهما أرادا قتل الخوارج على عثمان فقط ولم يتعمدا محاربة علي ومن معه في وقعة الجمل[4]، بينما أصر معاوية على حرب عليّ ومن معه في صفين[5]، والرابع: لم يتهما عليًّا بالهوادة في أخذ القصاص من قتلة عثمان، ومعاوية ومن معه اتهموه بذلك[6]. ونضيف نقطة خامسة: أن طلحة والزبير اقتنعا بصواب موقف علي ودخلا في الطاعة عندما اتفقا مع القعقاع بن عمر وإنما الحرب بإثارة الغوغاء والسبائية لها.

3 - معاوية يرد على أمير المؤمنين علي ﷺ:

بعث علي ﷺ كتباً كثيرة إلى معاوية فلم يرد عليه جوابها وتكرر ذلك مراراً إلى الشهر الثالث من مقتل عثمان ﷺ في صفر، ثم بعث معاوية طُوماراً[7] مع رجل، فدخل به على عليّ ﷺ فقال له علي: ما وراءك؟ قال: جئتك من عند قوم لا يريدون إلا القَوَدَ[8]، كلهم موتور[9]، تركت ستين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان، وهو على منبر دمشق، فقال علي: اللّهم إني أبرأ إليك من دم عثمان. ثم خرج رسول معاوية من بين يدي عليّ، فهمَّ به أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان يريدون قتله، فما أفلت إلا بعد جهد[10].

4 - تجهيز أمير المؤمنين علي لغزو الشام:

بعد وصول رد معاوية لأمير المؤمنين علي ﷺ عزم الخليفة على قتال أهل الشام، وكتب إلى قيس بن سعد بمصر يستنفر الناس لقتالهم، وإلى أبي موسى الأشعري بالكوفة، وبعث إلى

(1) صفين لابن مزاحم، ص: 32، تحقيق مواقف الصحابة (2/ 152).
(2) البداية والنهاية (8/ 129) وفتح الباري (13/ 92).
(3) كان طلحة والزبير من العشرة المبشرين بالجنة.
(4) تحقيق مواقف الصحابة (2/ 113) تاريخ الطبري (5/ 475).
(5) تاريخ الطبري (5/ 612 - 615).
(6) تحقيق مواقف الصحابة (2/ 139)، البداية والنهاية (7/ 259).
(7) الطومار: الصحيفة.
(8) القود: القتل بالقتيل.
(9) الموتور: صاحب الثأر.
(10) البداية والنهاية (7/ 240).

عثمان بن حنيف بالبصرة بذلك، وخطب الناس فحثهم على ذلك، وعزم على التَجَهّزُ وخرج من المدينة، واستخلف عليها قثم بن العباس، وهو عازم أن يقاتل بمن أطاعه من عصاه وخرج عن أمره ولم يبايعه مع الناس، وجاء إليه ابنه الحسين ﷺ فقال: يا أبتِ دع هذا فإن فيه سفك دماء المسلمين، ووقع الاختلاف بينهم، فلم يقبل منه ذلك، بل صمم على القتال، ورتّب الجيش، فدفع اللواء إلى محمد بن الحنفية، وجعل ابن عباس على الميمنة، وعمر بن أبي سلمة على الميسرة وقيل جعل على الميسرة عمرو بن سفيان بن عبد الأسد، وجعل على مقدمته أبا ليلى بن عمرو بن الجراح ابن أخ أبي عبيدة، واستخلف على المدينة قثم بن العباس، ولم يبق شيء إلا أن يخرج من المدينة قاصداً الشام، فجاءه ما يشغله عن ذلك[1]، وقد تمَّ تفصيل ذلك من خروج عائشة وطلحة والزبير ﷺ إلى البصرة إلى معركة الجمل، فليرجع إليه في كتاب سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب[2].

5 - إرسال أمير المؤمنين علي ﷺ جرير بن عبد الله إلى معاوية بعد معركة الجمل:

ذُكر أن المدة بين خلافة أمير المؤمنين عليّ إلى فتنة السبئية الثانية أو ما يسمى البصرة، أو معركة الجمل، خمسة أشهر وواحد عشرين يوماً، وبين دخوله الكوفة شهر، وبين ذلك وخروجه إلى صفين ستة أشهر[3]، وروي شهران أو ثلاثة[4]، وقد كان دخول أمير المؤمنين الكوفة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاثين، فقيل له: أنزل بالقصر الأبيض، فقال: لا إن عمر بن الخطاب كان يكره نزوله، فأنا أكره لذلك. فنزل في الرحبة وصلّى بالجامع الأعظم ركعتين ثم خطب الناس فحثهم على الخير، ونهاهم عن الشر ومدح أهل الكوفة في خطبته هذه، ثم بعث إلى جرير بن عبد الله، وكان على همذان من زمان عثمان، وإلى الأشعث بن قيس وهو على نيابة أذربيجان من أيام عثمان يأمرهما أن يأخذا البيعة له على من هنالك ثم يُقبلا إليه، ففعلا ذلك، فلما أراد علي أن يبعث إلى معاوية يدعو إلى بيعته، قال جرير بن عبد الله البجلي: أنا ذاهب إليه يا أمير المؤمنين، فإنَّ بيني وبينه وُدًّا، فآخذ لك البيعة منه، فقال الأشتر: لا تبعثه يا أمير المؤمنين، فإني أخشى أن يكون هواه معه. فقال علي: دعه، فبعثه وكتب معه كتاباً إلى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ويخبره بما كان في وقعة الجمل، ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه الناس، فلمَّا انتهى إليه جرير بن عبد الله، أعطاه الكتاب، وطلب معاوية ﷺ عمرو بن العاص ورؤوس أهل الشام، فاستشارهم، فأبوا أن يبايعوا حتى يقتل قتلة عثمان، أو يسلم إليهم قتلة عثمان، وإن لم يفعل قاتلوه ولم يبايعوه حتى يقتلهم عن آخرهم. فرجع جرير إلى علي فأخبره بما قالوا، فقال

(1) البداية والنهاية (7/ 240، 241).
(2) علي بن أبي طالب، للصَّلابيّ (1/ 498إلى 624).
(3) مروج الذهب (2/ 360).
(4) التاريخ الصغير للبخاري (1/ 102).

الأشتر: ألم أنهك يا أمير المؤمنين أن تبعث جريراً؟ فلو كنت بعثتني لما فتح معاوية باباً إلا أغلقته. فقال له جرير: لو كنت لقتلوك بدم عثمان. فقال الأشتر: والله لو بعثتني لم يعنني جواب معاوية ولأعجلته عن الفكرة ولو أطاعني فيك أمير المؤمنين، لحبسك وأمثالك حتى يستقيم أمر هذه الأمّة. فقام جرير مغضباً فأقام بقرقيسياء وكتب إلى معاوية يخبره بما قال وقيل له، فكتب إليه معاوية يأمره بالقدوم عليه[1]. وهكذا كان الأشتر سبباً في إبعاد الصحابي جرير ابن عبد الله، الذي كان والياً على قرقيسياء وعلى غيرها ورأساً في قبيلته بجيلة، ويضطره إلى مفارقة أمير المؤمنين علي، وهذا الصحابي جرير بن عبد الله البجلي قال: ما رآني رسول الله ﷺ إلا تبسم في وجهي، وقال ﷺ: «يطلع عليكم من هذا الباب رجل من خير ذي يمن، على وجهه مسحة مَلَكٍ»[2].

6 - مسيرة أمير المؤمنين علي إلى الشام:

استعد أمير المؤمنين علي لغزو الشام، فبعث يستنفر الناس، وجهز جيشاً ضخماً اختلفت الروايات في تقديره، وكلها روايات ضعيفة[3]، إلا رواية واحدة حسنة الإسناد ذكرت أنه سار في خمسين ألفاً[4]، وكان مكان تجمع جند أمير المؤمنين بالنخيلة[5]، وهو على ميلين من الكوفة آنذاك فتوافدت عليه القبائل من شتى أقاليم العراق[6]، واستعمل أمير المؤمنين علي ﷺ أبا مسعود الأنصاري، وبعث من النخيلة زياد بن النضر الحارثي طليعة في ثمانية آلاف مقاتل، وبعث شريح بن هاني في أربعة آلاف، ثم خرج علي ﷺ بجيشه إلى المدائن (بغداد) فانضم إليه من فيها من المقاتلة، وولى عليها سعد بن مسعود الثقفي، ووجه منها طليعة في ثلاثة آلاف إلى الموصل[7]، وسلك علي ﷺ طريق الجزيرة الرئيسي على شط الفرات الشرقي حتى بلغ قرب قرقيسياء[8]، فأتته الأخبار بأن معاوية قد خرج لملاقاته وعسكر بصفين، فتقدم علي ﷺ إلى الرقة[9]، وعبر منها الفرات غرباً ونزل على صفين[10].

(1) البداية والنهاية (7/ 265).
(2) مسلم، رقم: 2475.
(3) سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (2/ 630).
(4) تاريخ خليفة، ص: 193 بسند حسن.
(5) النخلة: موقع قرب الكوفة من جهة الشام، معجم البلدان (5/ 278).
(6) خلافة علي بن أبي طالب، لعبد الحميد ص: 188.
(7) تاريخ الطبري (5/ 603) بسند منقطع.
(8) قرقيسياء: بلد يقع على نهر الخابور عند مصبه في الفرات، معجم البلدان (4/ 328).
(9) الرقة: مدينة مشهورة - في سوريا اليوم - على نهر الفرات الشرقي معجم البلدان (3/ 153).
(10) تاريخ الطبري (5/ 604).

7 - خروج معاوية إلى صفين:

كان معاوية جادًا في مطاردة قتلة عثمان ﷺ فقد استطاع أن يترصد بجماعة ممن غزا المدينة من المصريين أثناء عودتهم وقتلهم، ومنهم: أبو عمرو بن بديل الخزاعي[1]، ثم كانت له أيد في مصر، وشيعة في أهل «خربتا» تطالب بدم عثمان ﷺ، وقد استطاعت هذه الفرقة من إيقاع الهزيمة بمحمد بن أبي حذيفة في عدة مواجهات عام 36هـ، كما استطاع أيضاً أن يوقع برؤوس مدبري ومخططي غزو المدينة من المصريين مثل عبد الرحمٰن بن عديس، وكنانة ابن بشر، ومحمد بن حذيفة فحبسهم في فلسطين، وذلك في الفترة التي سبقت خروجه إلى صفين، ثم قتلهم في شهر ذي الحجة عام 36هـ[2]، وعندما علم معاوية بتحرك جيش العراق نحو صفين جمع مستشاريه من أعيان أهل الشام، وخطب فيهم وقال: إن عليًّا نهد إليكم في أهل العراق، . . فقال ذو الكلاع الحميري: عليك أم رأي وعلينا أم فعال[3]. وكان أهل الشام قد بايعوا معاوية على الطلب بدم عثمان ﷺ والقتال[4]، وقد قام عمرو بن العاص ﷺ بتجهيز الجيش وقاد الألوية، وقام في الجيش خطيباً يحرضهم، فقال: إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم وأوهنوا شوكتهم، وفلوا حدهم، ثم إن أهل البصرة المخالفين لعلي قد وترهم وقتلهم، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل، وإنما سار في شرذمة قليلة وممن قد قتل خليفتكم، فالله الله في حقكم أن تضيعوه، وفي دمكم أن تبطلوه[5]. وسار معاوية في جيش ضخم، اختلفت الروايات في تقديره وكلها روايات منقطعة أسانيدها، وهي عين الروايات التي قدرت جيش علي ﷺ، فقدر بمائة ألف وعشرين ألفاً[6]، وقدر بسبعين ألف مقاتل، وقدر بأكثر من ذلك بكثير إلا أن الأقرب للصواب أنهم ستون ألف مقاتل، فهي وإن كانت منقطعة الإسناد لا أن راويها صفوان بن عمرو السكسي، حمصي من أهل الشام ولد عام «72هـ» وهو ثبت ثقة، وقد أدرك خلق ممن شهد صفين، كما تبين من دراسة ترجمته[7]، والإسناد إليه صحيح[8]، وكان قادة جيش معاوية على النحو التالي: عمرو بن العاص، على خيول أهل الشام كلها، والضحاك بن قيس على رجالة الناس

(1) المحن لأبي العرب التميمي، ص: 124، خلافة علي لعبد الحميد، ص: 191.
(2) خلافة علي، لعبد الحميد، ص: 191.
(3) الإصابة (1/ 480) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 192.
(4) أنساب الأشراف (2/ 52) بسند منقطع، وخلافة علي، ص: 192.
(5) تاريخ الطبري (5/ 601) بسند منقطع.
(6) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 194، المعرفة والتاريخ (3/ 313).
(7) سير أعلام النبلاء (6/ 380).
(8) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 194.

كلهم، وذو الكلاع الحميري على ميمنة الجيش، وحبيب بن مسلمة على ميسرة الجيش، وأبو الأعور السلمي على المقدمة، هؤلاء هم القادة الكبار وتحت كل قائد من هؤلاء قادة وزعوا على حسب القبائل، وكان هذا الترتيب عند مسيرهم إلى صفين، ولكن أثناء الحرب تغير بعض القادة وظهر قادة آخرين مما اقتضته الظروف، ولعل هذا يكون السبب في اختلاف أسماء القادة في بعض المصادر[1]. وبعث معاوية أبا الأعور السلمي مقدمة للجيش، وكان خط سيرهم إلى الشمال الشرقي من دمشق، ولما بلغ صفين أسفل الفرات، عسكر في مكان سهل فسيح، إلى جانب شريعة ماء في الفرات، ليس في ذلك المكان شريعة غيرها وجعلها في حيزه[2].

8 - القتال على الماء:

وصل جيش علي بن أبي طالب ﷺ إلى صفين، حيث عسكر معاوية، ولم يجد موضعاً فسيحاً سهلاً يكفي الجيش، فعسكر في موضع وعر نوعاً ما إذ أغلب الأرض صخور ذات كدى وأكمات[3]، ففوجىء جيش العراق بمنع معاوية عنهم الماء، فهرع البعض إلى علي ﷺ يشكون إليه هذا الأمر، فأرسل علي إلى الأشعث بن قيس فخرج في ألفين ودارت أول معركة بين الفريقين، انتصر فيها الأشعث واستولى على الماء[4]. إلا أنه قد وردت رواية تنفي وقوع القتال من أصله مفادها: أن الأشعث بن قيس جاء إلى معاوية فقال: الله الله يا معاوية في أمة محمد ﷺ! هبوا إنكم قتلتم أهل العراق، فمن للبعوث والذراري؟ إن الله يقول: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: 9] قال معاوية: فما تريد؟ قالوا خلوا بيننا وبين الماء، فقال لأبي الأعور: خلِّ بين إخواننا وبين الماء[5]، وقد كان القتال على الماء في أول يوم تواجها فيه في بداية شهر ذي الحجة فاتحة شر على الطرفين من المسلمين، إذ استمر القتال بينهما متواصلاً طوال هذا الشهر، وكان القتال على شكل كتائب صغيرة، فكان علي ﷺ يخرج من جيشه كتيبة صغيرة يؤمر عليها أميراً، فيقتتلان مرة واحدة في اليوم في الغداة أو العشي، وفي بعض الأحيان يقتتلان مرتين في اليوم، وكان أغلب من يخرج من أمراء الكتائب في جيش علي: الأشتر، وحجر بن عدي وشبث بن ربعي، وخالد بن المعتمر، ومعقل بن يسار الرياحي، ومن جيش معاوية أغلب من يخرج: حبيب بن مسلمة، وعبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وأبو الأعور السلمي، وشرحبيل

(1) امتداد العرب في صدر الإسلام، صالح العلي، خلافة علي، ص: 194.
(2) صفين لنصر بن مزاحم، ص: 160 - 161.
(3) خلافة علي بن أبي طالب، لعبد الحميد، ص: 196.
(4) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 294) بسند حسن.
(5) سير أعلام النبلاء (2/ 41) مرويات أبي مخنف، ص: 296.

بن السمط وقد تجنبوا القتال بكامل الجيش خشية الهلاك والاستئصال، وأملاً في وقوع صلح بين الطرفين تصان به الأرواح والدماء[1].

9 - الموادعة بينهما ومحاولات الصلح:

ما إن دخل شهر المحرم، حتى بادر الفريقان إلى الموادعة والهدنة، طمعاً في صلح يحفظ دماء المسلمين، فاستغلوا هذا الشهر في المراسلات بينهم ولكن المعلومات عن مراسلات هذه الفترة - شهر المحرم - وردت من طرق ضعيفة[2] مشهورة، إلا أن ضعفها لا ينفي وجودها. كان البادىء بالمراسلة، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، فأرسل بشير بن عمرو الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعي التميمي إلى معاوية ﷺ يدعوه كما دعاه من قبل إلى الدخول في الجماعة والمبايعة فرد معاوية عليه برده السابق المعروف، بتسليم قتلة عثمان أو القود منهم أولاً، ثم يدخل في البيعة، وقد تبين لنا موقف علي من هذه القضية[3]، كما أن قُرَّاء الفريقين قد عسكروا في ناحية من صفين، وهم عدد كبير، قد قاموا بمحاولات للصلح بينهما، فلم تنج تلك المحاولات لالتزام كل فريق منهما برأيه وموقفه[4]، وقد حاول اثنان من الصحابة وهما أبو الدرداء وأبو أمامة ﷺ الصلح بين الفريقين، فلم تنجح مهمتهما، فتركا الفريقين ولم يشهدا معهما أمرهما[5]، وكذلك حضر مسروق بن الأجدع أحد كبار التابعين وخطب الناس في محاولة منه لرأب الصدع بينهم فقال: أيها الناس أنصتوا ثم قال: أرأيتم لو أن منادياً ناداكم من السماء فسمعتم كلامه ورأيتموه فقال: إن الله ينهاكم عما أنتم فيه، أكنتم مطيعيه، قالوا: نعم قال: فوالله لقد نزل بذلك جبرائيل على محمد. . فما زال يأتي من هذا. ثم تلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: 29]. ثم انساب في الناس فذهب[6]. وقد انتقد ابن كثير التفصيلات الطويلة التي جاءت في روايات أبي مخنف ونصر بن مزاحم، بخصوص المراسلات بين الطرفين فقال: . . . ثم ذكر أهل السير كلاماً طويلاً جرى بينهم وبين علي، وفي صحة ذلك عنهم وعنه نظر، فإن في مطاوي ذلك الكلام من علي ما ينتقص فيه معاوية وأباه، وأنهم إنما دخلوا في الإسلام ولم يزالا في تردد فيه، وغير ذلك وأنه قال في غضون ذلك: لا أقول إن عثمان قُتل مظلوماً ولا ظالماً،

---

(1) خلافة علي بن أبي طالب، لعبد الحميد، ص: 197، 198، تاريخ الطبري (5/ 614)، البداية والنهاية (7/ 266).

(2) تاريخ الطبري (5/ 612، 613) خلافة علي بن أبي طالب، ص: 119.

(3) تاريخ الطبري (5/ 613) خلافة علي بن أبي طالب، ص: 199.

(4) المصدر نفسه (5/ 614).

(5) البداية والنهاية (7/ 270).

(6) الطبقات (6/ 78)، القراء دورهم في الحياة العامة في صدر الإسلام والخلافة الأموية، هادي حسين حمود.

وهذا عندي لا يصح من علي ﷺ [1]. وموقف علي ﷺ من قتل عثمان ﷺ واضح، وقد بينته في كتابي عن عثمان بن عفان ﷺ وفي هذا الكتاب.

ثالثاً: نشوب القتال:

عادت الحرب على ما كانت عليه في شهر ذي الحجة من قتال الكتائب والفرق والمبارزات الفردية، خشية الالتحام الكلي إلى أن مضى الأسبوع الأول منه، وكان عدد الوقعات الحربية بين الفريقين إلى هذا التاريخ أكثر من سبعين وقعة وذكر أنها تسعون[2]، إلا أن علياً أعلن في جيشه أن غداً الأربعاء سيكون الالتحام الكلي لجميع الجيش، ثم نبذ إلى معاوية يخبره بذلك[3]، فثار الناس في تلك الليلة إلى أسلحتهم يصلحونها ويحدونها وقام عمرو بن العاص بإخراج الأسلحة من المخازن لمن يحتاج من الرجال ممن فل سلاحه، وهو يحرض الناس على الاستبسال في القتال[4]، وبات جميع الجيش في مشاورات وتنظيم للقيادات والألوية[5].

1 - اليوم الأول:

أصبح الجيشان في يوم الأربعاء قد نظمت صفوفهم ووزعوا حسب التوزيع المتبع في المعارك الكبرى، قلب، وميمنة، وميسرة، فكان جيش علي ﷺ على النحو التالي[6]: علي ابن أبي طالب على القلب، وعبد الله بن عباس على الميسرة، وعمّار بن ياسر على الرجالة، ومحمد بن الحنفية حامل الراية وهشام بن عتبة (المرقال) حامل اللواء، والأشعث بن قيس على الميمنة. وأما جيش الشام، فمعاوية في كتيبة الشهباء أصحاب البيض والدروع على تل مرتفع وهو أمير الجيش، وعمرو بن العاص قائد خيل الشام كلها، وذو الكلاع الحميري على الميمنة على أهل اليمن، وحبيب بن مسلمة الفهري على الميسرة على مضر والمخارق بن الصباح الكلاعي حامل اللواء[7]، وتقابلت الجيوش الإسلامية ومن كثرتها قد سدت الأفق، ويقول كعب بن جعيل التغلبي أحد شعراء العرب[8] وذلك عندما رأى الناس في ليلة الأربعاء وقد ثبتوا إلى نبالهم وسيوفهم يصلحونها استعداداً لهذا اليوم:

---

(1) البداية والنهاية (7/ 269).
(2) الأنباء بتواريخ الخلفاء ص: 59، شذرات الذهب (1/ 45).
(3) البداية والنهاية (7/ 273).
(4) سنن سعيد بن منصور (2/ 240) ضعيف.
(5) علي بن أبي طالب للصّلّابي (2/ 635).
(6) تاريخ خليفة بن خياط ص: 193 بسند حسن إلى شاهد عيان.
(7) المصدر نفسه، ص: 193.
(8) الأعلام للزركلي (6/ 180).

أصبحت الأمة في أمر عجب والملك مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب إن غداً تهلك أعلام العرب[1]

وتذكر بعض الروايات الضعيفة أن علياً خطب في جيشه، وحرضهم على الصبر والإقدام والإكثار من ذكر الله[2]، وتذكر أيضاً أن عمرو بن العاص قد استعرض جيشه، وأمرهم بتسوية الصفوف وإقامتها[3]، وهذه الروايات لا يوجد مانع من الأخذ بها، لأن كل قائد يحرض جيشه ويحمسه، ويهتم بكل ما يؤدي به إلى النصر، والتحم الجيشان في قتال عنيف استمر محتدماً إلى غروب الشمس لا يتوقف إلاّ لأداء الصلاة، يصلّي كل فريق في معسكره وبينهما جثث القتلى في الميدان تفصل بينهما، وسأل أحد أفراد جيش عليّ ﷺ حين انصرافه من الصلاة، فقال: ما تقول في قتلانا وقتلاهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: من قتل منا ومنهم يريد وجه الله والدار الآخرة دخل الجنة[4] وقد صبر بعضهم على بعض فلم يغلب أحد أحداً، ولم ير مولياً حتى انتهى ذلك اليوم. وفي المساء خرج علي ﷺ إلى ساحة القتال فنظر إلى أهل الشام، فدعا ربه قائلاً: اللّهم اغفر لي ولهم[5].

2 - اليوم الثاني:

في يوم الخميس تذكر الروايات أن علياً ﷺ قد غلس بصلاة الفجر واستعد للهجوم، وغيّر بعض القيادات، فوضع عبد الله بن بديل الخزاعي على الميمنة بدلاً من الأشعث بن قيس الكندي الذي تحول إلى الميسرة[6]، وزحف الفريقان نحو بعضهما واشتبكوا في قتال عنيف أشد من سابقه، وبدأ أهل العراق في التقدم وأظهروا تفوقاً على أهل الشام واستطاع عبد الله ابن بديل أن يكسر ميسرة معاوية وعليها حبيب بن مسلمة ويتقدم باتجاه كتيبة معاوية (الشهباء) وأظهر شجاعة وحماساً منقطع النظير، وصاحب هذا التقدم الجزئي، تقدم عام لجيش العراق، حتى أن معاوية، قد حدثته نفسه بترك ميدان القتال، إلا أنه صبر وتمثل بقول الشاعر:

أبت لي عفتي وأبى بلائي وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإكراهي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي[7]

(1) البداية والنهاية (7/ 273)، تاريخ الطبري (5/ 626).
(2) تاريخ الطبري (5/ 622) من طريق أبي مخنف.
(3) الطبقات (4/ 255) من طريق الواقدي.
(4) سنن سعيد بن منصور (2/ 344 - 345) بسند ضعيف.
(5) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 297) بسند صحيح.
(6) تاريخ الطبري (5/ 630).
(7) تاريخ الطبري (5/ 636).

واستحث كتيبته الشهباء واستطاعوا قتل عبد الله بن بديل، فأخذ مكانه في قيادة الميمنة الأشتر وتماسك أهل الشام وبايع بعضهم على الموت، وكروا مرة أخرى بشدة وعزيمة وقتل عدد من أبرزهم ذو الكلاع، وحوشب وعبيد الله بن عمر بن الخطاب ﷺ وانقلب الأمر لجيش الشام، وأظهر تقدماً، وبدأ جيش العراق في التراجع، واستحر القتل في أهل العراق وكثرت الجراحات ولما رأى علي جيشه في تراجع، أخذ يناديهم ويحمسهم، وقاتل قتالاً شديداً واتجه إلى القلب حيث ربيعة، فثارت فيهم الحمية وبايعوا أميرهم خالد بن المعمر على الموت وكانوا أهل قتال[1].

وكان عمّار بن ياسر ﷺ قد جاوز الرابعة والتسعين عاماً، وكان يحارب بحماس، يحرض الناس، ويستنهض الهمم ولكنه بعيد كل البعد عن الغلو، فقد سمع رجلاً بجواره يقول: كفر أهل الشام، فنهاه عمار عن ذلك وقال: إنما بغوا علينا، فنحن نقاتلهم لبغيهم، فإلهنا واحد ونبينا واحد وقبلتنا واحدة[2].

ولما رأى عمار ﷺ تقهقر أصحابه، وتقدم خصومه، أخذ يستحثهم ويبين لهم أنهم على الحق ولا يغرنهم ضربات الشاميين الشديدة، فيقول ﷺ: من سره أن تكتنفه الحور العين فليقدم بين الصفين محتسباً، فإني لأرى صفاً يضربكم ضرباً يرتاب منه المبطلون والذي نفسي بيده، لو ضربونا حتى يبلغوا منا سعفات هجر، لعلمنا أنا على الحق وأنهم على الباطل لعلمنا أن مصلحينا على الحق وأنهم على الباطل[3]، ثم أخذ في التقدم، وفي يده الحربة ترعد ـ لكبر سنه ـ ويشتد على حامل الراية هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ويستحثه في التقدم ويرغبه ويطمعه فيما عند الله من النعيم، ويطمع أصحابه أيضاً فيقول: أزفت الجنة وازينت الحور العين، من سره أن تكتنفه الحور العين، فليتقدم بين الصفين محتسباً وكان منظر مؤثر فهو صحابي جليل مهاجري بدري جاوز الرابعة والتسعين يمتلك كل هذا الحماس وهذا العزم والروح المعنوية العالية واليقين الثابت، فكان عاملاً هاماً من عوامل حماس جيش العراق ورفع روحهم المعنوية مما زادهم عنفاً وضراوة وتضحية في القتال حتى استطاعوا أن يحولوا المعركة لصالحهم وتقدم هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وهو يرتجز بقوله:

أعور يبغي أهله مَحَلاً قد عالج الحياة حتى ملاّ
لا بد أن يَفُلّ أو يُفَلاّ[4]

(1) الإصابة (1/ 454)، أنساب الأشراف (2/ 56) بسند حسن إلى قتادة.
(2) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 290) الإسناد حسن لغيره.
(3) مجمع الزوائد (7/ 243)، خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد ص: 219 إسناده حسن.
(4) تاريخ الطبري (5/ 652).

وعمار يقول: تقدم يا هاشم، الجنة تحت ظلال السيوف، والموت في أطراف الأسل[1]، وقد فتحت أبواب السماء وتزينت الحور العين:

اليوم ألقى الأحبة محمّداً وحزبه[2]

وعند غروب الشمس ذلك اليوم الخميس، طلب عمار شربة من لبن ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال لي: «إن آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن»[3]. ثمّ تقدم واستحث معه حامل الراية هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري فلم يرجعا وقتلا[4] رحمهما الله ورضي الله عنهما.

3 - ليلة الهرير ويوم الجمعة:

عادت الحرب في نفس الليلة بشدة واندفاع لم تشهدها الأيام السابقة وكان اندفاع أهل العراق بحماس وروح عالية حتى أزالوا أهل الشام عن أماكنهم، وقاتل أمير المؤمنين علي قتالاً شديداً وبايع على الموت[5]، وذكر أن علياً ﷺ صلى بجيشه المغرب صلاة الخوف[6]، وقال الشافعي: وحفظ عن علي أنه صلى صلاة الخوف ليلة الهرير[7]، يقول شاهد عيان: اقتتلنا ثلاثة أيام وثلاثة ليالي حتى تكسرت الرماح ونفدت السهام، ثم صرنا إلى المسايفة فاجتلدنا بها إلى نصف الليل حتى صرنا نعانق بعضنا بعضاً، ولما صارت السيوف كالمناجل تضاربنا بعمد الحديد فلا تسمع إلا غمغمة وهمهمة القوم ثم ترامينا بالحجارة وتحاثينا بالتراب وتعاضينا بالأسنان وتكادمنا بالأفواه، إلى أن أصبحوا في يوم الجمعة وارتفعت الشمس وإن كانت لا ترى من غبار المعركة وسقطت الألوية والرايات وأنهك الجيش التعب وكلت الأيدي وجفت الحلوق[8].

ويقول ابن كثير في وصف ليلة الهرير ويوم الجمعة: وتعاضوا بالأسنان يقتل الرجلان حتى يثخنا ثم يجلسان يستريحان وكل واحد منهما ليهمر على الآخر، ويهمر عليه ثم يقومان فيقتتلان كما كانا فإنا لله وإنا إليه لراجعون ولم يزل ذلك دأبهم حتى أصبح الناس من يوم الجمعة وهم كذلك وصلى الناس الصبح إيماؤهم في القتال حتى تضاحا النهار وتوجه النصر لأهل العراق على أهل الشام[9].

---

(1) الأسل: الرماح.

(2) تاريخ الطبري (5/ 652).

(3) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 302، 303). بسند منقطع.

(4) تاريخ الطبري (5/ 652).

(5) المستدرك (3/ 402) قال الذهبي ضعيف، خلافة علي، ص: 226.

(6) سنن الكبرى للبيهقي (3/ 252) قال الألباني رواه البيهقي بصيغة التمريض إرواء الغليل (3/ 42).

(7) تلخيص الحبير (2/ 78)، خلافة علي بن أبي طالب، ص: 227.

(8) شذرات الذهب (1/ 45)، وقعة صفين، ص: 369.

(9) البداية والنهاية (7/ 283).

4 - الدعوة إلى التحكيم:

إن ما وصل إليه حال الجيشين بعد ليلة الهرير لم يكن يحتمل مزيد قتال، وجاءت خطبة الأشعث بن قيس زعيم كندة أصحابه ليلة الهرير فقال: قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي، وما قد فني فيه من العرب، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ، فما رأيت مثل هذا قط، ألا فليبلغ الشاهد الغائب، إن نحن توافقنا غداً إنه لفناء العرب، وضيعة الحرمان، أما والله ما أقول هذه المقالة جزعاً من الحرب، ولكنّي رجل مسن، وأخاف على النساء والذراري غداً إذا نحن فنينا، اللّهم إنك تعلم أني قد نظرت لقومي ولأهل ديني فلم آلُ[1].

وجاء خبر ذلك إلى معاوية فقال: أصاب ورب الكعبة، لئن نحن التقينا غداً لتميلين الروم على ذرارينا ونسائنا ولتميلين أهل فارس على أهل العراق وذراريهم إنما يبصر هذا ذوو الأحلام والنهى، ثم قال لأصحابه: اربطوا المصاحف على أطراف القنا[2]، وهذه رواية عراقية لا ذكر فيها لعمرو بن العاص ولا للمخادعة والاحتيال وإنما كانت رغبة كلا الفريقين، ولن يضير معاوية أو عمرو بشيء أن تأتي أحدهم الشجاعة فيبادر بذلك وينقذ ما تبقّى من قوى الأمة المتصارعة، إنما يزعج ذلك أعداء الأمة الذين أشعلوا نيران هذه الفتنة، وتركوا لنا ركاماً من الروايات المضللة بشأنها، تحيل الحق باطلاً، وتجعل الفضل ـ كالمناداة بتحكيم القرآن لصون الدماء المسلمة ـ جريمة ومؤامرة[3] وحيلة، ونسبوا لأمير المؤمنين علي أقوالاً مكذوبة تعارض ما في الصحيح على أنه قال: (إنهم ما رفعوها، ثم لا يرفعونها، ولا يعملون بما فيها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهناً ومكيدة)[4]، ومن الشنائع قولهم عن رفع المصاحف: إنها مشورة ابن العاهرة[5]، ووسّعوا دائرة الدعاية المضادة على عمرو بن العاص ﷺ حتى لم تعد تجد كتاباً من كتب التاريخ إلا فيه انتقاص لعمرو بن العاص وأنه مخادع وماكر بسبب الروايات الموضوعة التي لفقها أعداء الصحابة الكرام، ونقلها الطبري، وابن الأثير وغيرهم، فوقع فيها كثير من المؤرخين المعاصرين مثل حسن إبراهيم حسن في تاريخ الإسلام، ومحمد الخضري بك في تاريخ الدولة الأموية، وعبد الوهاب النجار في تاريخ الخلفاء الراشدون وغيرهم كثير، مما ساهم في تشويه الحقائق التاريخية الناصعة.

إن رواية أبي مخنف تفترض أن علياً رفض تحكيم القرآن لما اقترحه أهل الشام، ثم

(1) وقعة صفين للمنقري، ص: 479.
(2) المصدر نفسه، ص: (481 - 884).
(3) الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص: 316.
(4) الكامل (2/ 386).
(5) المصدر نفسه (5/ 662، 663).

استجاب بعد ذلك له تحت ضغط القراء الذين عرفوا بالخوارج فيما بعد[1]، وهذه الرواية تحمل سباً من علي لمعاوية وصحبه، يتنزه عنه أهل ذاك الجيل المبارك فكيف بساداتهم وعلى رأسهم أمير المؤمنين علي، ويكفي للرواية سقوطاً أن فيها أبا مخنف الرافضي المحترق، فهي رواية لا تصمد للبحث النزيه ولا ما يرويه الإمام أحمد بن حنبل عن طريق حبيب بن أبي ثابت قال: أتيت أبا وائل ـ أحد رجال علي بن أبي طالب ـ فقال: كنا بصفين، فلما استحر القتل بأهل الشام قال عمرو لمعاوية: أرسل إلى علي المصحف، فادعه إلى كتاب الله، فإنه لا يأبى عليك، فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: 23]. فقال علي: نعم، أنا أولى بذلك، فقام القُراء الذين صاروا بعد ذلك خوارج، بأسيافهم على عواتقهم فقالوا: يا أمير المؤمنين ألا تمشي إلى هؤلاء حتى يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقام سهل بن حنيف الأنصاري ﷺ فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين، ثم حدثهم عن معارضة عمر ﷺ للصلح يوم الحديبية ونزول سورة الفتح على رسول الله ﷺ فقال علي: أيها الناس إن هذا فتح، فقبل القضية ورجع، ورجع الناس[2]. وأظهر سهل بن حنيف ﷺ اشمئزازاً ممن يدعون إلى استمرار الحرب بين الإخوة وقال: أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم[3]، وبيّن لهم بأنه لا خيار عن الحوار والصلح لأن ما سواه فتنة لا تعرف عواقبها، فقد قال: ما وضعنا سيوفنا على عواتقنا إلى أمر إلا أسهلن بنا إلى ما نعرفه قبل هذا الأمر، ما سد منها خُصماً إلا تفجر علينا خُصم ما ندري كيف نأتي له[4]، وفي هذه الروايات الصحيحة رد على دعاة الفتنة ومبغضي الصحابة، الذين يضعون الأخبار المكذوبة، ويضعون الأشعار وينسبونها إلى أعلام الصحابة والتابعين الذين شاركوا في صفين، ليظهروهم بمظهر المتحمس لتلك الحرب ليزرعوا البغضاء في النفوس ويعملوا ما في وسعهم على استمرار الفتنة[5]، إن الدعوة إلى تحكيم كتاب الله دون التأكيد على تسليم قتلة عثمان إلى معاوية وقبول التحكيم دون التأكيد على دخول معاوية في طاعة علي والبيعة له، تطور فرضته أحداث حرب صفين، إذ أن الحرب التي أودت بحياة الكثير من المسلمين، أبرزت اتجاهاً جماعياً رأى أن وقف القتال وحقن الدماء ضرورة تقتضيها حماية شوكة الأمة وصيانة قوتها أمام عدوها، وهو دليل على حيوية الأمة ووعيها وأثرها في اتخاذ القرارات[6].

---

(1) المصدر نفسه (5/ 662، 663).

(2) مصنف أبي شيبة (8/ 336)، مسند أحمد مع الفتح الرباني (8/ 483).

(3) البخاري، رقم 4189.

(4) البخاري، رقم 4189.

(5) الأنصاف فيما وقع في تاريخ العصر الراشدي من الخلاف، ص: 530.

(6) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 38.

إن أمير المؤمنين علي ﷺ قبل وقف القتال في صفين ورضي التحكيم وعدَّ ذلك فتحاً ورجع[1] إلى الكوفة، وعلق على التحكيم آمالاً في إزالة الخلاف وجمع الكلمة، ووحدة الصف، وتقوية الدولة، وإعادة حركة الفتوح من جديد.

إن وصول الطرفين إلى فكرة التحكيم ساهمت عدة عوامل به للتحكيم منها:

أ - أنه كان آخر محاولة من المحاولات التي بذلت لإيقاف الصدام وحقن الدماء سواء تلك المحاولات الجماعية، أم المحاولات الفردية التي بدأت بعد موقعة الجمل ولم تفلح، أما الرسائل التي تبودلت بين الطرفين لتنفيذ وجهات نظر كل منهما، ولم تُجْدِ - هي الأخرى - شيئاً، وكان آخر تلك المحاولات ما قام به معاوية في أيام اشتداد القتال حيث كتب إلى علي ﷺ يطالبه بتوقف القتال فقال: فإني أحسبك أن لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بك ما بلغت، لم نجنها على أنفسنا، فإنا إن كنا قد غُلبنا على عقولنا فقد بقي لنا منا ما ينبغي أن تندم على ما مضى ونصلح ما بقي[2].

ب - تساقط القتلى وإراقة الدماء الغزيرة ومخافة الفناء، فصارت الدعوة إلى إيقاف الحرب مطلباً يرنو إليه الجميع.

جـ - الملل الذي أصاب الناس من طول القتال، حتى وكأنهم على موعد لهذا الصوت الذي نادى بالهدنة والصلح، وكانت أغلبية جيش علي في اتجاه الموادعة وكانوا يرددون: قد أكلتنا الحرب، ولا نرى البقاء إلا في الموادعة[3]. وهذا ينقض ذلك الرأي المتهافت الذي رُوِّج بأن رفع المصاحف كان خدعة من عمرو بن العاص. والحق أن فكرة رفع المصاحف لم تكن جديدة وليست من ابتكار عمرو بن العاص، بل رفع المصحف في الجمل ورشق حامله - كعب بن سور قاضي البصرة - بسهم وقتل.

د - الاستجابة لصوت الوحي الداعي للإصلاح قال تعالى ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: 59] ويؤيد هذا ما قاله علي بن أبي طالب حينما عرض عليه الاحتكام إلى كتاب الله قال: نعم أنا أولى بذلك بيننا وبينكم كتاب الله[4].

5 - مقتل عمّار بن ياسر ﷺ وأثره على المسلمين:

يعد حديث رسول الله ﷺ لعمّار ﷺ: «تقتلك الفئة الباغية»[5] من الأحاديث الصحيحة

(1) المصدر نفسه رقم 2916.
(2) الأخبار الطوال للدينوري، ص: 187، دراسات في عهد النبوة، ص: 432.
(3) صفين، ص: 482 - 485، دراسات في عهد النبوة، ص: 433.
(4) مصنف ابن أبي شيبة (8/ 336).
(5) مسلم رقم 2916.

والثابتة عن النبي ﷺ. وقد كان لمقتل عمّار ﷺ أثر في معركة صفين، فقد كان علماً لأصحاب رسول الله يتبعونه حيث سار وكان خزيمة بن ثابت حضر صفين وكان كافاً سلاحه، فلما رأى مقتل عمّار سل سيفه وقاتل أهل الشام، وذلك لأنه سمع حديث رسول الله ﷺ في عمّار: «تقتله الفئة الباغية»[1]، واستمر في القتال حتى قتل[2]، وكان لمقتل عمّار أثر في معسكر معاوية، فهذا أبو عبد الرحمٰن السلمي دخل في معسكر أهل الشام، فرأى معاوية وعمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو، وأبو الأعور السلمي، عند شرعة الماء يسقون وكانت هي شربة الماء الوحيدة التي يستقي منها الفريقان، وكان حديثهم عن مقتل عمّار بن ياسر، إذ قال عبد الله بن عمرو لوالده: لقد قتلنا هذا الرجل وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال، قال: وأي رجل؟ قال: عمّار بن ياسر.. قال فيه رسول الله ﷺ: «تقتله الفئة الباغية». فقال عمرو لمعاوية لقد قتلنا الرجل وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال! فقال معاوية: اسكت فوالله ما تزال تدحض[3] في بولك أنحن قتلناه؟ إنما قتله من جاء به[4]، فانتشر تأويل معاوية بين أهل الشام انتشار النار في الهشيم، وجاء في رواية صحيحة أن عمرو بن حزم دخل على عمرو بن العاص فقال: قتل عمار وقد قال فيه رسول الله ﷺ: «تقتله الفئة الباغية». فقام عمرو بن العاص فزعاً يرجع حتى دخل على معاوية، فقال له معاوية: ما شأنك؟ فقال: قتل عمار، فقال معاوية: قتل عمار فماذا؟ قال عمرو: سمعت رسول الله ﷺ يقول له: «تقتلك الفئة الباغية» فقال له معاوية: دحضت في بولك، أو نحن قتلناه؟ إنما قتله علي وأصحابه، جاءوا به حتى ألقوه بين رماحنا، أو قال بين سيوفنا[5]. وفي رواية صحيحة أيضاً: جاء رجلان عند معاوية يختصمان في رأس عمار يقول كل واحد منهما: أنه قتله، فقال عبد الله بن عمرو بن العاص: ليطلب به أحدكما نفساً لصاحبه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئة الباغية». قال معاوية: فما بالك معنا؟ قال: إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ فقال: «أطع أباك ما دام حياً ولا تعصه». فأنا معكم ولست أقاتل[6].

من الروايات السابقة نلاحظ أن الصحابي الفقيه عبد الله بن عمرو ﷺ حريص على قول الحق، والنصح، فقد رأى أن معاوية وجنده، هم الفرقة الباغية لقتلهم عماراً، فقد تكرر منه هذا الاستنكار في مناسبات مختلفة، ولا شك أن مقتل عمار ﷺ قد أثر في أهل الشام بسبب

(1) مسلم 2916.
(2) خلافة علي، ص: 211.
(3) الدحض الزلق، والداحض لمن لا ثبات له ولا عزيمة في الأمور.
(4) مسند أحمد (2/ 206) إسناده حسن.
(5) مصنف عبد الرزاق (11/ 240) بسند صحيح.
(6) مسند أحمد (11/ 138 - 139) قال أحمد شاكر: سنده صحيح.

هذا الحديث، إلا أن معاوية ﷺ أوّل الحديث تأويلاً غير مستساغ ولا يصح في أن الذين قتلوا عمار، هم الذين جاءوا به إلى القتال[1]، وقد أثر مقتل عمار كذلك على عمرو بن العاص، بل كان استشهاد عمار دافعاً لعمرو بن العاص للسعي لإنهاء الحرب[2]، وقد قال ﷺ: وددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة[3]، وقد جاء في البخاري عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كنا نحمل لبنة لبنة وعمّار لبنتين لبنتين، فرآه النبي ﷺ، فينفض التراب عنه ويقول: «**ويح عمّار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار**». قال عمّار: أعوذ بالله من الفتن[4]، وقال ابن عبد البر: تواترت الآثار عن النبي ﷺ أنه قال: «**تقتل عمار الفئة الباغية**»، وهذا من إخباره بالغيب وأعلام نبوته ﷺ، وهو من أصح الأحاديث[5]، وقال الذهبي بعد ما ذكر الحديث: وفي الباب عن عدة من الصحابة، فهو متواتر[6].

* **- فهم العلماء للحديث:**

أ ـ قال ابن حجر: وفي هذا الحديث علم من أعلام النبوة، وفضيلة ظاهرة لعلي وعمار، وردٌّ على النواصب الزاعمين أن علياً لم يكن مصيباً في حروبه[7]، وقال أيضاً: دل الحديث: «**تقتل عماراً الفئة الباغية**»، على أن علياً كان المصيب في تلك الحروب، لأن أصحاب معاوية قتلوه[8].

ب ـ يقول النووي: وكانت الصحابة يوم صفين يتبعونه حيث توجه لعلمهم بأنه مع الفئة العادلة، لهذا الحديث[9].

ج ـ قال ابن كثير: كان علي وأصحابه أدنى الطائفتين إلى الحق من أصحاب معاوية، وأصحاب معاوية كانوا باغين عليهم، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث شعبة عن أبي سلمة عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري، قال: حدثني من هو خير مني ـ يعني أبا قتادة ـ أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «**تقتلك الفئة الباغية**»[10]. وقال أيضاً: وهذا مقتل عمار بن

(1) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 325.
(2) معاوية بن أبي سفيان، الغضبان، ص: 215.
(3) أنساب الأشراف (1/ 170)، عمرو بن العاص للغضبان، ص: 603.
(4) البخاري رقم 447.
(5) الاستيعاب (3/ 1140).
(6) سير أعلام النبلاء (1/ 421).
(7) فتح الباري (1/ 646).
(8) فتح الباري (13/ 92).
(9) تهذيب الأسماء واللغات (2/ 38).
(10) البداية والنهاية (6/ 220).

ياسر ﷺ مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، قتله أهل الشام، وبان وظهر بذلك سرٌّ ما أخبر به الرسول ﷺ من أن تقتله الفئة الباغية، وبان بذلك أن علياً محق، وأن معاوية باغ، وما في ذلك من دلائل النبوة[1].

د ـ وقال الذهبي: هم طائفة من المؤمنين، بغت على الإمام علي، وذلك بنص قول المصطفى صلوات الله عليه لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»[2].

هـ ـ قال القاضي أبو بكر بن العربي: في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾ [الحجرات: 9]، هذه الآية أصل في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأولين، وعليها عوّل الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من هذه الملة، وإياها عنى النبي ﷺ بقوله: «تقتل عمار الفئة الباغية»[3].

و ـ وقال ابن تيمية: وهذا يدل على صحة إمامة علي ووجوب طاعته، وأن الداعي إلى طاعته داع إلى الجنة، والداعي إلى مقاتلته داعٍ إلى النار ـ وإن كان متأولاً ـ وهو دليل على أنه لم يكن يجوز قتال علي، وعلي هذا فمقاتله مخطئ ـ وإن كان متأولاً ـ أو باغ ـ بلا تأويل ـ وهو أصح القولين لأصحابنا، وهو الحكم بتخطئة من قاتل علياً، وهو مذهب الأئمة الفقهاء الذين فرعوا على ذلك قتال البغاة المتأولين[4]. وقال أيضاً: مع أن علياً أولى بالحق ممن فارقه، ومع أن عمار قتله الفئة الباغية ـ كما جاءت به النصوص ـ فعلينا أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله ونقر بالحق كله، ولا يكون لنا هوى، ولا نتكلم بغير علم، بل نسلك سبل العلم والعدل، وذلك هو اتباع الكتاب والسنة، فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض، فهذا منشأ الفرقة والاختلاف[5].

ز ـ وقال عبد العزيز بن باز: وقال ﷺ في حديث عمار: «تقتل عمار الفئة الباغية»: فقتله معاوية وأصحابه في وقعة صفين، فمعاوية وأصحابه بغاة، لكن مجتهدون ظنوا أنهم مصيبون في المطالبة بدم عثمان[6].

ح ـ وقال سعيد حوّا: بعد أن قتل عمار الذي وردت النصوص مبينة أنه تقتله الفئة الباغية، تبين للمترددين أن علياً كان على حق وأن القتال معه كان واجباً ولذا عبّر ابن عمر عن تخلّفه بأنه يأس بسبب هذا التخلف، وما ذلك إلا أنه ترك واجباً وهو نصرة الإمام الحق على الخارجين عليه بغير حق كما أفتى بذلك الفقهاء[7].

---

(1) البداية والنهاية (7/ 277).
(2) سير أعلام النبلاء (8/ 209).
(3) أحكام القرآن (4/ 1717).
(4) مجموع الفتاوى (4/ 437).
(5) المصدر نفسه (4/ 449 - 450).
(6) فتاوى ومقالات متنوعة (6/ 87).
(7) الأساس في السنة (4/ 1710).

★ ـــ الرد على قول معاوية ﷺ : إنما قتله من جاء به[1]:

إن جل الصحابة والتابعين قد فهموا من قول رسول الله ﷺ لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»[2]، إن المقصود جيش معاوية ﷺ، مع أنهم معذورون في اجتهادهم فهم يقصدون الحق ويريدونه، ولكنهم لم يصيبوه، وفئة علي أولى بالحق منهم كما قال ﷺ[3]، ومع أن الأئمة لم يعجبهم تأويل معاوية ـ كما سأنقل ـ إلا أنهم عذروه في اجتهاده، فها هو ابن حجر يقول في قوله ﷺ: «يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»[4]. فإن قيل: كان قتله بصفين وهو مع علي، والذين قتلوه مع معاوية، وكان معه جماعة من الصحابة، فكيف يجوز عليهم الدعاء إلى النار؟ فالجواب: أنهم كانوا ظانين أنهم يدعون إلى الجنة، وهم مجتهدون لا لوم عليهم في اتباع ظنونهم، فالمراد بالدعاء إلى الجنة الدعاء إلى سببها، وهو طاعة الإمام وكذلك معذورون للتأويل الذي ظهر لهم[5].

وقال القرطبي: وقال الإمام أبو المعالي في كتاب الإرشاد، فصل: علي ﷺ، كان إماماً حقاً في توليته، ومقاتلوه بغاة، وحسن الظن بهم يقتضي أن يظن بهم قصد الخير وإن أخطأوه[6]، وقال أيضاً: وقد أجاب علي ﷺ عن قول معاوية بأن قال: فرسول الله ﷺ إذن قتل حمزة حين أخرجه، وهذا من علي ﷺ إلزام، لا جواب عنه، وحجة لا اعتراض عليها، قاله الإمام الحافظ أبو الخطاب ابن دحية[7]، وقال ابن كثير: فقول معاوية: إنما قتله من قدمه إلى سيوفنا، تأويل بعيد جداً، إذ لو كان كذلك لكان أمير الجيش هو القاتل للذين يقتلون في سبيل الله، حيث قدمهم إلى سيوف الأعداء[8]، وقال ابن تيمية: وهذا القول لا أعلم له قائلاً من أصحاب الأئمة الأربعة ونحوهم من أهل السنة، ولكن هو قول كثير من المروانية ومن وافقهم[9]، وقال ابن القيم معلقاً على هذا التأويل: نعم التأويل الباطل تأويل أهل الشام قوله ﷺ لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»[10]، فقالوا: نحن لم نقتله إنما قتله من جاء به حتى أوقعه بين رماحنا، فهذا هو التأويل الباطل المخالف لحقيقة اللفظ وظاهره، فإن الذي قتله هو الذي قتله، لا من استنصر به[11].

6 – من هو قاتل عمّار بن ياسر؟

قال أبو الغادية الجهني وهو يحدث عن قتله لعمار: فلما كان يوم صفين، أقبل يستن أول

---

(1) مسند أحمد (2/ 206) إسناده حسن.
(2) مسلم رقم 2916.
(3) معاوية بن أبي سفيان، ص: 210 – 214.
(4) البخاري رقم 447.
(5) فتح الباري (1/ 645).
(6) التذكرة (2/ 222).
(7) التذكرة (2/ 223).
(8) البداية والنهاية (6/ 221).
(9) منهاج السنة (4/ 406).
(10) مسلم رقم 2916.
(11) الصواعق المرسلة (1/ 184، 185).

الكتيبة رَجِلاً، حتى إذا كان بين الصفين فأبصر رجلٌ عورة، فطعنه في ركبته بالرمح فعثر، فانكشف المغفر عنه، فضربته فإذا هو رأس عمار. ثم قتل عماراً، واستسقى أبو غادية/ فأتي بماء في زجاج، فأبى أن يشرب فيها، فأتي بماء في قدح فشرب، فقال رجل: . . . يتورع عن الشرب في الزجاج ولم يتورع عن قتل عمار[1]، ويخبر عمرو بن العاص ﷺ الخبر فيقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قاتل عمار وسالبه في النار»[2]. قال ابن كثير ومعلوم أن عماراً كان في جيش علي يوم صفين، وقتله أصحاب معاوية من أهل الشام، وكان الذي تولى قتله يقال له «أبو الغادية»، رجل من أفناد الناس، وقيل إنه صحابي[3]، وقال ابن حجر: والظن بالصحابة في تلك الحروب أنهم كانوا متأولين للمجتهد المخطىء أجر، وإذا ثبت هذا في حق آحاد الناس فثبوته للصحابة بالطريق الأولى[4]، وقال الذهبي: وابن ملجم عند الروافض أشقى الخلق في الآخرة، وهو عندنا أهل السنة ممن نرجو له النار، ونجوّز أن الله يتجاوز عنه، لا كما يقول الخوارج والروافض، وحكمه حكم قاتل عثمان، وقاتل الزبير، وقاتل طلحة، وقاتل سعيد بن جبير، وقاتل عمار وقاتل خارجة، وقاتل الحسين، فكل هؤلاء نبرأ منهم ونبغضهم في الله، ونكل أمورهم إلى الله ﷻ[5]، وقد وفق الألباني في تعليقه على قول ابن حجر: هذا حق، لكن تطبيقه على كل فرد من أفرادهم مشكل، لأنه يلزم تناقض القاعدة المذكورة بمثل حديث الترجمة، أي (قاتل عمار وسالبه في النار)[6]، إذ لا يمكن القول بأن أبا غادية القاتل لعمار مأجور، لأنه قتله مجتهداً، ورسول الله ﷺ يقول: «قاتل عمار في النار»[7]، فالصواب أن يقال: إن القاعدة صحيحة، إلا ما دل الدليل القاطع على خلافها، فيستثنى ذلك منها كما هو الشأن هنا، وهذا خير من ضرب الحديث الصحيح بها[8]. وقد ترجم لأبي الغادية الجهني ابن عبد البر فقال: اختلف في اسمه، فقيل: يسار بن سَبُع وقيل يسار بن أزهر، وقيل إن اسمه مسلم. سكن الشام ونزل في واسط، يعدُّ في الشاميين أدرك النبي ﷺ وهو غلام، رُوي عنه أنه قال: أدركت النبي ﷺ وأنا أيفع، أرد على أهلي الغنم، وله سماع من النبي ﷺ قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[9]، وكان محباً لعثمان، وهو قاتل عمار بن ياسر، وكان يصف قتله إذا سئل عنه لا يباليه وفي قصته عجبٌ عند أهل العلم[10].

---

(1) الطبقات الكبرى (3/ 260، 261).
(2) السلسلة الصحيحة (5/ 18 - 19).
(3) البداية والنهاية (6/ 220).
(4) الإصابة (7/ 260).
(5) تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين، ص: 654.
(6) السلسلة الصحيحة (5/ 18 - 19).
(7) المصدر نفسه (5/ 18 - 19).
(8) المصدر نفسه (5/ 19).
(9) مسند أحمد (4/ 76) وسنده حسن.
(10) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، رقم3089.

7 - المعاملة الكريمة أثناء الحرب والمواجهة:

إن وقعة صفين كانت من أعجب الوقائع بين المسلمين.. كانت هذه الوقعات من الغرابة إلى حد أن القارئ لا يصدق ما يقرأ ويقف مشدوهاً أمام طبيعة النفوس عند الطرفين، فكل منهم كان يقف وسط المعركة شاهراً سيفه وهو يؤمن بقضيته إيماناً كاملاً، فليست معركة مدفوعة من قبل القيادة يدفعون الجنود إلى معركة غير مقتنعين بها، بل كانت معركة مدفوعة من قبل القيادة، معركة فريدة في بواعثها وفي طريقة أدائها وفيما خلفتها من آثار فبواعثها في نفوس المشاركين يعبر عنها بعض المواقف التي وصلت إلينا في المصادر التاريخية، فهم إخوة يذهبون معاً إلى مكان الماء فيستقون جميعاً ويزدحمون وهم يغرفون الماء وما يؤذي إنسان إنساناً[1]، وهم إخوة يعيشون معاً عندما يتوقف القتال. فهذا أحد المشاركين يقول: كنا إذا تواعدنا من القتال دخل هؤلاء في عسكر هؤلاء وهؤلاء في معسكر هؤلاء.. وتحدثوا إلينا وتحدثنا إليهم[2]، وهم أبناء قبيلة واحدة ولكل منهما اجتهاده، فيقاتل أبناء القبيلة الواحدة كل في طرف[3]، قتالاً مريراً، وكل منهما يرى نفسه على الحق وعنده الاستعداد لأن يُقْتَل من أجله، فكان الرجلان يقتتلان حتى يُثْخِنا (وهناً وضعفاً) ثم يجلسان يستريحان، ويدور بينهما الكلام الكثير، ثم يقومان فيقتتلان كما كانا[4]، وهما أبناء دين واحد يجمعهما، وهو أحب إليهما من أنفسهما، فإذا حان وقت الصلاة توقفوا لأدائها[5]، ويوم قتل عمار بن ياسر صلى عليه الطرفان[6]، ويذكر شاهد عيان اشترك في صفين: تنازلنا بصفين، فاقتتلنا أياماً فكثر القتلى بيننا حتى عقرت الخيل، فبعث علي إلى عمرو بن العاص أن القتلى قد كثروا فأمسك حتى يدفن الجميع قتلاهم فأجابهم، فاختلط بعض القوم ببعض حتى كانوا هكذا - وشبك بين أصابعه -، وكان الرجل من أصحاب علي يشد فيقتل في عسكر معاوية، فيخرج منه، وقد مر أصحاب علي بقتيل لهم أمام عمرو، فلما رآه بكى وقال: لقد كان مجتهداً أخشن في أمر الله[7]. وكانوا يسارعون إلى التناهي عن المنكر حتى في مثل هذه المواقع، فكانت هناك مجموعة عرفوا بالقراء، وكانوا من تلامذة عبد الله بن مسعود من أهل العراق ومن أهل الشام معاً، فلم ينضموا إلى أمير المؤمنين علي، ولا إلى معاوية بن أبي سفيان وقالوا لأمير

(1) تاريخ الطبري (5/ 610)، سير أعلام النبلاء (2/ 41)، مرويات أبي مخنف، ص: 296.
(2) البداية والنهاية (7/ 270)، دراسات في عهد النبوة، ص: 423.
(3) تاريخ الطبري، نقلاً عن دراسات في عهد النبوة، ص: 424.
(4) البداية والنهاية (10/ 272).
(5) تاريخ الطبري، نقلاً عن دراسات في عهد النبوة، ص: 424.
(6) تاريخ دمشق (8/ 233) دراسات في عهد النبوة ص: 424.
(7) أنساب الأشراف (6/ 56) بسند حسن.

المؤمنين: إنا نخرج معكم ولا نترل عسكركم، ونعسكر على حدة حتى ننظر في أمركم وأمر أهل الشام، فمن رأيناه أراد ما لا يحل له، أو بدا منه بغي كنا عليه فقال علي: مرحباً وأهلاً، هذا هو الفقه في الدين، والعلم بالسنة من لم يرضَ بهذا فهو جائر خائن[1]. والحقيقة أن هذه المواقف منبعثة من قناعات واجتهادات استوثقوا منها في قرارة أنفسهم وقاتلوا عليها[2].

٨ - معاملة الأسرى عند أمير المؤمنين علي ﷺ :

إن المعاملة الحسنة للأسير وإكرامه في صفين من الأمور البدهية بعد ما استعرضنا المعاملة الكريمة أثناء القتال، وقد بين الإسلام معاملة الأسرى، فقد حث رسول الله ﷺ على إكرام الأسرى، وإطعامه أفضل الأطعمة الموجودة، هذا مع غير المسلمين فكيف إذا كان الأسير مسلماً، لا شك أن إكرامه والإحسان إليه أولى، ولكن الأسير في هذه المعركة يعتبر فئة وقوة لفرقته[3]، لذلك كان علي ﷺ يأمر بحبسه، فإن بايع أخلى سبيله وإن أبى أخذ سلاحه ودابته أو يهبها لمن أسره ويحلفه إلا يقاتل وفي رواية يعطيه أربعة دراهم[4]وغرض الخليفة الراشد من ذلك واضح، وهو إضعاف جانب البغاة وقد أتي بأسير يوم صفين فقال الأسير: لا تقتلني صبراً، فقال علي ﷺ : لا أقتلك صبراً إني أخاف الله رب العالمين، فخلى سبيله ثمّ قال: أفيك خير تبايع[5].

ويبدو من هذه الروايات أن معاملته للأسرى كما يلي:

- إكرام الأسير والإحسان إليه.
- يعرض عليه البيعة والدخول في الطاعة، فإن بايع أخلى سبيله.
- إن أبى البيعة أخذ سلاحه ويحلفه أن لا يعود للقتال ويطلقه.
- إن أبى إلا القتال تحفظ عليه في الأسر ولا يقتله صبراً[6]. وقد أتي ﷺ مرة بخمسة عشرا أسيراً ويبدو أنهم جرحى، فكان من مات منهم غسله وكفنه وصلى عليه[7]. ويقول محب الدين الخطيب معلقاً على هذه الحرب: ومع ذلك، فإن هذه الحرب المثالية هي الحرب الإنسانية الأولى في التاريخ الذي جرى فيها المتحاربان معاً على مبادئ الفضائل التي يتمنى حكماء الغرب لو يعمل بها في حروبهم ولو في القرن الحادي والعشرين، وإن كثيراً من قواعد

(1) صفين، ص: 115، دراسات في عهد النبوة، ص: 424.
(2) دراسات في عهد النبوة، ص: 424.
(3) كتاب: قتال أهل البغي من الحاوي الكبير، ص: 133، 134.
(4) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 243.
(5) الأم للشافعي (4/ 224) (8/ 256).
(6) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 243.
(7) تاريخ دمشق، تحقيق المنجد (1/ 331)، خلافة علي بن أبي طالب، ص: 243.

الحرب في الإسلام لم تكن لتعلم وتدون لولا وقوع هذه الحرب، ولله في كل أمر حكمة[1]، قال ابن العديم: قلت: وهذا كله حكم أهل البغي، ولهذا قال أبو حنيفة: لولا ما سار علي فيهم، ما علم أحد كيف السيرة في المسلمين[2].

9 - عدد القتلى:

تضاربت أقوال العلماء في عدد القتلى فذكر ابن أبي خيثمة أن القتلى في صفين بلغ عددهم سبعين ألفاً، من أهل العراق خمسة وعشرين ألفاً، ومن أهل الشام خمسة وأربعين ألف مقاتل[3]، كما ذكر ابن القيم أن عدد القتلى في صفين بلغ سبعين ألفاً أو أكثر[4]، ولا شك أن هذه الأرقام غير دقيقة، بل أرقام خيالية، فالقتال الحقيقي والصدام الجماعي استمر ثلاثة أيام مع وقف القتال بالليل إلا مساء الجمعة فيكون مجموع القتال حوالي ثلاثين ساعة[5]، ومهما كان القتال عنيفاً، فلن يفوق شدة القادسية التي كان عدد الشهداء فيها ثمانية آلاف وخمسمائة[6]، وبالتالي يصعب عقلاً أن نقبل تلك الروايات التي ذكرت الأرقام الكبيرة.

10 ـ تفقد أمير المؤمنين عليّ القتلى وترحمه عليهم:

كان أمير المؤمنين علي ﷺ بعد نهاية الجولات الحربية يقوم بتفقد القتلى، فيقول شاهد عيان: رأيت عليّاً على بغلة النبي ﷺ الشهباء، يطوف بين القتلى[7]، وأثناء تفقده القتلى ومعه الأشتر، مر برجل مقتول ـ وهو أحد القضاة والعباد المشهورين بالشام ـ فقال الأشتر ـ وفي رواية أخرى عدي بن حاتم ـ: يا أمير المؤمنين أحابس[8] معهم؟ عهدي والله به مؤمن، فقال علي: فهو اليوم مؤمن، ولعل هذا الرجل المقتول هو القاضي الذي أتى عمر بن الخطاب وقال: ياأمير المؤمنين، رأيت رؤيا أفظعتني، قال: ما هي؟ قال: رأيت الشمس والقمر يقتتلان والنجوم معهما نصفين قال: فمع أيهما كنت؟ قال: مع القمر على الشمس، فقال عمر: قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: 12] فانطلق فوالله لا تعمل لي عملاً أبداً، قال الرواي: فبلغني أنه قتل مع معاوية

(1) العواصم من القواصم، ص: 168 - 169 من تعليق الخطيب في الحاشية.
(2) بغية الطالب في تاريخ حلب (1/ 309)، خلافة علي، ص: 245.
(3) الأنباء للقضاعي، ص: 59 نقلا عن خلافة علي، ص: 245.
(4) الصواعق المرسلة (1/ 377) بدون سند تحقيق محمد دخيل الله.
(5) الدولة الأموية، ص: 360 - 362.
(6) تاريخ الطبري (4/ 388).
(7) مصنف ابن أبي شيبة.
(8) حابس ابن سعد الطائي مخضرم، قتل بصفين.

بصفين[1]، وقد وقف علي على قتلاه وقتلى معاوية فقال: غفر الله لكم، غفر الله لكم، للفريقين جميعاً[2]. وعن يزيد بن الأصم قال: لما وقع الصلح بين علي ومعاوية، خرج علي فمشى في قتلاه فقال: هؤلاء في الجنة ثم خرج إلى قتلى معاوية فقال: هؤلاء في الجنة، ويصير الأمر إليّ وإلى معاوية[3]، وكان يقول عنهم: هم المؤمنون[4]، وقوله ﷺ في صفين لا يكاد يختلف عن قوله في أهل الجمل[5].

11 - موقف لمعاوية مع ملك الروم:

استغل ملك الروم الخلاف الذي وقع بين أمير المؤمنين علي ومعاوية ﷺ وطمع في ضم بعض الأراضي التي تحت هيمنة معاوية إليه، قال ابن كثير: . . وطمع في معاوية ملك الروم بعد أن كان أخشاه وأذله، وقهر جندهم ودحاهم، فلم رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب علي، تداعى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة وطمع فيه، فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين لأصطلحن أنا وابن عمي عليك ولأخرجنك من جميع بلادك ولأضيقنّ عليك الأرض بما رحبت. فعند ذلك خاف ملك الروم وانكف، وبعث يطلب الهدنة[6]. وهذا الأثر يدل على أن الخلاف الذي بينه وبين علي ﷺ لن يبقى لحظة واحدة فيما لو تعرض أمن الدولة الإسلامية في الشام للخطر، ولولا أن الروم يعلمون أن هذه الخلافات قابلة للنسيان المطلق، ما أخذوا تحذير معاوية مأخذ الجد وكفوا أيديهم[7].

12 - قصة باطلة في حق عمرو بن العاص بصفين:

قال نصر بن مزاحم الكوفي: وحمل أهل العراق وتلقّاهم أهل الشام فاجتلدوا وحمل عمرو بن العاص. . . . فاعترضه علي وهو يقول:

قد علمت ذات القرون الميل والخضر والأنامل الطفول[8]

إلى أن يقول: ثم طعنه فصرعه وانتقاء عمرو برجله، فبدت عورته، فصرف علي وجهه عنه وارتُثَّ. فقال القوم: أفلتَ الرجل يا أمير المؤمنين. قال: وهل تدرون من هو؟ قالوا: لا.

---

(1) مصنف ابن أبي شيبة (11/ 74) بسند منقطع.

(2) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 250، تنزيه لخال المؤمنين.

(3) مصنف بن أبي شيبة (15/ 303) بسند حسن.

(4) تاريخ دمشق (1/ 331، 329)، خلافة علي، ص: 251.

(5) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 251، تنزيه لخال المؤمنين، ص: 169.

(6) البداية والنهاية (8/ 122).

(7) الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام، ص: 211.

(8) الطفول: جمع طفل، بالفتح، وهو الرخص الناعم.

قال فإنه عمرو بن العاص تلقاني بعورته فصرفت وجهي[1]، وذكر القصة ـ أيضاً ـ ابن الكلبي كما ذكر ذلك السهيلي في الروض الأنف: وقول علي: إنه التقاني بعورته فأذكرني الرَّحِمَ إلى أن قال: . . ويروى مثل ذلك عن عمرو بن العاص مع علي ﷺ ـ يوم صفين، وفي ذلك يقول الحارث بن النضر الشهمي رواه ابن الكلبي وغيره:

أفي كل يوم فارس غير منته ... وعورته وسط العجاجة بادية
يكف لها عنه علي سنانه ... ويضحك منه في الخلاء معاوية[2]

والرد على هذا الافتراء والأفك المبين كالآتي، فراوي الرواية الأولى، نصر بن مزاحم الكوفي صاحب وقعة صفين شيعي جلد لا يستغرب عنه كذبه وافتراؤه على الصحابة، قال عنه الذهبي في الميزان: نصر بن مزاحم الكوفي: رافضي جَلد، تركوه وقال عنه العقيلي: شيعي في حديثه اضطراب وخطأ كثير، وقال أبو خيثمة: كان كذاباً[3]، وقال عنه ابن حجر: قال العجلي: كان رافضياً غالياً . . . ليس بثقة ولا مأمون[4]، وأما الكلبي: هشام بن محمد بن السائب الكلبي، اتفقوا على غلوه في التشيع، قال الإمام أحمد: من يحدث عنه؟ ما ظننت أن أحداً يحدث عنه وقال الدارقطني: متروك[5]، وعن طريق هذين الرافضين سارت هذه القصة في الآفاق وتلقفها من جاء بعدهم من مؤرخي الشيعة، وبعض أهل السنة ممن راجت عليهم أكاذيب الرافضة[6]. وتعد هذه القصة أنموذجاً لأكاذيب الشيعة الروافض وافتراءاتهم على صحابة رسول الله، فقد اختلق أعداء الصحابة من مؤرخي الرافضة مثالب لأصحاب رسول الله ﷺ وصاغوها على هيئة حكايات وأشعار لكي يسهل انتشارها بين المسلمين، هادفين إلى الغض من جناب الصحابة الأبرار ـ ﷺ ـ في غفلة من أهل السنة الذين وصلوا متأخرين إلى ساحة التحقيق في روايات التاريخ الإسلامي، بعد أن طارت تلكم الأشعار والحكايات بين القصَّاص وأصبح كثير منها من المسَلَّمات، حتى عند مؤرخي أهل السنة للأسف[7].

13 - مرور أمير المؤمنين علي بالمقابر بعد رجوعه من صفين:

لما انصرف علي أمير المؤمنين ﷺ من صفين مرّ بمقابر، فقال: السلام عليكم أهل الديار

(1) وقعة صفين، ص: (406 - 408)، قصص لا تثبت، سليمان الخراشي (6/ 16).
(2) الروض الأنف (5/ 462)، قصص لا تثبت (6/ 19).
(3) ميزان الاعتدال (4/ 253 - 254).
(4) لسان الميزان (6/ 157).
(5) المجروحين لابن حبان (3/ 91)، تذكرة الحفاظ (1/ 343) معجم الأدباء (19/ 287)، قصص لا تثبت، ص: (1/ 18).
(6) قصص لا تثبت (1/ 20).
(7) المصدر نفسه (1/ 10).

الموحشة، والمحال المقفرة من المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، أنتم لنا سلف فارط، ونحن لكم تبعٌ، وبكم عمّا قليل لاحقون، اللّهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم، الحمد لله الذي جعل الأرض كفاتاً، أحياءً وأمواتاً، الحمد لله الذي خلقكم وعليها يحشركم، ومنها يبعثكم، وطوبى لمن ذكر المعاد وأعدّ للحساب، وقنع بالكفاف[1].

14 - إصرار قتلة عثمان ﷺ على أن تستمر المعركة:

إن قتلة عثمان كانوا حريصين على أن تستمر المعركة بين الطرفين، حتى يتفانى الناس، وتضعف قوة الطرفين، فيكونوا بمنأى عن القصاص والعقاب، ولذلك فإنهم فزعوا وهم يرون أهل الشام يرفعون المصاحف، وعلي ﷺ يجيبهم إلى طلبهم فيأمر بوقف القتال وحقن الدماء فسعوا إلى ثني أمير المؤمنين في عزمه لكن القتال توقف، فسقط في أيديهم، فلم يجدوا بداً من الخروج على علي ﷺ فاخترعوا مقولة (الحكم لله) وتحصنوا بعيداً عن الطرفين، والغريب أن المؤرخين لم يركزوا على ما فعله هؤلاء في هذه المرحلة، كما فعلوا في معركة الجمل، رغم أنهم كانوا موجودين في جيش علي، وعن سر إخفاق تلك المفاوضات التي دامت أشهر عديدة، وعن الدور الذي يمكن أن يكون قتلة عثمان قد قاموا به في معركة صفين لإفشال كل محاولة صلح بين الطرفين، لأن اصطلاح علي مع معاوية هو أيضاً اصطلاح عل دمائهم، فلا يعقل أن يجتهدوا في الفتنة في وقعة الجمل، ويتركوا ذلك في صفين[2].

15 - نهي أمير المؤمنين علي عن شتم معاوية ولعن أهل الشام:

روي أن علياً ﷺ لمّا بلغه أن اثنين من أصحابه يظهران شتم معاوية ولعن أهل الشام أرسل إليهما أن كفّا عمّا يبلغني عنكما، فأتيا فقالا: يا أمير المؤمنين: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى وربّ الكعبة المسدّنة، قالا: فلم تمنعنا من شتمهم ولعنهم؟ قال: كرهت لكم أن تكونوا لعّانين، ولكن قولوا: اللّهم أحقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، وأبعدهم عن ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي من لجج به[3]، وأما ما قيل من أن علياً كان يلعن في قنوته معاوية وأصحابه، وأن معاوية إذا قنت لعن عليًّا وابن عباس والحسن والحسين، فهو غير صحيح، لأنَّ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا أكثر حرصاً من غيرهم على التقيد بأوامر الشارع الذي نهى عن سباب المسلم ولعنه[4]، فقد

(1) البيان والتبيان للجاحظ (3/ 148)، فرائد الكلام للخلفاء الكرام، ص: 327.
(2) أحداث وأحاديث فتنة الهرج، ص: 147.
(3) الأخبار الطوال، ص: 165 نقلاً عن تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (2/ 232).
(4) تحقيق مواقف الصحابة (2/ 232).

روي عن رسول الله ﷺ قوله: «من لعن مؤمناً فهو كقتله»[1]، وقوله ﷺ: «ليس المؤمن بطعان ولا بلعّان»[2]، وقوله ﷺ: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»[3]، كما أن الرواية التي جاء فيها لعن أمير المؤمنين في قنوته لمعاوية وأصحابه ولعن معاوية لأمير المؤمنين وابن عباس والحسن والحسين لا تثبت من ناحية السند، حيث فيها أبي مخنف لوط بن يحيى الرافضي المحترق الذي لا يوثق في رواياته. كما أن في أصح كتب الشيعة عندهم النهي عن سب الصحابة، فقد أنكر علي من يسب معاوية ومن معه فقال: إني أكره لكم أن تكونوا سبابين ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللّهم أحقن دماءنا ودماءهم وأصلح ذات بيننا وبينهم[4]، فهذا السب والتكفير لم يكن من هدي علي باعتراف أصح كتاب في نظر الشيعة[5].

رابعاً: التحكيم:

تم الاتفاق بين الفريقين على التحكيم بعد انتهاء موقعة صفين، وهو أن يحكّم كل واحد منهما رجلاً من جهته ثم يتفق الحكمان على ما فيه مصلحة المسلمين، فوكّل معاوية عمرو بن العاص ووكل علي أبا موسى الأشعري ﷺ جميعاً، وكتب بين الفريقين وثيقة في ذلك، وكان مقر اجتماع الحكمين في دومة الجندل في شهر رمضان سنة 37هـ، وقد رأى قسم من جيش علي ﷺ أن عمله هذا ذنب يوجب الكفر فعليه أن يتوب إلى الله تعالى وخرجوا عليه فسموا الخوارج، فأرسل علي ﷺ إليهم ابن عباس ﷺ ما فناظرهم وجادلهم ثم ناظرهم علي ﷺ بنفسه فرجعت طائفة منهم وأبت طائفة أخرى، فجرت بينهم وبين علي ﷺ حروب أضعفت من جيشه وأنهكت أصحابه، وما زالوا به حتى قتلوه غيلة.

تعتبر قضية التحكيم من أخطر الموضوعات في تاريخ الخلافة الراشدة وقد تاه فيها كثير من الكتّاب، وتخبط فيها آخرون وسطروها في كتبهم ومؤلفاتهم، وقد اعتمدوا على الروايات الضعيفة والموضوعة التي شوهت الصحابة الكرام وخصوصاً: أبو موسى الأشعري الذي وصفوه بأنه كان أبله ضعيف الرأي مخدوع في القول، وبأنه كان على جانب كبير من الغفلة ولذلك خدعه عمرو بن العاص في قضيّة التحكيم، ووصفوا عمرو بن العاص ﷺ بأنه كان صاحب مكر وخداع، فكل هذه الصفات الذميمة حاول المغرضون والحاقدون على الإسلام

(1) البخاري، كتاب: الأدب (7/ 84).
(2) السلسلة الصحيحة للألباني رقم 320، صحيح سنن الترمذي (2/ 189) رقم 1110.
(3) مسلم (4/ 2006) رقم 2598.
(4) نهج البلاغة، ص: 323.
(5) أصول مذهب الشيعة (2/ 934).

إلصاقها بهذين الرجلين العظيمين اللذين اختارهما المسلمون ليفصلا في خلاف كبير أدّى إلى قتل الكثير من المسلمين، وقد تعامل الكثير من المؤرخين والأدباء والباحثين مع الروايات التي وضعها خصوم الصحابة الكرام على أنها حقائق تاريخية، وقد تلقاها الناس منهم بالقبول دون تمحيص لها وكأنها صحيحة لا مرية فيها، وقد يكون لصياغتها القصصية المثيرة وما زعم فيها من خداع ومكر أثر في اهتمام الناس بها وعناية المؤرخين بتدوينها، وليعلم أن كلامنا هذا ينصب على التفصيلات لا على أصل التحكيم حيث أن أصله حق لا شك فيه[1].

خامساً: نص وثيقة التحكيم:

بسم الله الرحمن الرحيم.

1 - هذا ما تقاضى عليه عليُّ بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان وشيعتهما، فيما تراضيا فيه من الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

2 - قضية علي على أهل العراق شاهدهم وغائبهم، قضية معاوية على أهل الشام شاهدهم وغائبهم.

3 - إنّا تراضينا أن نقف عند حُكم القرآن فيما يحكم من فاتحته إلى خاتمته، نحيي ما أحيى ونُميت ما أمات. على ذلك تقاضينا وبه تراضينا.

4 - وإن علياً وشيعته رضوا بعبد الله بن قيس ناظراً وحاكماً، ورضي معاوية بعمرو بن العاص ناظراً وحاكماً.

5 - على أن علياً ومعاوية أخذا على عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه وذِمّته وذِمّة رسوله، أن يتخذا القرآن إماماً ولا يعدوا به إلى غيره في الحكم بما وجداه فيه مسطوراً وما لم يجدا في الكتاب ردّاه إلى سنة رسول الله الجامعة، لا يتعمّدان لها خلافاً، ولا يبتغيان فيها بشبهة.

6 - وأخذ عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص على علي ومعاوية عهد الله وميثاقه بالرضا بما حكما به مما في كتاب الله وسنة نبيه وليس لهما أن ينقُضا ذلك ولا يخالفاه إلى غيره.

7 - وهما آمنان في حكومتهما على دمائهما وأموالهما وأشعارهما وأبشارهما وأهاليهما وأولادهما، لم يعدوا الحق، رضي به راض أو سخط ساخط، وإن الأمة أنصارهما على ما قضيا به من الحق مما في كتاب الله.

8 - فإن توفي أحد الحكمين قبل انقضاء الحكومة، فلشيعته وأنصاره أن يختاروا مكانه رجلاً من أهل المعدلة والصلاح، على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق.

---

(1) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص: 378، تنزيه لخال أمير المؤمنين معاوية، ص: 38.

9 - وإن مات أحد الأميرين قبل انقضاء الأجل المحدود في هذه القضية، فلشيعته أن يُولّوا مكانه رجلاً يرضون عدله.

وقد وقعت القضية بين الفريقين والمفاوضة ورفع السلاح:

10 - وقد وقعت القضية بين الفريقين والمفاوضة ورفع السلاح.

11 - وقد وجبت القضية على ما سمّيناه في هذا الكتاب، من موقع الشرط على الأميرين والحَكمين والفريقين والله أقرب شهيد وكفى به شهيداً، فإن خالفا وتعدّيا، فالأمّة بريئة من حُكمهما، ولا عهد لهما ولا ذِمّة.

12 - والناس آمنون على أنفسهم وأهليهم وأولادهم وأموالهم إلى انقضاء الأجل، والسلاح موضوعة، والسبل آمنة، والغائب من الفريقين مثل الشاهد في الأمر.

13 - وللحَكمين أن ينزلا منزلاً متوسطاً عدلاً بين أهل العراق والشام.

14 - ولا يحضرهما فيه إلا من أحبّا عن تراضٍ بينهما.

15 - والأجل إلى انقضاء شهر رمضان، فإن رأى الحَكمان تعجيل الحكومة عجّلاها، وإن رأى تأخيرها إلى آخر الأجل أخّراها.

16 - فإن هما لم يحكُما بما في كتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الأجل، فالفريقان على أمرهم الأول في الحرب.

17 - وعلى الأمّة عهد الله وميثاقه في هذا الأمر، وهم جميعاً يد واحدة على من أراد في هذا الأمر إلحاداً أو ظلماً أو خلافاً، وشهد على ما في هذا الكتاب: الحسن والحسين ابنا علي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، والأشعث بن قيس الكندي، والأشتر بن الحارث، وسعيد بن القيس الهمداني، والحصين والطفيل ابنا الحارث بن عبد المطلب، وأبو سعيد بن ربيعة الأنصاري، وعبد الله بن خباب بن الأرت، وسهل بن حنيف، وأبو بشر بن عمر الأنصاري، وعوف بن الحارث بن عبد المطلب، ويزيد بن عبد الله الأسلمي، وعقبة بن عامر الجهني، ورافع بن خديج الأنصاري، وعمر بن الحمق الخزاعي، والنعمان بن عجلان الأنصاري، وحجر بن عدي الكندي، ويزيد بن حجية التكري، ومالك ابن كعب الهمداني، وربيعة بن شرحبيل، والحارث بن مالك، وحجر بن يزيد، وعلبة بن حجية، ومن أهل الشام، حبيب بن مسلمة الفهري، وأبو الأعور السلمي، وبشر بن أرطأة القرشي، ومعاوية بن خديج الكندي، والمخارق بن الحارث الذبيدي، ومسلم بن عمرو الكسي، وعبد الله بن خالد بن الوليد، وحمزة بن مالك، وسبيع بن يزيد الحضرمي، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعلقمة بن يزيد الحضرمي، ويزيد بن أبجر العبسي، ومسروق ابن حبلة العكي، وبسر بن يزيد الحميري، وعبد الله بن عامر القرشي، وعتبة بن أبي سفيان،

ومحمد بن أبي سفيان، ومحمد بن عمرو بن العاص، وعمّار بن الأحوص الكلبي، ومسعدة ابن عمرو العتبي، والصباح بن جلهمة الحميري، وعبد الرحمن بن ذي الكلاع، وثمامة بن حوشب، وعلقمة بن حكم.

وكتب يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين[1].

سادساً: قصة التحكيم المشهورة وبطلانها من وجوه:

لقد كثر الكلام حول قصة التحكيم، وتداولها المؤرخون والكتاب على أنها حقيقة ثابتة لا مرية فيها، فهم بين مطيل في سياقها ومختصر وشارح ومستنبط للدروس وبان للأحكام على مضامينها وقلما تجد أحداً وقف عندها فاحصاً محققاً، وقد أحسن ابن العربي في ردها إجمالاً وإن كان غير مفصل وفي هذا دلالة على قوة حاسته النقدية للنصوص، وإذ أن جميع متون قصة التحكيم لا يمكن أن تقوم أمام معيار النقد العلمي، بل هي باطلة من عدة وجوه[2].

1 - أن جميع طرقها ضعيفة، وأقوى طريق وردت فيه هو ما أخرجه عبد الرزاق والطبري بسند رجاله ثقات عن الزهري مرسلاً قال: قال الزهري: فأصبح أهل الشام قد نشروا مصاحفهم، ودعوا إلى ما فيها، فهاب أهل العراق، فعند ذلك حكموا الحكمين، فاختار أهل العراق أبا موسى الأشعري، واختار أهل الشام عمرو بن العاص فتعرق أهل صفين حين حكم الحكمان، فاشترطا أن يرفعا من رفع القرآن ويخفضا من خفض القرآن، وأن يختار لأمة محمد ﷺ، وأنهما يجتمعان بدومة الجندل، فإن لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذرح، فلما انصرف عليّ خالفت الحرورية وخرجت ـ وكان ذلك أول ما ظهرت ـ فآذنوه بالحرب، وردوا عليه: أن حكم بن آدم في حكم الله ﷻ، وقالوا: لا حكم إلا لله سبحانه، وقالوا، فما اجتمع الحكمان بأذرح، وافاهم المغيرة بن شعبة فيمن حضر من الناس، فأرسل الحكمان إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير في إقبالهم في رجال كثير، ووافى معاوية بأهل الشام، وأبى علي وأهل العراق أن يوافوا، فقال المغيرة بن شعبة لرجال من ذوي الرأي من قريش: أترون أحداً من الناس برأي يبتدعه يستطيع أن يعلم أيجتمع الحكمان أم يفترقان؟ قالوا: لا نرى أحداً يعلم ذلك، قال: فوالله إني لا أظن أني سأعلمه منهما حين أخلو بهما وأرجعهما، فدخل عمرو بن العاص وبدأ به فقال: يا أبا عبد الله، أخبرني عما أسألك عنه، كيف ترانا معشر المعتزلة، فإنا قد شككنا في الأمر الذي تبين لكم من هذا القتال، ورأينا

(1) انظر: الوثائق السياسية، ص: 538، 537، الأخبار الطوال للدينوري، ص: 196 - 199، أنساب الأشراف (1/ 382)، تاريخ الطبري (5/ 665، 666)، البداية والنهاية (7/ 276، 277).

(2) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص: 4042.

أن نستأني ونتثبت حتى تجتمع الأمّة، قال: أراكم معشر المعتزلة خلف الأبرار، وأمام الفجار، فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك، حتى دخل على أبي موسى فقال له مثل ما قال لعمرو وقال أبو موسى: أراكم أثبت الناس رأياً، فيكم بقية المسلمين، فانصرف المغيرة ولم يسأله عن غير ذلك، فلقي الذين قال لهم ما قال من ذوي الرأي من قريش، فقال: لا يجتمع هذان على أمر واحد، فلما اجتمع الحكمان وتكلما قال عمرو بن العاص: يا أبا موسى، رأيت أول ما تقضي به من الحق أن تقضي لأهل الوفاء بوفائهم، وعلى أهل الغدر بغدرهم، قال أبو موسى: وما ذاك؟ قال: ألست تعلم أن معاوية وأهل الشّام قد وفوا، وقدموا للموعد الذي واعدناهم إياه؟ قال: بلى، قال عمرو: اكتبها فكتبها أبو موسى، قال عمرو: يا أبا موسى، أأنت على أن تسمي رجلاً يلي أمر هذه الأمّة؟ فسمه لي، فإن أقدر على أن أتابعك فلك عليّ أن أتابعك وإلا فلي عليك أن تتابعني، قال أبو موسى أسمي لك معاوية بن أبي سفيان فلم يبرحا مجلسهما حتى استبا، ثم خرجا إلى الناس، فقال أبو موسى: إني وجد مثل عمرو كمثل الذي قال الله ﷻ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: 175]. فلما سكت أبو موسى تكلم عمرو فقال: أيها الناس وجدت مثل أبي موسى كمثل الذي قال الله ﷻ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: 5]. وكتب كل واحد منهما مثله الذي ضرب لصاحبه إلى الأمصار[1]. والزهري لم يدرك الحادثة فهي مرسلة، ومراسيله كأدراج الرياح لا تقوم بها حجة[2]، كما قرّر العلماء، وهناك طريق أخرى أخرجها ابن عساكر بسنده إلى الزهري وهي مرسلة وفيها أبو بكر بن أبي سبرة قال عنه الإمام أحمد: كان يضع الحديث[3]. وفي سنده أيضاً الواقدي، وهو متروك[4]، وهذا نصها: . . . رفع أهل الشّام المصاحف وقالوا: ندعوكم إلى كتاب الله والحكم بما فيه وكان ذلك مكيدة من عمرو بن العاص، فاصطلحوا وكتبوا بينهم كتاباً على أن يوافوا رأس الحول بأذرح، وحكّموا حكمين ينظرون في أمور الناس فيرضوا بحكمهما، فحكّم علي أبا موسى الأشعري، وحكم معاوية عمرو بن العاص، وتفرق الناس فرجع علي إلى الكوفة بالاختلاف والدغل، واختلف عليه أصحابه فخرج عليه الخوارج من أصحابه ممن كان معه، وأنكروا تحكيمه وقالوا: لا حكم إلا لله ورجع معاوية إلى الشام بالإلفة واجتماع الكلمة عليه ووافى الحكمان بعد الحول بأذرح في شعبان سنة ثمان وثلاثين، واجتمع الناس إليهما وكان بينهما كلام اجتمعا عليه في السر خالفه عمرو بن العاص في العلانية، فقدم أبا موسى فتكلم

(1) المصنف (5/ 463)، مرويات تاريخ الطبري، ص: 406.
(2) المراسيل لأبي حاتم، ص: 3، الجرح والتعديل (1/ 246).
(3) تهذيب التهذيب (12/ 27)، مرويات تاريخ الطبري، ص: 406.
(4) مرويات تاريخ الطبري، ص: 406.

وخلع علياً ومعاوية، ثم تكلم عمرو بن العاص فخلع علياً وأقر معاوية، فتفرق الحكمان ومن كان اجتمع إليهما وبايع أهل الشام ومعاوية في ذي القعدة سنة ثمان وثلاثين[1]، وأما طرق أبي مخنف فهي معلولة به، وبأبي جناب الكلبي فالأول: وهو أبو مخنف لوط بن يحيى، ضعيف ليس بثقة[2]، وأخباري تالف غالي من الرفض وأما الثاني قال فيه ابن سعد: كان ضعيفاً[3]، وقال البخاري وأبو حاتم: كان يحيى القطان يضعفه[4]وقال عثمان الدارمي: ضعيف[5]، وقال النسائي: ضعيف[6].

هذه طرق قصة التحكيم المشهور، والمناظرة بين أبي موسى وعمرو بن العاص المزعومة، أفيمثل هذا تقوم حجة، أو يعول على مثل ذلك في تاريخ الصحابة الكرام وعهد الخلفاء الراشدين، عصر القدوة والأسوة؟ ولو لم يكن في هذه الروايات إلا الاضطراب في متونها لكفاها ضعفاً فكيف إذا أضيف إلى ذلك ضعف أسانيدها[7]؟

2 - أهمية هذه القضية في جانب الاعتقاد والتشريع، ومع ذلك لم تنقل لنا بسند صحيح، ومن المحال أن يطبق العلماء على إهمالها مع أهميتها وشدة الحاجة إليها[8].

3 - وردت رواية تناقض تلك الروايات تماماً، وذلك فيما أخرجه البخاري في تاريخه مختصراً بسند رجاله ثقات، وأخرجه ابن عساكر مطولاً، عن الحصين بن المنذر أن معاوية أرسله إلى عمرو بن العاص فقال له: إنه بلغني عن عمرو وأبو موسى فيه كيف صنعتما فيه؟ قال: قد قال الناس وقالوا: ولا والله ما كان ما قالوا: ولكن لما اجتمعت أنا وأبو موسى قلت له: ما ترى في هذا الأمر؟ قال: أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، قال: فقلت: أين تجعلني من هذا الأمر أنا ومعاوية؟ قال: إن يستعن بكما ففيكما معونة، وإن يستغنى عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما[9]. وقد روى أبو موسى عن تورّع عمرو ومحاسبته لنفسه، وتذكّره سيرة أبي بكر وعمر، وخوفه من الإحداث بعدهما، قال أبو موسى: قال لي عمرو بن العاص: والله لئن كان أبو بكر وعمر تركا هذا المال وهو يحلُّ لهما، غُبِنا

(1) تاريخ دمشق (16/ 53).
(2) تحقيق مواقف الصحابة (2/ 223).
(3) مرويات أبي مخنف، ص: 407.
(4) التاريخ الكبير (4/ 2/ 267)، الجرح والتعديل (9/ 138).
(5) التاريخ للدارمي، ص: 238، تحقيق مواقف الصحابة (2/ 223).
(6) الضعفاء والمتروكون، ص: 253.
(7) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص: 408.
(8) المصدر نفسه، ص: 408.
(9) التاريخ الكبير (5/ 398).

وأخطأ أو تنقص رأيهما، ووالله ما كانا مغبونين ولا مخطئين ولا ناقصي الرأي. ووالله ما جاءنا الوهم والضعف إلا من قِبلنا[1].

4 - إن معاوية كان يقر بفضل علي عليه وأنه أحق بالخلافة منه فلم ينازعه الخلافة ولا طلبها لنفسه في حياة علي، فقد أخرج يحيى بن سليمان الجعفي بسند جيد[2]، عن أبي مسلم الخولاني أنه قال لمعاوية: أنت تنازع علياً في الخلافة أو أنت مثله؟ قال: لا وإني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر، ولكن ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً وأنا ابن عمه ووليه أطالب بدمه؟ فأتوا علياً فقولوا له أن يدفع لنا قتلة عثمان وأسلم له، فأتوا علياً فكلموه فلم يدفعهم إليه[3]، فهذا هو أصل النزاع بين علي ومعاوية ﷺ، فالتحكيم من أجل حل هذه القضية المتنازع عليها لا لاختيار خليفة أو عزله[4]. ويقول ابن حزم في هذا الصدد: بأن علياً قاتل معاوية لامتناعه من تنفيذ أوامره في جميع أرض الشام، وهو الإمام الواجب طاعته، ولم ينكر معاوية قط فضل علي واستحقاقه الخلافة، لكن اجتهاده أدّاه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان على البيعة، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان والكلام فيه من أولاد عثمان وأولاد الحكم بن أبي العاص لسنّه وقوته على الطلب بذلك، وأصاب في هذا وإنما أخطأ في تقديمه ذلك على البيعة فقط[5]، وفهم الخلاف على هذه الصورة - وهي صورته الحقيقية - يبين إلى أيّ مدى تخطئ الروايات السابقة عن التحكيم في تصوير قرار الحكمين، إن الحكمين كانا مفوضين للحكم في الخلاف بين علي ومعاوية، ولم يكن الخلاف بينهما حول الخلافة ومن أحق بها منهما، وإنما كان حول توقيع القصاص على قتلة عثمان، وليس هذا من أمر الخلافة في شيء، فإذا ترك الحكمان هذه القضية الأساسية، وهي ما طلب إليهما الحكم فيه، واتخذا قراراً في شأن الخلافة كما تزعم الرواية الشائعة، فمعنى ذلك أنهما لم يفقها موضوع النزاع، ولم يحيطا بموضوع الدعوى، وهو مستبعد جدّا[6].

5 - أن الشروط التي يجب توفرها في الخليفة هي العدالة والعلم، والرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح، وأن يكون[7] قرشياً وقد توفرت هذه الشروط في

(1) العواصم من القواصم، ص: 178 - 180.
(2) فتح الباري (13/ 86).
(3) سير أعلام النبلاء (3/ 140).
(4) مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، ص: 409.
(5) الفصل في الملل والأهواء والنحل (4/ 160).
(6) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (2/ 225).
(7) الأحكام السلطانية، الماوردي، ص: 6، الأحكام السلطانية لأبي يعلى، ص: 20، غياث الأمم، ص: 79 وما بعدها.

علي ﷺ فهل بيعته منعقدة أم لا؟ فإن كانت منعقدة ـ ولا شك وقد بايعه المهاجرون والأنصار أهل الحل والعقد، وخصومه يقرون له بذلك ـ فقول معاوية السابق يدل عليه بأن الإمام إذا لم يَخْل عن صفات الأئمة، فرام العاقدون له عقد الإمامة أن يخلعوه، لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً باتفاق الأئمة، فإن عقد الإمام لازم، لا اختيار في حله من غير سبب يقتضيه، ولا تنتظم الإمامة ولا تفيد الغرض المقصود منها إلا مع القطع بلزومها، ولو تخير الرعايا في خلع إمام الخلق على حكم الإيثار والاختبار لما استتب للإمام طاعة ولما استمرت له قدرة واستطاعة ولما صح لمنصب الإمام معنى[1]. وإذاً فليس الأمر بهذه الصورة التي تحكيها الروايات كل من لم يرضَ بإمامه خلعه، فعقد الإمامة لا يحله إلا من عقده، وهم أهل الحل والعقد وبشرط إخلال الإمام بشروط الإمامة، وهل علي ﷺ فعل ذلك؟! واتفق أهل الحل والعقد على عزله عن الخلافة وهو الخليفة الراشد حتى يقال إن الحكمين اتفقا على ذلك؟! فما ظهر منه قط إلى أن مات ﷺ شيء يوجب نقض بيعته، وما ظهر منه قط إلا العدل والجد والبر والتقوى والخير[2].

6 - أن الزمان الذي قام فيه التحكيم زمان فتنة، وحالة المسلمين مضطربة مع وجود خليفة له، فكيف تنتظم حالتهم مع عزل الخليفة! لا شك أن الأحوال ستزداد سوءاً، والصحابة الكرام أحذق وأعقل من أن يقدموا على هذا وبهذا يتضح بطلان هذا الرأي عقلاً ونقلاً.

7 - إن عمر بن الخطاب ﷺ حصر الخلافة في أهل الشورى وهم الستة وقد رضي المهاجرون والأنصار بذلك، فكان ذلك إذناً في أن الخلافة لا تعدوا هؤلاء إلى غيرهم ما بقي منهم واحد ولم يبق منهم في زمان التحكيم إلا سعد بن أبي وقاص وقد اعتزل الأمر ورغب عن الولاية والإمارة، وعلي بن أبي طالب القائم بأمر الخلافة وهو أفضل الستة بعد عثمان فكيف يتخطى بالأمر إلى غيره[3].

8 - أوضحت الروايات أن أهل الشام بايعوا معاوية بعد التحكيم. والسؤال ما السوغ الذي جعل أهل الشام يبايعون معاوية؟ إن كان من أجل التحكيم فالحكمان لم يتفقا ولم يكن ثمة مبرر آخر حتى ينسب عنهم ذلك، مع أن ابن عساكر نقل بسند رجال ثقات عن سعيد بن عبد العزيز التنوخي[4]، أعلم الناس بأمر الشام[5] أنه قال: كان علي بالعراق يدعى أمير المؤمنين،

(1) غياث الأمم، ص: 128، مرويات أبي مخنف، ص: 410
(2) الفصل في الملل والأهواء والنحل (4/ 238).
(3) مرويات تاريخ أبي مخنف، ص: 411.
(4) سعيد بن عبد العزيز التنوخي ثقة إمام (التقريب).
(5) تهذيب التهذيب (4/ 60).

وكان معاوية بالشام يدعى الأمير فلما مات علي دعي معاوية بالشام أمير المؤمنين[1]. فهذا النص يبين أن معاوية لم يبايع بالخلافة إلا بعد وفاة علي، وإلى هذا ذهب الطبري، فقد قال في آخر حوادث سنة أربعين: وفي هذه السنة بويع لمعاوية بالخلافة بإيلياء[2]، وعلق على هذا ابن كثير بقوله: يعني لما مات علي قام أهل الشام فبايعوا معاوية على إمرة المؤمنين لأنه لم يبق له عندهم منازع[3]، وكان أهل الشام يعلمون بأن معاوية ليس كفئاً لعلي بالخلافة ولا يجوز أن يكون خليفة مع إمكان استخلاف علي ﷺ، فإن فضل علي وسابقته وعلمه، ودينه، وشجاعته، وسائر فضائله: كانت عندهم ظاهرة معروفة، كفضل إخوانه، أبي بكر، وعمر، وعثمان وغيرهم ﷺ[4]، وإضافة إلى ذلك فإن النصوص تمنع من مبايعة خليفة مع وجود الأول، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: **إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما**»[5]، والنصوص في هذا المعنى كثيرة[6] ومن المحال أن يطبق الصحابة على مخالفة ذلك[7].

9 - أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عمر قال: دخلت على حفصة ونسوتها تنطف، قلت: قد كان من أمر الناس ما ترين فلم يجعل لي من الأمر شيء، فقالت: الحق فإنهم ينتظرونك وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة، فلم تدعه حتى ذهب، فلما تفرق الناس خطب معاوية قال: من كان يريد أن يتكلم في هذا الأمر فليطلع لنا قرنه فلنحن أحق به منه ومن أبيه، قال حبيب بن مسلمة: فهلا أجبته؟ قال عبد الله: فحللت حبوتي وهممت أن أقول أحق بهذا الأمر منك من قاتلك وأباك على الإسلام، فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم ويحمل عني غير ذلك، فذكرت ما أعد الله في الجنان. قال حبيب حفظت وعصمت[8]، هذا الحديث قد يفهم منه مبايعة معاوية بالخلافة، وليس فيه تصريح بذلك، وقد قال بعض العلماء إن هذا الحديث كان في الاجتماع الذي صالح فيه الحسن بن علي ﷺ معاوية ﷺ، وقال ابن الجوزي إن هذه الخطبة كانت في زمن معاوية لما أراد أن يجعل ابنه يزيد ولي عهده، ويرى ابن حجر في التحكيم[9]، ودلالة النص على القولين الأولين أقوى. فقوله: فخشيت أن أقول كلمة تفرق بين الجمع وتسفك الدم. دليل على اجتماع الكلمة على معاوية، وأيام التحكيم أيام فرقة واختلاف لا أيام جمع وإتلاف[10].

10 ـ **حقيقة قرار التحكيم**: ليس من شك في أن أمر الخلاف الذي رأى الحكمان رده إلى

---

(1) تاريخ الطبري (6/ 76).
(2) المصدر نفسه (6/ 76).
(3) البداية والنهاية (8/ 16).
(4) الفتاوى (35/ 73).
(5) صحيح مسلم (3/ 1480).
(6) سنن البيهقي (8/ 144).
(7) مرويات أبي مخنف، ص: 412.
(8) البخاري (5/ 48).
(9) فتح الباري (7/ 466).
(10) مرويات أبي مخنف.

الأمة أو إلى أهل الشورى ليس إلا أمر الخلاف بين علي ومعاوية حول قتلة عثمان، ولم يكن معاوية مدعياً للخلافة ولا منكراً حق عليّ فيها كما تقرر سابقاً، وإنما كان ممتنعاً عن بيعته وعن تنفيذ أوامره في الشام حيث كان متغلباً عليها بحكم الواقع لا بحكم القانون، مستفيداً من طاعة الناس له بعد أن بقي والياً فيها زهاء عشرين سنة[1]، وقد قال ابن دحية الكلبي في كتابه «أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهل صفين»: قال أبو بكر محمد بن الطيب الأشعري ـ الباقلاني ـ في مناقب الأئمة: فما اتفق الحكمان قط على خلعه ـ علي بن أبي طالب. . . . . وعلى أنهما لو اتفقا على خلعه لم ينخلع أو أحد منهما على ما شرطا في الموافقة بينهما أو إلى أن يبيّنا ما يوجب خلعه من الكتاب والسنة، ونصّ كتاب عليّ عليه السلام اشتراط على الحكمين أن يحكما بما في كتاب الله ﷻ من فاتحته إلى خاتمته لا يجاوزان ذلك ولا يحدان عنه، ولا يميلان إلى هوى ولا إدهان، وأخذ عليهما أغلظ العهود والمواثيق، وإن هما جاوزا بالحكم كتاب الله فلا حكم لهما. . . والكتاب والسنة يثبتان إمامته، ويعظمانه ويثنيان عليه، يشهدان بصدقه وعدالته، وإمامته، وسابقته في الدين، وعظيم جهاده في جهاد المشركين، وقرابته من سيد المرسلين، وما خص به من القدم في الحلم والمعرفة بالحكم، ووفور الحلم، وأنه حقيق بالإمامة، وأهل لحمل أعباء الخلافة[2].

11 - **مكان انعقاد المؤتمر**: كان الموعد المحدد لاجتماع الحكمين ـ كما جاء في الوثيقة ـ في رمضان في عام 37 هـ، إذا لم تحدث عوائق، في موضع وسط بين العراق والشام وهذا الموضع المختار هو دومة الجندل[3]، في روايات موثقة، وأذرح[4] في روايات أخرى دونها في الإتقان، ولعل لقرب المكانين من بعضهما أثر في اختلاف الروايات، إذ يقول خليفة ابن خياط[5]. . . ويقال بأذرح وهي من دومة الجندل قريب، وقد تم الاجتماع في الموعد المحدد بدون عوائق[6].

إن المكان الذي اجتمع فيه الحكمان هو دومة الجندل، وهذا بخلاف ما جزم به ياقوت الحموي من أن التحكيم حدث في أذرح واستدل على ذلك ببعض روايات لم يبينها وبالأشعار وبخاصة بشعرى ذي الرمة[7]، في مدح بلال بن أبي بردة[8] وهو قوله:

---

(1) تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة (2/ 234).

(2) أعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهل صفين، ص: 177.

(3) دومة الجندل: غرب مدينة الجوف في شمال الجزيرة العربية.

(4) أذرح: اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة من نواحي البقاء.

(5) تاريخ خليفة، ص: 191 - 192.

(6) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 267.

(7) ذي الرمة، غيلان بن عقبة توفي 117هـ، سير أعلام النبلاء (5/ 267).

(8) بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى الأشعري، تهذيب تاريخ دمشق (3/ 321).

أبوك تلافى الدين والناس بعدما تشاءوا وبيت الدين متقلع الكسر
فشد إصار الدين أيام أذرح ورد حروباً قد لقحن إلى عقر[1]

12 - **هل حضر سعد بن أبي وقاص اجتماع الحكمين؟**: اجتمع الحكمان في موعدهما المحدد، ومع كل واحد منهما بضع مئات يمثلون وفدين، وفد عن أهل العراق، وآخر يمثل أهل الشام، وطلب الحكمان من عدد من أعيان قريش وفضلائهم الحضور لمشاورتهم والاستئناس برأيهم، ولم يحضر الاجتماع عدد من كبار الصحابة [لأنهم] كانوا قد اعتزلوا القتال منذ بدايته، وأفضل هؤلاء: سعد بن أبي وقاص ﷺ فإنه لم يحضر التحكيم ولا أراد ذلك ولا همَّ به[2]، فعن عامر بن سعد أن أخاه عُمرَ انطلق إلى سعد في غنم له خارجاً من المدينة فلمّا أتاه رآه سعد قال: أعوذ بالله من شرِّ هذا الركب، فلمَّا أتاه قال: يا أبتِ، أرضيت أن تكون أعرابياً في غنمك والناس يتنازعون في الملك بالمدينة؟ فضرب سعد صدر عمر وقال: اسكت فإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»[3].

سابعاً: هل يمكن الاستفادة من حادثة التحكيم في فض النزاعات بين الدول الإسلامية؟

يمكن الاستفادة من حادثة التحكيم في فض النزاعات بين الدول الإسلامية وذلك بتحمل قادة البلاد الإسلامية جميعاً مسؤولياتهم ومن ورائهم الأمّة الإسلامية التي يحكمونها في الضغط الجادِّ الصادق، على الطرفين المتنازعين، لكي يوقفا ما بينهما من قتال، ويلجأ إلى التحكيم الشرعي في الإسلام فيرسل هذا الطرف حكماً من قبله، وذلك حكماً آخر من قبله أيضاً، للفصل في النزاع القائم وذلك على ضوء ما يلي:

1 - تحديد صلاحيات الحكمين في إصدار الأحكام التي لا بُدّ منها لحل المشكلات التي هي سبب النزاع.

2 - جعل مصادر التشريع الإسلامي هي المرجع الوحيد لإصدار تلك الأحكام والحلول، التي تفصل في مسائل النزاع.

3 - أخذ العهد على كل طرف من طرفي النزاع، وأخذ العهد على جميع قادة البلاد الإسلامية بقبول ما يصدره الحكمان من أحكام، وحلول مشروعة لإنهاء النزاع الرّاهن، على أنها واجبة التنفيذ بحكم الإسلام، وأن الخروج عليها، أو الرضى بذلك الخروج يترتب عليه الإثم شرعاً.

---

(1) ديوان ذي الرمّة، ص: 361 - 362، نقلاً عن خلافة علي، ص: 272.

(2) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد، ص: 272.

(3) المسند (1/ 168) وقال أحمد شاكر إسناده صحيح (3/ 26)، خلافة علي بن أبي طالب، للسُّلمي، ص: 107.

4 - إذا أصدر الحكمان ما اتَّفقا عليه من أحكام، وحلول، وانقاد لها الطرفان المتنازعان قُضي الأمر، وكفى الله المؤمنين القتال.

5 - إذا رفض أحد الطَّرفين، أو كلاهما الانقياد لقضاء الحكمين اعتبر الطرف الرافض هو الطرف الباغي، سواء صدر الرفض من أحدهما، أو من كليهما، ووجب شرْعاً على القوات الإسلامية في الأقطار الأخرى أن تضع نفسها تحت تصرُّف ما يصدره الحكمان من قرارات عسكرية، من أجل التدخل لحسم النزاع بالقوة على وجه لا تترتب عليه أضرار ومخاطر هي أكبر من ضرر النزاع القائم.

6 - ويكون من صلاحيّات الحكمين بالاتِّفاق: إصدار القرارات التي تخص كيفية تحريك القوات المسلحة في الأقطار الإسلامية الأخرى، من أجل حل النزاع القائم على ضوء ما سلف بيانه[1]، ولعلّ اللجوء إلى مثل هذه الطريقة في حل المنازعات بين الأقطار الإسلامية، كفيل بسد الطريق على أيّة قوة خارجية تتدخل في نزاعات المسلمين بحجة أنَّ بعض أطراف النِّزاع دعاها إلى هذا التدخل.. ومن ثم تستغل هذه الفرصة، لكي تتآمر على المسلمين، فتعمل على تصعيد تلك النزاعات، وفرض الحلّ الذي يَخْلو لها، ويكون فيه مصلحتها فقط وليعانِ المسلمون، بعدئذٍ، من آثار ذلك الحلّ أسوأ ممّا كانوا يُعَانُون من فتنة النِّزاع نفسها، فهذه المعاناة لا تهمها في شيء، لا بل إنَّ هذه المعاناة هي من جملة الاهتمامات التي فرضت من أجل تفجيرها ذلك الحلّ المشؤوم، قلنا: لعل اللُّجُوء إلى التحكيم، على نحو ما سلف بيانه، يسد الطريق في وجه تلك القوى الخارجيّة التي تبغي في صفوف المسلمين الفساد، هذا، وإن الصفة الإلزاميّة شرعاً للحل عن طريق التحكيم الذي عرضانه، تستند إلى إجماع الصحابة، فقد أجمع الصحابة كلهم في عهد النِّزاع الذي نشب بين علي ومعاوية على اللجُوء إلى التحكيم، والقبول به.. سواء في ذلك الصحابة الذين كانوا مع علي، والصحابة الذين كانوا مع معاوية، والصحابة الذين اعتزلوا الطريقين، كسعد بن أبي وقاص، وابن عمر، وغيرهما ﷺ أجمعين[2].

ثامناً: موقف أهل السنة من تلك الحروب:

إن موقف أهل السنة والجماعة من الحرب التي وقعت بين الصحابة الكرام ﷺ هو الإمساك عما شجر بينهم إلا فيما يليق بهم ﷺ لما يسببه الخوض في ذلك من توليد العداوة والحقد والبغض لأحد الطرفين، وقالوا: إنه يجب على كل مسلم أن يحب الجميع ويترضى عنهم ويترحم عليهم ويحفظ لهم فضائلهم، ويعترف لهم بسوابقهم، وينشر مناقبهم وأن الذي

(1) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (3/ 1665).

(2) المصدر نفسه.

حصل بينهم إنما كان عن اجتهاد والجميع مثابون في حالتي الصواب والخطأ، غير أن ثواب المصيب ضعف ثواب المخطىء في اجتهاده وأن القاتل والمقتول من الصحابة في الجنة، ولم يجوز أهل السنة والجماعة الخوض فيما شجر بينهم، وقبل أن أذكر طائفة من أقوال أهل السنة التي تبين موقفهم فيما شجر بين الصحابة أذكر بعض النصوص التي فيها الإشارة إلى ما وقع بين الصحابة من الاقتتال وبما وصفوا به فيها وتلك النصوص هي[1].

1 - قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: 9].

ففي هذه الآية أمر الله تعالى بالإصلاح بين المؤمنين إذا ما جرى بينهم قتال لأنهم إخوة وهذا الاقتتال لا يخرجهم عن وصف الإيمان حيث سماهم الله ﷻ مؤمنين وأمر بالإصلاح بينهم، وإذا كان حصل اقتتال بين عموم المؤمنين ولم يخرجهم ذلك من الإيمان فأصحاب رسول الله ﷺ الذين اقتتلوا في موقعة الجمل وبعدها أول من يدخل في اسم الإيمان الذي ذكر في هذه الآية، فهم لا يزالون عند ربهم مؤمنين إيماناً حقيقياً ولم يؤثر ما حصل بينهم من شجار في إيمانهم بحال لأنه كان عن اجتهاد[2].

2 - عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق**»[3]. والفرقة المشار إليها في الحديث هي ما كان من الاختلاف بين علي ومعاوية ﷺ وقد وصف ﷺ الطائفتين معاً بأنهما مسلمتان وأنهما متعلقتان بالحق، والحديث علم من أعلام النبوة: إذ وقع الأمر طبق ما أخبر به عليه الصلاة والسلام، وفيه الحكم بإسلام الطائفتين: أهل الشام وأهل العراق، لا كما يزعمه فرقة الرافضة والجهلة من تكفيرهم أهل الشام، وفيه أن أصحاب علي أدنى الطائفتين إلى الحق وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، أن علياً هو المصيب وإن كان معاوية مجتهداً وهو مأجور إن شاء الله ولكن علي هو الإمام فله أجران كما ثبت في صحيح البخاري: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**»[4].

3 - وعن أبي بكرة قال: بينما النبي ﷺ يخطب جاء الحسن فقال النبي: «**ابني هذا سيد**

---

(1) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام (2/ 727) تنزيه خال أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان من الظلم والفسق في مطالبته بدم أمير المؤمنين عثمان، ص: 41.

(2) العواصم من القواصم، ص: 169 - 170، أحكام القرآن (4/ 1717).

(3) مسلم (2/ 745).

(4) البخاري مع شرحه في فتح الباري (13/ 318).

ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»[1]، ففي هذا الحديث شهادة من النبي ﷺ بإسلام الطائفتين أهل العراق وأهل الشام، والحديث فيه رد واضح على الخوارج الذين كفّروا علياً ومن معه ومعاوية ومن معه بما تضمنه الحديث من الشهادة للجميع بالإسلام، ولذا كان يقول سفيان بن عيينة: قوله فئتين من المسلمين يعجبنا جداً. قال البيهقي: وإنما أعجبهم لأن النبي ﷺ سماهم جميعاً مسلمين وهذا خير من رسول الله ﷺ بما كان من الحسن بن علي بعد وفاة علي في تسليمه الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان[2].

فهذه الأحاديث المتقدم ذكرها فيها الإشارة إلى أهل العراق الذين كانوا مع علي وإلى أهل الشام الذين كانوا مع معاوية بن أبي سفيان وقد وصفهم النبي ﷺ بأنهم من أمته[3]. كما وصفهم بأنهم جميعاً متعلقون بالحق لم يخرجوا عنه كما شهد لهم ﷺ بأنهم مستمرون على الإيمان ولم يخرجوا عنه بسبب القتال الذي حصل بينهم وقد دخلوا تحت عموم قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: 9]. وقد قدمنا أن مدلول الآية ينتظمهم ﷺ أجمعين فلم يكفروا ولم يفسقوا بقتالهم بل هم مجتهدون متأولون وقد بين الحكم في قتالهم ذلك علي بن أبي طالب ﷺ كما مر معنا. فالواجب على المسلم أن يسلك في اعتقاده فيما حصل بين الصحابة الكرام ﷺ مسلك الفرقة الناجية من أهل السنة والجماعة وهو الإمساك عما حصل بينهم ﷺ ولا يخوض فيه إلا بما هو لائق بمقامهم وكتب أهل السنة مملوءة ببيان عقيدتهم الصافية النقية في حق أولئك الصفوة المختارة وقد حددوا موقفهم من تلك الحرب التي وقعت بينهم في أقوالهم الحسنة التي منها[4].

1 - سئل عمر بن عبد العزيز ﷺ عن القتال الذي حصل بين الصحابة فقال: تلك دماء طهر الله يدي منها أفلا أطهر بها لساني، مثل أصحاب رسول الله ﷺ مثل العيون، ودواء العيون ترك مسها[5]. قال البيهقي معلقاً على قول عمر بن عبد العزيز ﷺ: هذا حسن جميل لأن سكوت الرجل عما لا يعنيه هو الصواب[6].

2 - سئل الحسن البصري ﷺ عن قتال الصحابة فيما بينهم فقال: قتال شهده أصحاب محمد ﷺ وغبنا، وعلموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا[7]. ومعنى قول الحسن هذا: أن الصحابة كانوا أعلم بما دخلوا فيه منا وما علينا إلا أن تبعهم فيما

(1) البخاري، كتاب: الفتن رقم: 7109.
(2) الاعتقاد للبيهقي، ص: 198، فتح الباري (13/ 66).
(3) في صحيح مسلم (2/ 746) تكون في أمتي فرقتان.
(4) عقيدة أهل السنة في الصحابة (2/ 732).
(5) الإنصاف للباقلاني، ص: 16 , الطبقات (5/ 394).
(6) مناقب الشافعي، ص: 136.
(7) الجامع لأحكام القرآن (16/ 332).

اجتمعوا عليه، ونقف عندما اختلفوا فيه ولا نبتدع رأياً منا، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا الله ﷻ إذ كانوا غير متهمين في الدين[1].

3 - سئل جعفر بن محمد الصادق عما وقع بين الصحابة فأجاب بقول: أقول ما قال الله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[2] [طه: 52].

4 - قال الإمام أحمد ﷺ بعد أن قيل له: ما تقول فيما كان بين علي ومعاوية قال: ما أقول فيهم إلا الحسنى[3]، وعن إبراهيم بن آرز الفقيه قال: حضرت أحمد بن حنبل وسأله رجل عما جرى بين علي ومعاوية؟ فأعرض عنه فقيل له: يا أبا عبد الله هو رجل من بني هاشم فأقبل عليه فقال: اقرأ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 141].

5 - وقال ابن أبي زيد القيرواني في صدد عرضه لما يجب أن يعتقده المسلم في أصحاب رسول الله ﷺ وما ينبغي أن يذكروا به فقال: وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكر، والإمساك عما شجر بينهم وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب[4].

6 - وقال أبو عبد الله بن بطة أثناء عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة: ومن بعد ذلك نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ﷺ فقد شهدوا المشاهد معه وسبقوا الناس بالفضل، فقد غفر الله لهم وأمرك بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم، وفرض ذلك على لسان نبيه وهو يعلم ما سيكون منهم وأنهم سيقتتلون، وإنما فضلوا على سائر الخلق لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم وكل ما شجر بينهم مغفور لهم[5].

7 - قال أبو بكر بن الطيب الباقلاني: ويجب أن يعلم: أن ماجرى بين أصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم من المشاجرة نكف عنه ونترحم على الجميع ونثني عليهم، ونسأل الله تعالى لهم الرضوان والأمان والفوز والجنان ونعتقد أن علياً ﷺ أصاب فيما فعل وله أجران، وأن الصحابة ﷺ إن ما صدر منهم كان باجتهاد، فلهم الأجر ولا يفسقون ولايبدعون والدليل عليه قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: 18] وقوله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران

(1) المصدر نفسه (16/ 332).
(2) الإنصاف للباقلاني، ص: 164.
(3) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي، ص: 164.
(4) رسالته المشهورة مع شرحها الثمر الداني (152)، ص: (23).
(5) الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة، ص: 268

وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» فإذا كان الحاكم في وقتنا له أجران على اجتهاده فما ظنك باجتهاد من رضي الله عنهم ورضوا عنه، ويدل على صحة هذا القول: قوله ﷺ للحسن ﷺ: «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[1]، فأثبت العظمة لكل واحدة من الطائفتين وحكم لهما بصحة الإسلام وقد وعد الله هؤلاء القوم بنزع الغل من صدورهم بقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: 47]... إلى أن قال: ويجب الكف عمّا شجر بينهم والسكوت عنه[2].

8 - وقال ابن تيمية في صدد عرضه لعقيدة أهل السنة والجماعة فيما شجر بين الصحابة: ويمسكون عما شجر بين الصحابة ويقولون: إن هذه الآثار المروية في مساويهم منها ما هو كذب ومنها ما هو زيد فيه ونقص وغيّر عن وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون إما مجتهدون مصيبون، وإما مجتهدون مخطئون[3].

9 - وقال ابن كثير: أما ما شجر بينهم بعده عليه الصلاة والسلام فمنه ما وقع من غير قصد كيوم الجمل ومنه ما كان عن اجتهاد كيوم صفين، والاجتهاد يخطئ ويصيب ولكن صاحبه معذور وإن أخطأ ومأجور أيضاً: وأما المصيب فله أجران[4].

10 - وقال ابن حجر: واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم، لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد بل ثبت أنه يؤجر أجراً واحداً، وأن المصيب يؤجر أجرين[5].

فأهل السنة مجمعون على وجوب السكوت عن الخوض في الفتن التي جرت بين الصحابة ﷺ بعد قتل عثمان والترحم عليهم، وحفظ فضائل الصحابة والاعتراف لهم بسوابقهم ونشر محاسنهم رضي الله عنهم وأرضاهم[6].

تاسعاً: تغير الموازين لصالح معاوية بعد معركة صفين

بعد معركة صفين بدأت الموازين تتبدل لصالح معاوية ﷺ فقد خرج الخوارج من جيش علي ﷺ، وانشغل بقتالهم، بينما ازداد أمر معاوية قوة لا سيما بعد انتهاء أمر التحكيم، وعدم الوصول إلى حل جزري، وكان معاوية ﷺ يعمل بشتى الوسائل سرًّا وعلانية على

(1) البخاري. كتاب: الفتن رقم: 7109.
(2) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولايجوز الجهل به، ص: 67- 69.
(3) العقيدة الواسطية مع شرحها لمحمد خليل هراس، ص: 173.
(4) الباعث الحثيث، ص: 182.
(5) فتح الباري (13/ 634) عقيدة أهل السنة (2/ 740).
(6) عقيدة أهل السنة (2/ 740).

إضعاف جانب أمير المؤمنين علي ﷺ، واستغل ما أصاب جيشه من تفكك وخلاف، فأرسل جيشاً إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص ﷺ سيطر عليها وضمها إليه وقد ساعده على ذلك عدة أمور منها:

1 - انشغال أمير المؤمنين علي بالخوارج.

2 - عامل أمير المؤمنين علي ﷺ على مصر - محمد بن أبي بكر - لم يكن على قدر من الدهاء كسلفه قيس بن سعد الساعدي الأنصاري، فدخل في حرب مع المطالبين بدم عثمان ولم يسايسهم كما كان يضع الوالي السابق، فهزموه.

3 - اتفاق معاوية مع المطالبين بدم عثمان ﷺ في مصر في الرأي، فساعده في السيطرة عليها[1].

4 - بعد مصر عن مركز أمير المؤمنين علي ﷺ وقربها من الشام.

5 - طبيعتها الجغرافية، فهي متصلة بأرض الشام عن طريق سيناء وتمثل امتداداً طبيعياً، وقد أضافت مصر قوة كبيرة لمعاوية ﷺ، قوة بشرية واقتصادية كبيرة، وكذلك أرسل معاوية بعوثه إلى شمال الجزيرة العربية، ومكة والمدينة وإلى اليمن ولكن لم تلبث هذه البعوث أن ردت على أعقابها عندما أرسل أمير المؤمنين عليٌّ من يصدها[2]، وعمل معاوية ﷺ على استمالة كبار أعيان القبائل وعمال علي ﷺ، فقد حاول سحب قيس بن سعد ﷺ عامل علي على مصر إليه فلم يستطع، ولكنه استطاع أن يثير شك حاشية علي ﷺ ومستشاريه فيه فعزله[3]، وكان عزل سعد عن ولاية مصر مكسباً كبيراً لمعاوية، كما حاول سحب زياد بن أبيه عامل علي ﷺ على فارس ففشل في ذلك[4]، وقد استطاع معاوية ﷺ أن يؤثر على بعض الأعيان والولاة بسبب ما يمنيهم ويعدهم به، ولما يرونه من علو أمر معاوية وتفرق أمر علي ﷺ؛ إذ يقول في إحدى خطبه: ألا إن بسراً قد أطلع من قبل معاوية، ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون عليكم باجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم وبطاعتهم أميرهم ومعصيتكم أميركم، وبأدائهم الأمانة وبخيانتكم، استعملت فلاناً فغلَّ وغدر وحمل المال إلى معاوية، واستعملت فلاناً فخان وغدر وحمل المال إلى معاوية، حتى لو ائتمنت أحدهم على قدح خشبت على عِلاَّتِهِ، اللّهم إني أبغضتهم، وأبغضوني فأرحهم مني وأرحني منهم[5]. ولم يستسلم أمير المؤمنين علي ﷺ لهذه المصائب، وهذا التقاعس، والتخاذل فقد بذل جهده في

(1) الطبقات (3/ 83) خلافة علي، لعبد الحميد، ص: 351 سند صحيح.

(2) تاريخ خليفة، ص: 198 بدون سند

(3) ولاة مصر، ص: 45, 46.

(4) الاستيعاب (2/ 5,5, 526).

(5) التاريخ الصغير (1/ 125) بسند منقطع وله شواهد.

استنهاض همة جيشه بكل ما أوتي من علم وفصاحة وبيان، فخطبه الحماسية المشهورة التي اشتهرت عنه، والتي تعتبر من عيون التراث لم يقلها من فراغ أوخيال، بل مرَّ تجرّعه، وواقع أليم عاصره، ولقد ذكرت منها في كتابي عن أمير المؤمنين علي ﷺ [1].

عاشراً: المهادنة بين امير المؤمنين علي ومعاوية ﷺ:

بالرغم من كل هذه المحاولات والجهود المضنية لم يستطع أمير المؤمنين علي ﷺ أن يحقق مايريد؛ إذ لم يستطع أن يغزو الشام بسبب التفكك والتصدع الذي حدث في داخل جيشه وتفرق كلمتهم وظهور الأهواء، فاضطر أمير المؤمنين علي ﷺ في سنة أربعين للهجرة أن يوافق لمعاوية بن أبي سفيان ﷺ على أن يكون العراق له، والشام لمعاوية ولا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو[2]، قال الطبري في تاريخه: وفي هذه السنة - 40هـ - جرت بين علي وبين معاوية ﷺ المهادنة بعد مكاتبات جرت بينهما يطول بذكرها الكتاب على وضع الحرب بينهما، ويكون لعلي العراق، ولمعاوية الشام، فلا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو[3]، ويبدو أن هذه المهدنة لم تستمر، فمعاوية أرسل بسر بن أرطأة إلى الحجاز واليمن في العام الذي استشهد فيه علي ﷺ [4].

الحادي عشر: استشهاد أمير المؤمنين علي واستقبال معاوية خبر مقتله:

ولما لم يتمكن علي ﷺ من تجهيز الجيش بما يصبو ويريد ورأى خذلانهم كره الحياة وتمنى الموت وكان يتوجه إلى الله بالدعاء ويطلب منه ﷻ أن يعجل منيته، فمما روي عنه أنه خطب يوماً فقال: اللّهم إني قد سئمتهم وسئموني ومللتهم وملوني، فأرحني منهم وأرحهم مني، فما يمنع أشقاكم أن يخضبها بدم، ووضع يده على لحيته[5]، وقد ألح عليٌّ ﷺ في الدعاء في أيامه الأخيرة، فعن جندب قال: ازدحموا على علي ﷺ حتى وطئوا على رحاله فقال: اللّهم إني قد مللتهم وملوني وأبغضتهم وأبغضوني، فأرحني منهم وأرحهم مني[6]، وفي رواية أخرى عن أبي صالح قال: شهدت علياً وضع المصحف على رأسه حتى سمعت تقعقع الورق، فقال: اللّهم إني سألتهم ما فيه فمنعوني، اللّهم إني قد مللتهم وملوني، وأبغضتهم وأبغضوني، وحملوني على غير أخلاقي، فأبدلهم بي شراً مني، وأبدلني بهم خيراً منهم ومث

(1) سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (2/ 1020).
(2) تاريخ الطبري (6/ 56)، خلافة علي، عبد الحميد، ص: 356.
(3) المصدر نفسه (6/ 56).
(4) التاريخ الصغير للبخاري (1/ 41)، وخلافة علي أبي طالب، ص 431.
(5) مصنف عبد الرزاق (10/ 154) بإسناد صحيح، الطبقات (3/ 4).
(6) الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم (1/ 37) بإسناد حسن خلافة علي، ص: 432.

قلوبهم ميتة الملح في الماء[1]، وفي رواية فلم يلبث إلا ثلاثاً أو نحو ذلك، حتى قتل ﷺ[2]، وقال الحسن بن علي: قال لي علي ﷺ: إن رسول الله ﷺ سنح لي الليلة في منامي، فقلت: يارسول الله ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدد[3]؟ قال: «ادع عليهم» قلت: اللهم أبدلني بهم من هو خير منهم، وأبدلهم بي من هو شر مني لهم. قال الحسن ﷺ: فخرج فضربه الرجل[4]. ولما جاء خبر قتل علي إلى معاوية ﷺ جعل يبكي، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلته؟ فقال: ويحك إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم[5]، وكان معاوية يكتب فيما ينزل به يسأل له علي بن أبي طالب ﷺ عن ذلك، فلما بلغه قتله قال: ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب، فقال له أخوه عتبة: لا يسمع هذا منك أهل الشام، فقال له: دعني عنك[6]، وقد طلب معاوية ﷺ في خلاقته من ضرار الصُّدائي أن يصف له علياً ﷺ فقال: أعفني يا أمير المؤمنين، قال: لتصفنَّه، قال: أما إذا لابد من وصفه فكان والله بعيد المدى، شديد القُوى، يقول فصلاً[7]، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، ويستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته وكان غزير العبرة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن، وكان فينا كأحَدِنا، يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن والله - مع تقريبه إيانا وقربه منا - لانكاد نكلمه هيبة له، يعظِّمُ أهل الدين ويُقرِّب المساكين، لا يطمع القويُّ في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله وأشهد أنه لقد رأيته في بعض مواقفه - وقد أرخى الليل سُدولَه[8]، وغارت نجومه - قابضاً على لحيته، يتململ تململ السقيم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يادنيا غُرِّي غيري إلي تعرضْت أم إليَّ تشوَّقتِ: هيهات هيهات، قد بايتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك كثير، آه من قلة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق.

فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه ياضرار؟ قال حزن من ذبح ولدها وهو في حجرها[9]، وعن عمر بن عبد العزيز ﷺ: قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام وأبو بكر وعمر جالسان عنده فسلمت عليه وجلست فبينما أنا جالس إذ أتي بعلي ومعاوية فأدخلا بيتاً وأجيف[10] الباب وأنا أنظر، فما كان بأسرع من أن خرج علي وهو يقول: قضي لي ورب الكعبة، ثم ما كان بأسرع من أن خرج معاوية وهو يقول: غفر لي ورب الكعبة[11].

---

(1) سير أعلام النبلاء (3/ 144).
(2) المحن، ص: 99 لأبي العرب وخلافة علي لعبد الحميد، ص: 432.
(3) الأود: العوج، اللدد: الخصومة.
(4) تاريخ الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، ص: 649.
(5) البداية والنهاية (8/ 133).
(6) الاستيعاب (3/ 1108).
(7) الاستيعاب (3/ 1107).
(8) سدوله: سدله.
(9) الاستيعاب (3/ 1108).
(10) أجيف الباب: رُدَّ وأغلق.
(11) البداية والنهاية (8/ 133).

المبحث الرابع

معاوية ﷺ في عهد الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ

كانت بيعة الحسن بن علي ﷺ في شهر رمضان من سنة 40 هـ وذلك بعد استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم المرادي[1]، وقد اختار الناس الحسن بعد والده ولم يعين أمير المؤمنين أحد من بعده، فعن عبد الله بن سبع قال: سمعت علياً يقول: لتُخضبن هذه من هذا[2] فما ينتظر بي الأشقى[3]. قالوا يا أمير المؤمنين، فأخبرنا به نبير[4] عترته قال: إذن والله تقتلون بي غير قاتلي. قالوا: فاستخلف علينا قال: لا، ولكن أترككم إلى ما تركككم إليه رسول الله ﷺ قالوا: فما تقول لربك إذا أتيته، قال وكيع[5] مرة: إذا لقيته قال: أقول: اللهم تركتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني إليك وأنت فيهم، فإن شئت أصلحتهم وإن شئت أفسدتهم[6]، وفي رواية: أقول: اللهم استخلفتني فيهم ما بدا لك ثم قبضتني وتركتك فيهم[7]. وبعد مقتل علي صلى عليه الحسن بن علي وكبر عليه أربع تكبيرات، ودفن بالكوفة. وكان أول من بايعه قيس بن سعد، قال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وقتال المُحلِّين، فقال له الحسن ﷺ: على كتاب الله وسنة نبيه فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط: فبايعه وسكت، وبايعه الناس[8]، وقد اشترط الحسن بن علي على أهل العراق عندما أرادوا بيعته فقال لهم: إنكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت، وتحاربون من حاربت[9]، وفي رواية قال لهم: والله لا أبايعكم إلا على ما أقول لكم قالوا: ما هو؟ قال: تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت[10]، وفي رواية ابن سعد: إن الحسن ابن علي بن أبي طالب بايع أهل العراق بعد علي على بيعتين، بايعهم على الأمرة، وبايعهم على أن يدخلوا فيما دخل فيه، ويرضوا بما رضي به[11]، ويستفاد من الروايات السابقة ابتداء

(1) الطبقات (3/ 35- 38) تحقيق د. إحسان عباس.
(2) أي: لتخضبن لحيته من دم رأسه.
(3) مجمع الزوائد (9/ 139) مسند أحمد (2/ 325) حسن لغيره.
(4) نبير عترته: نهلك أقرباءه، لسان العرب (4/ 5) (4/ 538).
(5) وكيع بن الجراح، ثقة حافظ عابد، التقريب، ص: 581.
(6) مسند أحمد (2/ 325) حسن لغيره الموسوعة الحديثية.
(7) كشف الأستار عن زوائد البزار (3/ 204).
(8) تاريخ الطبري (6/ 77).
(9) المصدر نفسه (6/ 77).
(10) الطبقات تحقيق د. محمد السلمي (1/ 287,286).
(11) المصدر نفسه (1/ 316، 317).

الحسن ﷺ في التمهيد للصلح فور استخلافه وقد باشر الحسن بن علي سلطته كخليفة، فرتب العمال وأمّر الأمراء وجند الجنود وفرق العطايا، وزاد المقاتلة في العطاء مائة مائة فاكتسب بذلك رضاءهم[1]، وكان في وسعه أن يخوض حرباً لاهوادة فيها ضد معاوية، وكانت شخصيته القذة من الناحية العسكرية والأخلاقية، والسياسية، والدينية تساعده على ذلك مع وجود عوامل أخرى، كوجود قيس بن سعد بن عبادة، وحاتم بن عدي الطائي وغيرهم في صفه، من الذين لهم من القدرات القيادية الشيء الكثير، إلا أن الحسن بن علي مال إلى السلم والصلح لحقن الدماء، وتوحيد الأمة، والرغبة فيما عند الله وزهده في الملك وغير ذلك من الأسباب، وقد قاد الحسن بن علي مشروع الإصلاح الذي توّج بوحدة الأمة، وقد تنازل الحسن بن علي من موقف قوة وهناك دلائل تشيرُ إلى ذلك منها:

1 - الشرعية التي كان يملكها الحسن:

لقد اختير الحسن بن علي بعد والده اختياراً شورياً وأصبح الخليفة الشرعي على الحجاز واليمن والعراق، وكل الأماكن التي كانت خاضعة لوالده، وقد استمر في خلافته ستة أشهر وتلك المدة تدخل ضمن الخلافة الراشدة التي أخبر عنها رسول الله ﷺ بأن مدتها ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً، فقد روى الترمذي بإسناده إلى رسول الله ﷺ حيث قال: «**الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك**»[2]، وقد علق ابن كثير على هذا الحديث فقال: إنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين سنة، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ فإنه توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة وهذا من دلائل النبوة صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليماً[3]، وبذلك يكون الحسن بن علي خامس الخلفاء الراشدين[4]، وقد تحدث عن شرعية الحسن بن علي بالخلافة كثير من علماء أهل السنة منهم أبو بكر بن العربي[5]، والقاضي عياض[6]، وابن كثير[7]، وشارح الطحاوية[8]، والمناوي[9]، وابن الحجر الهيثمي[10]، ولو أراد الحسن أن

(1) تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، ص: 67، مقاتل الطالبيين، ص: 55.
(2) سنن الترمذي مع شرحها تحفة الأحوذي (6/ 397-395) حديث حسن.
(3) البداية والنهاية (11/ 134).
(4) مآثر الأناقة (1/ 105) مرويات خلافة معاوية، ص: 155.
(5) أحكام القرآن لابن العربي (4/ 1720).
(6) شرح النووي على صحيح مسلم (12/ 201).
(7) البداية والنهاية (11/ 134).
(8) شرح الطحاوية، ص: 545.
(9) فيض القدير (2/ 409).
(10) الصواعق المحرقة (2/ 397).

يتعب معاوية بحكم أن الشرعية معه لأمكن ذلك، ولقام بترتيب حملة إعلامية منظمة في أوساط أهل الشام، لكسب ثقتهم أو على الأقل زعزعة موقف معاوية بينهم، فقد كان يملك قوة معنوية ونفوذ روحي لا يستهان به بحكم الشرعية التي يستند إليها، ولكونه حفيد الرسول ﷺ.

2 - تقييم الحسن بن علي للموقف وقدراته القيادية:

فعندما قال له نفير بن الحضرمي: إن الناس يزعمون إنك تريد الخلافة، فقال: كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سالمت، ويحاربون من حاربت، فتركتها ابتغاء وجه الله[1]. فهذه شهادة الحسن ﷺ، بأنه كان في وضع قوي، وبأن اتباعه على استعداد لمحاربة من يريد أو مسالمتهم، كما كان ﷺ يملك من الملكات الخطابية والفصاحة البيانية، وصدق العاطفة وقوة التأثير والقرب من رسول الله ﷺ ما يجعله أكثر قوة وتماسكاً ودليلنا على ذلك، ما قام به من استنفار أهل الكوفة للخروج مع والده، وكان أبو موسى الأشعري ﷺ قد ثبط الناس ونهاهم عن الخروج والقتال والفتنة وأسمعهم ما سمعه من رسول الله من التحذير من الاشتراك في الفتنة[2]، فقد أرسل علي ﷺ قبل الحسن محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر، ولكنهما لم ينجحا في مهمتهما، وأرسل علي بعد ذلك هشام بن عتبة بن أبي وقاص، ففشل في مهمته لتأثير أبي موسى عليهم[3]، وأتبعه علي بعبد الله بن عباس، فأبطؤوا عليه، فأتبعه بعمار بن ياسر والحسن[4] وكان للحسن أثر واضح، فقد قام في الناس خطيباً وقال: أيها الناس، أجيبوا دعوة أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه، والله لأن يليه ألوا النهى[5]، أمثل في العاجلة وخير في العاقبة، فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به[6] وابتليتم. ولبّى كثير من أهل الكوفة وخرجوا مع عمار والحسن إلى علي ما بين الستة إلى سبعة آلاف رجل[7]، ولا ننسى أن أبا موسى الأشعري كان والياً على الكوفة ومن قيادات العراق المحبوبين من عهد عمر، وهو من هو في علمه وزهده ومكانته عند الناس ومع ذلك فقد استطاع الحسن أن يكسب أهل الكوفة لصفه وخرجوا معه.

---

(1) البداية والنهاية (11/ 206).

(2) تاريخ الطبري (5/ 514) مصنف ابن أبي شيبة (15/ 12) إسناده حسن.

(3) خلافة علي بن أبي طالب، ص: 144، لعبد الحميد، سير أعلام (3/ 486).

(4) فتح الباري (13/ 53) علي بن أبي طالب، للصلابي (2/ 60).

(5) تاريخ الطبري (5/ 516) أولوا النهى: أصحاب العقول.

(6) تاريخ الطبري (5/ 516).

(7) مصنف عبد الرزاق (5/ 456 - 457) بسند صحيح للزهري.

3 - وجود بعض القيادات الكبيرة في صفه:

كان معسكر الحسن بن علي فيه من القيادة الكبيرة: كأخيه الحسين، وابن عمه عبد الله بن جعفر، وقيس بن سعد بن عبادة وهو من دهاة العرب -، وعدي بن حاتم وغيرهم فلو أراد الخلافة لأعطي المجال لقياداته للتحرك نحو تعبئة الناس والدخول في الحرب مع معاوية وعلى الأقل يكون خليفة على دولته إلى حين.

4 - معرفته لنفسية أهل العراق:

كان له قدرات خاصة في التعامل مع أهل العراق ومعرفة نفوسهم ولذلك زاد لهم في العطاء منذ بداية خلافته، كما أن مهمته التي قادها في نجاح مشروعه الإصلاحي كانت أصعب من حربه لمعاوية، ومع ذلك تغلب على الكثير من العوائق التي واجهته، فقد حاولوا قتله، ورفض بعض الناس الصلح، وغير ذلك من العوائق إلا أنه تغلب عليها كلها وحقق الأهداف التي رسمها من حقن الدماء، ووحدة الأمة، وأمن السبيل، وعودة حركة الفتوح.. إلخ، مما يدل على قدراته القيادية الفذّة.

5 - تقييم عمرو بن العاص ومعاوية لقوات الحسن ﷺ:

فقد جاء في البخاري: استقبل والله الحسن بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: إني أرى أن لا تُولي حتى تقتل أقرانها. فقال معاوية - وكان خير الرجلين - أي عمرو: إن قتل هؤلاء من لي بأمور الناس من لي بنسائهم من لي بضيعتهم؟ فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس - عبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز - فقال: اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه وقولا له، واطلبا إليه[1].

أ - فعمرو بن العاص ﷺ، القائد العسكري الشهير والسياسي المحنك والذي عركته الحروب يقول: إني أرى كتائب لا تولي حتى تقتل أقرانها.

ب - وأما معاوية ﷺ، فتقييمه للموقف العسكري بأنه لا يستطيع أحد أن ينتصر ويحقق حسماً عسكرياً إلا بعد خسائر فادحة للطرفين، ولا يستطيع معاوية حتى لو كان هو المنتصر، أن يتحمل ما تركت الحرب من أرامل وأيتام وقتل خير المسلمين، وما يترتب على ذلك من مفاسد كبرى اجتماعية وسياسية واقتصادية، وأخلاقية للأمة الإسلامية، ولذلك اختار معاوية شخصيتين كبيرتين من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أصحاب النفوذ في المجتمع الإسلامي ولهم حضور واحترام عند الحسن وهما من قريش، فالشخصيتان اللتان أرسلهما معاوية ﷺ تدل على حرصه على نجاح الصلح مع الحسن بأي ثمن ممكن، وقد ظل زمام

(1) البخاري، كتاب: الصلح، رقم: 2704.

الموقف بيد الحسن ابن علي ﷺ ويد أنصاره، ولو لم يكن الحسن مرهوب الجانب لما احتاج معاوية إلى أن يفاوضه ويوافق على ما طلب من الشروط والضمانات، ولكان عرف ضعف جانب الحسن، وانحلال قوته عن طريق عيونه، ولدخل الكوفة من غير أن يكلف نفسه مفاوضة أحد أو ينزل على شروطه ومطالبه[1]. كان الحسن بن علي ﷺ ذا خلق يجنح إلى السلم، وكان ﷺ يملك رؤية إصلاحية واضحة المعالم، خضعت لمراحل وبواعث وتغلب على العوائق، وكتب شروطه، وترتب على صلحه نتائج، وأصبح هذا الصلح من مفاخر الحسن على مر العصور وتوالي الأزمان، فكان في صلحه مع معاوية وحقنه لدماء المسلمين، كعثمان في جمعه للقرآن، وكأبي بكر في حربه للمرتدين[2]، ولا أدل على ذلك في كون هذا الفعل من الحسن يعد علماً من أعلام النبوة، والحجة في ذلك ما أخرجه البخاري من طريق أبي بكرة ﷺ قال: رأيت النبي ﷺ على المنبر، والحسن بن علي على جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[3].

أولاً: أهم مراحل الصلح: مر الصلح بمراحل من أهمها:

المرحلة الأولى:

1 - دعوة رسول الله ﷺ للحسن بأن يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، فتلك الدعوة المباركة دفعت الحسن ﷺ إلى الإقدام على الصلح بكل ثقة وتصميم[4].

المرحلة الثانية:

شرط البيعة الذي وضعه الحسن ﷺ أساساً لقبول مبايعة أهل العراق له، ذلك الشرط الذي نص على أنهم يسالمون من يسالم ويحاربون من يحارب[5].

المرحلة الثالثة:

وقوع المحاولة الأولى لاغتيال الحسن ﷺ بعد أن كشف عن نيته في الصلح مع معاوية ﷺ وهذه المحاولة يبدو أنها قد جرت بعد استخلافه بقليل[6].

المرحلة الرابعة:

خروج الحسن بجيش العراق من الكوفة إلى المدائن، وإرساله للقوة الضاربة من الجيش وهي الخميس إلى مسكن بقيادة قيس بن سعد بن عبادة[7].

---

(1) دراسة في تاريخ خلفاء الدولة الأموية، ص: 61.
(2) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 134.
(3) البخاري، رقم 7109.
(4) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 317.
(5) مرويات خلافة معاوية في تاريخ الطبري، ص: 156.
(6) المصدر نفسه، ص: 126.
(7) المصدر نفسه، ص: 128.

المرحلة الخامسة:

خروج معاوية ﷺ من الشام وتوجهه إلى العراق بعد أن وصل خبر خروج الحسن من الكوفة إلى المدائن بجيوشه.

المرحلة السادسة:

تبادل الرسل بين الحسن و معاوية ، ووقوع الصلح بينهما رضوان الله عليهما.

المرحلة السابعة:

محاولة اغتيال الحسن ﷺ ، فبعد نجاح مفاوضات الصلح بين الحسن ومعاوية ﷺ ، شرع الحسن ﷺ في تهيئة نفوس أتباعه على تقبل الصلح الذي تم، فقام فيهم خطيباً ليبين لهم ما تم بينه وبين معاوية، وفيما هو يخطب هجم عليه بعض رجال معسكره محاولين قتله، لكن الله ﷻ أنجاه كما أنجاه من قبل[1].

المرحلة الثامنة:

تنازل الحسن بن علي عن الخلافة وتسليمه الأمر إلى معاوية رضوان الله عليهم أجمعين، بعد أن أنجى الله ﷻ الحسن بن علي من الفتنة التي وقعت في معسكره، ترك المدائن وسار إلى الكوفة وخطب في أهلها فقال: أما بعد فإن أكيس الكيس[2] التُّقى، وإن أحمق الحمق الفجور، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إما كان حقاً لي تركته لمعاوية إرادة إصلاح هذه الأمة وحقن دمائهم، أو يكون حقاً كان لامرئ كان أحق به مني ففعلت ذلك ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[3] [الأنبياء: 111].

ثانياً: أهم أسباب ودوافع الصلح:

وأما أهم الأسباب والدوافع للصلح الذي تمَّ بين الحسن ومعاوية فهي:

1 - الرغبة فيما عند الله وإرادة صلاح هذه الأمة:

قال الحسن بن علي ﷺ رداً على نفير الحضرمي عندما قال له: إن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة. فقال: كانت جماجم العرب بيدي، يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت فتركتها ابتغاء وجه الله[4].

---

(1) المصدر نفسه، ص: 139.

(2) أكيس : أعقل، والكيس العقل : لسان العرب (16/ 201) ومن أراد التوسع فليراجع خلافة مرويات معاوية في تاريخ الطبري، ص: 126 إلى 149.

(3) المعجم الكبير (3/ 26) إسناده حسن.

(4) البداية والنهاية (11/ 206).

2 - دعوة الرسول ﷺ له:

إن دعوة الرسول ﷺ بأن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين[1]، دفعت الحسن إلى التخطيط والاستعداد النفسي للصلح والتغلب على العوائق التي في الطريق، فقد كان هذا الحديث الكلمة الموجهة الرائدة للحسن في اتجاهاته وتصرفاته ومنهج حياته، فقد حلت في قرارة نفسه واستولت على مشاعره وأحاسيسه واختلطت بلحمه ودمه، ومن خلال هذا التوجيه واستيعابه وفهمه له بنى مشروعه الإصلاحي وقسم مراحله، وكان متيقناً من نتائجه، فالحديث النبوي كان دافعاً أساسياً وسبباً مركزياً في اندفاع الحسن للإصلاح.

3 - حقن دماء المسلمين:

قال الحسن ﷺ: . . . خشيت أن يجيء يوم القيامة سبعون ألفاً، أو أكثر أو أقلُّ كلهم تنضح أوداجهم دماً، كلهم يستعدي الله فيما أهْرِيقَ دمه[2]؟ وقال ﷺ: ألا إن أمر الله واقع إذ لا له دافع وإن كره الناس، إني ما أحببت أن لي من أمة محمد مثقال حبة من خردل يهراق فيه محجمة من دم، قد علمت ما ينفعني ممَّا يضرني ألحقوا بطيئكم[3].

4 - الحرص على وحدة الأمة:

قام الحسن بن علي خطيباً ﷺ في إحدى مراحل الصلح فقال: أيها الناس، إني قد أصبحت غير محتمل على مسلم ضغينة[4]، وإني نظار لكم كنظري لنفسي، وأرى رأياً فلا تردوا عليَّ رأيي، إن الذي تكرهون من الجماعة أفضل مما تحبون من الفرقة[5]، وقد تحقق بفضل الله. ثم حرص الحسن على وحدة الأمة ذلك المقصد العظيم، فقد ارتأى ﷺ أن يتنازل عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين، وتجنباً للمفاسد العظيمة التي ستلحق الأمة كلها في المآل إذا بقي مصراً على موقفه، من استمرار الفتنة، وسفك الدماء، وقطع الأرحام واضطراب السبل، وتعطيل الثغور وغيرها ـ وقد تحققت بحمد الله ـ وحدة الأمة بتنازله عن عرض زائل من أعراض الدنيا حتى سمّي ذلك العام عام الجماعة[6]، وهذا يدل على فقه الحسن في معرفته لاعتبار المآلات ومراعاته التصرفات.

5 - مقتل أمير المؤمنين علي ﷺ:

ومن الأسباب التي دعت أمير المؤمنين الحسن بن علي إلى الصلح ما روّع به من مقتل أبيه، فقد ترك ذلك فراغاً كبيراً في جبهة العراق وأثر اغتياله على نفسية الحسن ﷺ، فترك فيها

---

(1) البخاري، رقم: 7109.
(2) البداية والنهاية (11/ 206).
(3) تاريخ دمشق (14/ 89) بطيئكم: جهنكم ونواد.
(4) الضغينة: الحقد.
(5) الأخبار الطوال، ص: 200.
(6) اعتبارات المآلات ومراعاة نتائج التصرفات، ص: 167.

حزناً وأسىً شديداً، فقد قتل هذا الإمام العظيم بدون وجه حق ولم يرع الخوارج سابقته في الإسلام ولأفضاله العظيمة، ولخدماته الجليلة التي قدمها للإسلام فقد كانت حياته حافلة بالقيم والمثل والعمل على تكريس أحكام الشريعة على مستوى الدولة والشعب، لقد كان علياً ﷺ معلماً من معالم الهدى وفارقاً بين الحق والباطل فكان من الطبيعي أن يتأثر المسلمين لفقده ويشعروا بالفراغ الكبير الذي تركه، فقد كان وقع مصيبة مقتله على المسلمين عظيماً، فجللّهم الحزن، وفاضت مآقيهم بالدموع ولهجت ألسنتهم بالثناء والترحم عليه، وكان مقتله سبباً في تزهيد الحسن في أهل العراق أولئك الذين غمرتهم مكارم أخلاق أمير المؤمنين وشرف صحبته فأضلتهم الفتن والأطماع، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، ونستثنى من أولئك الصادقين المخلصين لدينهم وخليفتهم الرّاحل العظيم ﷺ وأرضاه، فقد كان مقتله ضربة قوية وجهت لعهد الخلافة الراشدة وكانت من أسباب زوالها فيما بعد.

6 - شخصية معاوية:

إن تسليم الحسن بن علي الخلافة إلى معاوية مع أنه كان معه أكثر من أربعين ألفاً بايعوه على الموت، فلو لم يكن أهلاً لها لما سلمها السبط الطيب إليه ولحاربه[1]، فقد ذكر المترجمون والمؤرخون لسيرته فضائل كثيرة وأعمال جليلة يأتي ذكرها بإذن الله تعالى في هذا الكتاب.

7 - اضطراب جيش العراق وأهل الكوفة:

كان لخروج الخوارج أثر في إضعاف أمير المؤمنين علي ﷺ ، كما أن الحروب في الجمل وصفين والنهروان، تسببت في ملل أهل العراق للحرب ونفورهم منها، وخاصة أهل الشام في صفين، فإن حربهم ليس كحرب غيرهم، فمعركة صفين الطاحنة لم تفارق مخيلتهم فكم يتمت من الأطفال ورملت من النساء، بدون أن يتحقق مقصودهم ولولا الصلح أو التحكيم الذي رحب به أمير المؤمنين علي وكثير من أصحابه لكانت مصيبة على العالم الإسلامي لا يتخيل آثارها السيئة، فكان هذا التخاذل عن المسير مع علي ﷺ إلى الشام مرة أخرى إلى فريق منهم وتميل إليه نفوسهم وإن كانوا يعلمون أن علياً على حق[2]، فقد استلم الحسن ﷺ الخلافة، وجيش العراق مضطرب وأهل الكوفة مترددون في أمرهم[3] وهذا ليس على إطلاقه فجيش الحسن يمكن تقويته كما أن هناك فصائل منه على استعداد للقتال على رأسهم قيس بن سعد الخزرجي وغيره من القادة[4].

---

(1) الناهية عن طعن أمير المؤمنين معاوية، ص: 57.

(2) خلافة علي بن أبي طالب، عبد الحميد علي، ص: 345.

(3) الشيعة وأهل البيت، ص: 379 نقلاً عن الاحتجاج للطبرسي، ص: 148.

(4) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي، ص: 358 للصّلابيّ.

8 - قوة جيش معاوية:

وفي الجانب الآخر كان معاوية ﷺ يعمل بشتى الوسائل سراً أو علانية على إضعاف جانب أهل العراق منذ عهد علي ﷺ فاستغل ما أصاب جيشه من تفكك وخلاف، واجتمعت لمعاوية ﷺ عوامل ساعدت على قوة جبهته منها: طاعة الجيش له، اتفاق الكلمة عليه من أهل الشام، خبرته الإدارية في ولاية الشام، وثبات مصادره المالية، وعدم تحرجه من دفع الأموال من أجل تحقيق أهدافه التي يراها مصلحة للأمة.

ثالثاً: شروط الصلح:

تحدثت الكتب التاريخية والمصادر الحديثة وأشارت إلى حصول الصلح وفق شروط وضعها الطرفان، وقد تناثرت تلك الشروط بين كتّاب التاريخ وحاول بعض العلماء جمعها وترتيبها واستئناساً إلى ما وصلوا إليه نذكر أهم شروط الصلح منها:

1 - العمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء:

وقد ذكر هذا الشرط مجموعة من العلماء منهم ابن الحجر الهيثمي حيث ذكر صورة الصلح بين الحسن ومعاوية وجاء فيها: صالحه على أن يُسلم إليه ولاية المسلمين وأن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين المهديين[1]، وحتى بعض كتب الشيعة ذكرت هذا الشرط وهذا دليل على توقير الحسن بن علي لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي إلى حد جعل من إحدى الشروط على معاوية بن أبي سفيان ﷺ: إنه يعمل ويحكم في الناس بكتاب الله وسنة رسوله، وسيرة الخلفاء الراشدين[2]، وفي النسخة الأخرى ـ الخلفاء الصالحين[3] ـ ففي هذا الشرط ضبط لدولة معاوية مرجعيتها ومنهجها في الحياة.

2 - الأموال:

ذكر البخاري في صحيحه أن الحسن قال لوفد معاوية عبد الرحمٰن بن سمرة، وعبد الله بن عامر بن كريز: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال.. فمن لي بهذا؟ قالا: نحن لك[4] به.

فالحسن يتحدث عن أموال سبق أن أصابها هو وغيره من بني عبد المطلب يريد الحسن أن لا يطالبهم معاوية، ولا ذكر لأموال يطلب من معاوية أن يدفعها إليه من قادم[5]، وأما

(1) الصواعق المراسلة (2/ 399).
(2) الشيعة وأهل البيت، ص: 54.
(3) منتهى الآمال (2/ 212) نقلاً عن الشيعة وأهل البيت، ص: 54.
(4) البخاري، كتاب: الصلح رقم: 2704.
(5) دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين، ص: 64.

الروايات التي تشير بأن يجري معاوية للحسن كل عام مليون درهم وأن يحمل إلى أخيه الحسين مليوني درهم في كل عام ويفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس، وكأن الحسن باع الخلافة لمعاوية، فهذه الروايات، وما قيل حولها من تحليل وتفسير لا تقبل ولا يعتمد عليها، لأنها تصور إحساس الحسن بمصالح الأمة يبدو ضعيفاً أمام مصالحه الخاصة[1]. أما حقه من العطاء فليس الحسن فيه بواحد من دون المسلمين، ولا يمنع أن يكون حظه منه أكثر من غيره، ولكنه لا يصل إلى عشرة معشار ما ذكرته الروايات[2].

3 - الدماء:

ويتضمن اتفاق الصلح بين الجانبين أن الناس كلهم آمنون لا يؤخذ منهم أحد منهم بهفوة أو أحنة، ومما جاء في رواية البخاري أن الحسن قال لوفد معاوية.. وأن هذه الأمة عائث في دمائها، فكفل الوفد للحسن العفو للجميع فيما أصابوا من الدماء[3]، وقد تمّ الاتفاق على عدم مطالبة أحد بشيء كان في أيام علي، وهي قاعدة بالغة الأهمية تحاول دون الالتفاف إلى الماضي وتركز على فتح صفحة جديدة تركز على الحاضر والمستقبل[4]، وقد تمّ التوافق المبني على الالتزام والشرعية حيث تمّ الصلح على أساس العفو المطلق من كل ما كان بين الفريقين، قبل إبرام الصلح، وبالفعل لم يعاقب معاوية بذنب أحداً بذنب سابق وتأسس بذلك صلح الحسن على الإحسان والعفو، وتأليف القلوب.

4 - ولاية العهد، أم ترك الأمر شورى بين المسلمين:

قيل ومما اتفق الجانبان عليه من الشروط أن يكون الأمر من بعد معاوية للحسن[5]، وإن معاوية وعد أن ما حدّث به حدث والحسن حي يُسميّه وليجعلن الأمر إليه[6]، ولكن ابن أكثم روى في هذا الخصوص عن الحسن أنه قال: أما ولاية الأمر من بعده، فما أنا بالراغب في ذلك ولو أردت هذا الأمر لم أسلمه[7]، وجاء في نص الصلح الذي ذكره ابن الحجر الهيثمي: .. بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين[8]، وعند التدقيق في روايات طلب الحسن الخلافة بعد معاوية، نجد أنها تتنافى مع أنفة وقوة وكرم الحسن، فكيف يتنازل عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين وابتغاء مرضاة الله ثم يوافق على أن يكون تابعاً يتطلب أسباب الدنيا، وتشرأب عنقه للخلافة مرة أخرى، والدليل على أن هذا غير صحيح ما ذكر جبير بن

(1) المصدر نفسه، ص: 63.
(2) المصدر نفسه.
(3) البخاري، كتاب: الصلح (2/ 963).
(4) الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام، ص: 341.
(5) فتح الباري (13/ 70).
(6) سير أعلام النبلاء (3/ 264).
(7) الفتوح (3، 4/ 493).
(8) الصواعق المرسلة (2/ 299).

نفير قال: قلت للحسن بن علي أن الناس يزعمون أنك تريد الخلافة، فقال: كانت جماجم العرب بيدي يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت، فتركتها ابتغاء مرضاة الله[1]، ومن الملاحظ أن أحداً من أبناء الصحابة أو الصحابة لم يذكروا خلال بيعة يزيد شيئاً من ذلك، فلو كان الأمر كما تذكر الروايات عن ولاية عهد الحسن بن معاوية، لاتخذها الحسين بن علي ﷺ حجة، ولكن لم نسمع شيئاً من ذلك على الإطلاق مما يؤكد على أن مسألة خلافة الحسن لمعاوية لا أساس لها من الصحة، ولو كان الحسن ﷺ أسند إليه منصب ولاية العهد في الشروط لكان قريباً في عهد معاوية من إدارة الدولة أو تولي إحدى الأقاليم الكبرى، لا أن يذهب إلى المدينة وينعزل عن إدارة شئون الحكم، كما أن روح ذلك العصر يشير إلى مبدأ اختيار الأمة للحاكم عن طريق الشورى هو الأصل.

رابعاً نتائج الصلح:

إن أهم نتائج الصلح هي:

1 - توحد الأمة تحت قيادة واحدة.

2 - عودة الفتوحات إلى ما كانت عليه.

3 - تفرغ الدولة للخوارج.

4 - انتقال العاصمة الإسلامية إلى بلاد الشام.

(1) البداية والنهاية (11/ 206).